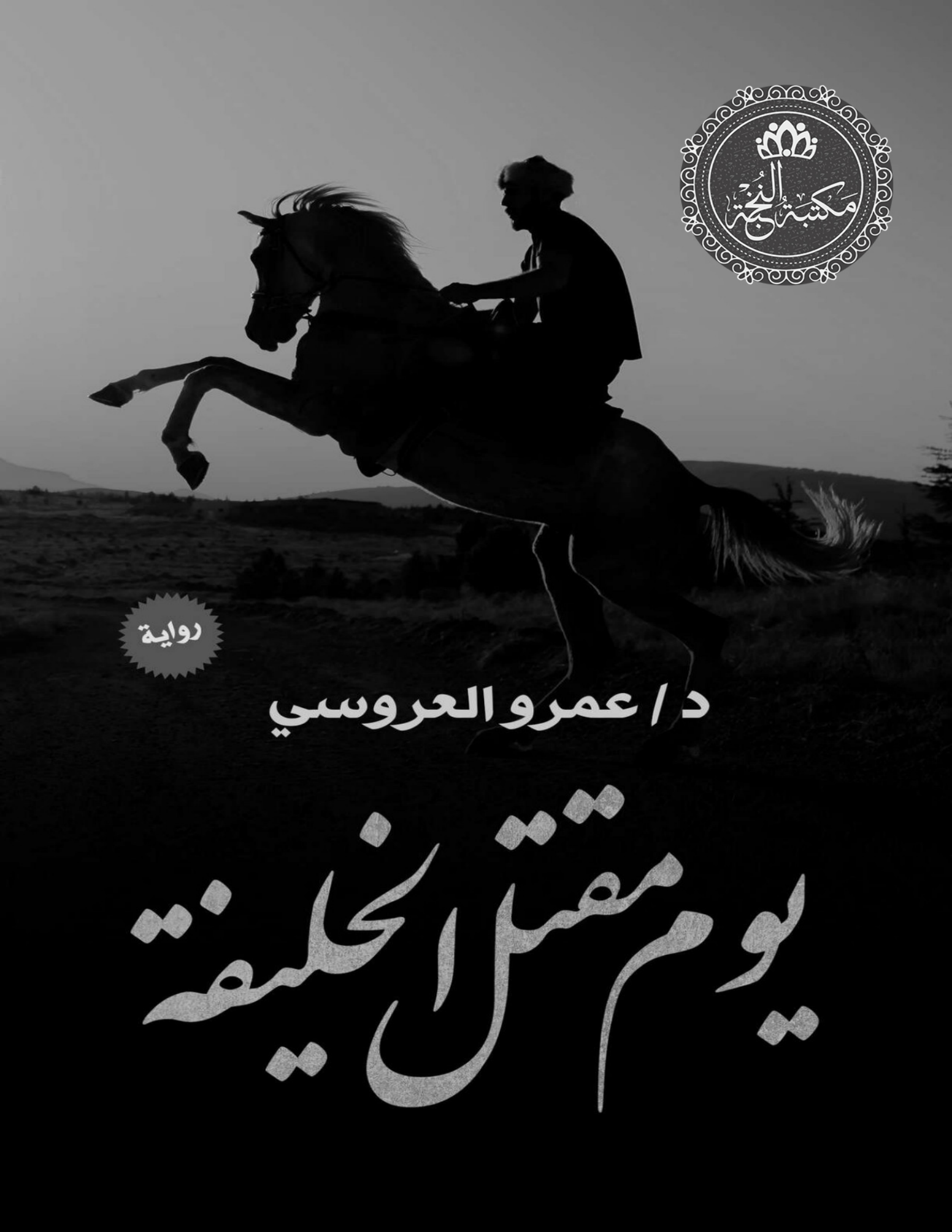

مكتبة النخبة

رواية

د / عمرو العروسي

يوم مقتل الخليفة

الكتاب: يوم مقتل الخليفة

الكتاب: د. عمرو العروسي

تصميم الغلاف: كريم آدم

تدقيق لغوي: أ. جمعة عبد الغزيز

رقم الإيداع: 2017/7129

الترقيم الدولي: 978-977-778-13-8

الطبعة الأولي: 2017

٢ عمارات منتصر- الهرم- الجيزة

ت:

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

د. عمرو العروسي

يوم مقتل الخليفة

رواية

نون للنشر والتوزيع

سنصير شعباً عندما ننسى ما تقول لنا القبيلة...

محمود درويش

قائمة المواضيع

طائفية التعليم

القلب يخفقُ أحياناً

جنكيز خان

الإخوة الأعداء

آلموت، قلعة الحشاشين

نحن... وهم

سقوط آل خوارزم

للجهاد طرق شتى...

الصعود من الهاوية

صناعة العنف

لعنة الخمر

إعصار الشرق يهدأ

موت المستنصر بالله

الملك الصالح وشجر الدر

الخليفة المؤمن

اغتيال توران شاه

الخاقان الجديد

الخنجر المقدس

ثورة التولونيين

حانوت العطور

تحية رجال القلعة

قراقورم الانطلاقة الجديدة

أبيك ينتفض (اغتيال فارس الدين أقطاي)

تهدم البيت من الداخل

الإعصار يبدأ من جديد

حصار آلموت

عام الفيضان العظيم

الحصار الحديدي

انتقام الخصيان

موقعة الأنبار

النهاية

طائفية التعليم

بغداد 620هـ

جلس سالم في حوش منزله، يطالع أحد الكتب بعدما تناول غذاءه مع زوجته، كان ذهنه مُشتتاً وهو يفكر في ولديه بُرهان وفوّاز فقد أعياه الشوق إليهما وأحب لو دخلا عليه الآن فيعرف منهُما تفاصيل ما كان في الكُتَّاب، خاصة وأنه اليوم الأول لفوّاز فيه، فقد سبقه أخوه بُرهان في الكُتَّاب منذ سنتين.

عجز سالم تماماً عن الإمساك بالأفكار المتداولة في الكتاب الذي بيده، حاول مرة أخرى أن يُغالب شوقه إلى بنيه حتى يستطيع إحراز تقدم في القراءة، خاصة وأنه يريد أن يُفرد لهما كل وقته إن جاءا من الكُتَّاب، وبالفعل انهمك في القراءة، ساعده في ذلك صفاء الجو ودفء الشمس ورائحة شجر السرو الخفيفة المُنبعثة من الشجيرات التي زرعها في منزله ليستمتع هو وأسرته برائحتها الزكية، وما أن استغرق سالم في القراءة حتى سمع جلبة عند باب الحديقة، فمد بصره من فوق حرف الكتاب يستشرفُ القادم فإذا بهما ولديه فوّاز وبُرهان فطوى صفحة الكتاب ليعرف أين وقف ووضعه على المقعدِ الذي كان يجلس عليه وقام فاتحاً زراعيه قائلاً: أهلاً أهلاً بابطالي الصغار...

جرى الطفلان ليلتحما بجسد أبيهما فرحين...

- افتقدتكما كثيراً، كيف كان يومكما في الكُتَّاب؟

- جيد يا أبي، ونظر بُرهان إلى أخيه مُبتسماً وقال: لكن فوّاز أفرط في البكاء اليوم وقد استاء الشيخ منه كثيراً.

سالم لبُرهان مبستماً:

- ولمَّ لم تحاول تهدئته أنت، اليس فوّاز أخاك الأصغر وكان من الواجب عليك احتواء خوفه.

- كان يبكي كثيراً وقد أحرجني وسط زملائي.

سالم بلهجة جادة:

- هو أخوك يا بُرهان بعد كل شئ، وهو يستحقُ دعمك مهما كانت الظروف.

أطرق بُرهان برأسه واعياً لما قاله أبوه، ليربت الأب على صدغ الصغير فواز قائلاً:

- وأنت يا فوّاز لمَّ كنت تبكي؟

- كنت أفتقد أمي، وكنت خائفاً، وقد كان الشيخ فظاً معي.

- ما كان لك أن تخاف صُحبة أخيك بُرهان، فهو لك وجاء، وكان لك أن تعرف أنك لن تلبث إلا بعض الوقت ثم مردك إليَّ وإلى والدتك، قالها سالم وطبع على جبين ولده قبلة حانية وربت على كتفه فانفرجت أسارير فوّاز وابتسم.

قال الأب بلهجة أكثر جدية:

وهل لقنك الشيخ شئ من القرآنِ اليوم؟ بادر بُرهان:

- لا لم يستحفظ اليوم شيئاً، فقد كان يبكي بشده، أعتقد أنه من يوم السبت القادم سوف يندمجُ معنا في الدرسِ، لكنه سوف يبدأ من حيث وقفنا نحن، فالشيخ لا يُعَلّم كل دارس مُستجد على حدى، بل يترك الدارسين المُستجدين ليندمجوا مع القُدامى ويتعلموا منهم.

- لكل طريقة من طرق التعليم مميزاتها وعيوبها، فالتعليم الجماعي أنفع للدارس الكسول لكنه يُعطل النشيط المُتميز عن التقدم، فالقافلة تسير على قدرِ أضعفها، أما التعليم الفردي الذي يُتابع فيه الشيخ كل دارس على حدى... فإنه يسمح بتقدم المتميزين من الدارسين لكن الكسالى والخاملون قد يزدادوا سوءاً.

- أنت تحادثهما عن مناهج التعليم وكأنك تحادث الجاحظ[1] والمسعودي[2].

قالتها ميسون زوجة سالم وأم الطفلين وهي مُقبلة عليهم من داخل المنزل وقد هرعا إليها يحتضناها من وسطها ويتمسحا في بطنها وهي سعيدة بشة بهم.

سالم ضاحكاً:

- ومال بُرهان وفوّاز بعمرو بن الجاحظ، فقد كان دميم الوجه، وابنينا ولله الحمد وسيمين، لكني أطمع من الله أن يتم نعمته عليَّ وعلى ولدي وأن يَرزقهما فهم العلماء.

- آمين يا رب، لكني ما أظن أنهما يفقهان كثيراً مما تقول.

- هو ظنك فقط يا ميسون، وإنما التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، وهما إن لم يستوعبا كل ما أقول فحسبي أن يثبت في ذهنهما بعض منه، فما عساه أن يثبت لن يمحوه الزمان وإن طال...

- كفانا الآن من هذا الحديث ودعني استأثر بأحبابي لبعض الوقت، فاليوم الخميس ولن يعودا إلى الكُتَّاب إلا السبت القادم.

دخلت ميسون على زوجها في غرفة نومهما من بعد ما أخلدت الولدين إلى النوم، فوجدته مُمسكاً بالكتابِ الذي كان يُطالعه وقت كان في انتظار أولاده...

- ألا تمل القراءة يا سالم ؟

- وما أفعل غيرها؟، فهي مُتعتي الوحيدة من بعد قراءة القرآن الكريم.

أغلق سالم الكتاب واستطرد قائلاً:

أنا سعيد اليوم بالتحاق فوّاز بالكُتَّاب، بارك الله لنا فيهما. أندسَت ميسون بجانب زوجها وهي تؤمِّن على دعوته وتريح رأسها على صدره.

- لكن ما رأيك أنتِ في نظام الكُتَّاب عامة؟

ميسون في ملل:

- ماذا تقصد؟ هو نظام معمول به منذ قديم الأزل، فهل تفتق ذهنك إلى عيب فيه الآن دوناً عن الجميع؟

- لا شكَّ أنه نظام ناجح لكن ما أفكر فيه أوضاع غير المسلمين بالنسبة للتعليم في هذه المرحلة الدقيقة.

- ماذا تعني؟

- قد حصَّنا رسولنا الكريم على معاملة أهل الذمة مُعاملة حسنة.

- وهل في تعليم أولادنا القرآن ما يمس بذمتهم!

- الأمر ليس كذلك، الأمر كله في كلمتِك أولادنا وأولادهم... نحن وهم، ففي انفصال الأبناء عن بعضهم البعض في هذه المرحلة الحرجة تعميق للصدعِ وزيادة للفرقة.

- أرى أنك تُحَمِلُ الأمور أكثر مما تحتمل، فقد لبثنا معاً لقرون مُتتالية ولا فرقة بيننا وبينهم.

- الفُرقة واقعة، فهم فقط يخافون التعبير عن مَكنون أنفسهم تقية من السُلطان.

- كيف ذلك ومنهم كبار رجال الدولة، ويتم تعيينهم في أرفع المناصب.

- هو جانب إيجابي من بني عباس، لكن ذلك ليس كل ما في الأمر، فلا يزال الكثيرون منهم يشعرون بالتميز السلبي.

- لازلت أراك تبالغ، فأهل الذمة بخير ولهم من النصوص الدينية ما يكفُلُ حمايتهم ويؤمنهم من تغول السُلطان عليهم.

- حبيبتي... الفرق بين النصوص الدينية وتطبيقها هو الفارق بين السماء والأرض.

- دعنا من ذلك الآن، ألم تفتقد زوجتك؟

قالتها ميسون وهي تتمسح في صدر زوجها وتنظر في عينيه بثباتٍ ورغبة، بادل سالم زوجته نظرات الحب وابتسم واحتضنها بقوة وغابا معاً في قُبلة طويلة.

****

رفع شيخ الخلوة عصاه مرة أخرى ليهوي بها على قدمي بُرهان العارية بمُنتهى القوة لتزداد الأقدام المجلودة احمراراً وكأن الدماء سوف تتفجر منها، وبينما يجلدُ الشيخ بُرهان المرة تلو المرة أخذ يوبخه بكلام لم يعي بُرهان منه شيئاً، فكان الشيخ يتهمه بالبلادةِ والغباء... وأن مَن يسمعه يسأل في الدرس عن تفصيلات فقهية يَظنُ أنه أحد الأئمة الأربعة، حين أن الحقيقة أنه بليد فاشل مُمتلئ قد انغلق عقله من كثرة ما يتناوله من طعام.

والحقيقة أن الشيخ كان في نَفسَهُ مآرب أخرى دفعته للتحامل على بُرهان وانتهاز الفرصة لجلده أمام الأولاد، فطالما سأله هذا الفيل الصغير الكثير من الأسئلةِ التي لا يستطيع أن يهتدي لاجابتها سبيلاً فكان ذلك يجرحه ويُقلل من شأنه أمام تلاميذه، فاليوم هو يوم سعده فقد أخطأ بُرهان في تلاوة القرآن، ومع أن خطأه كان يسيراً فقد كان عقاب الشيخ كبيراً، فهي الفرصة التي طالما انتظرها الأستاذ لينتقم من تحذلق تلميذه.

كان الصمت يخيم على جميع من في الكُتّاب فكان هسيس عصا الشيخ في الهواء يكاد يصمُ الآذان وكان صوت اصطدام العصا بقدمي بُرهان يحدث رجة في أغلب الجلوس حتى الشامت منهم كان لا يستطيع منع نفسه من الانتفاض إذ التقت العصا بالقدمين المتورمتين.

أما بُرهان نفسه فكانت عيناهُ لا تُبصر إلا السماء وما تحمله من مُزن[3]، وكانت هناك غصة عظيمة في حلقهِ من فرطِ شعوره بالإهانة وهو يُضرَب بهذا

الشكل أمام أخيه الصغير وزملائه، وكان يغالب نفسه ألا يبكي حتى لا يسخر منه زملائه وحتى يحافظ على ما بقي له من كرامة أهدر جُلها على يد شيخه، كان بُرهان يشعر بنبضٍ قوي مُستمر في قدميه وكأن قلبه انتقل إليهما ليضخ الدم خلالهما فقط... حتّى هيئ إليه أنه مع كل ضربة قادمة سوف يتشقق جلده الرقيق وسينفجر الدم منهما ليندفع ملوثاً ملابس الشيخ ووجهه، ومع ذلك لم يكن يشعر بألم في قدميه وكأن عليهما خدرٍ يمنع الألم، وكان الشيخ يزيد من عزمه مع كل ضربة جديدة حتى تنفلت آهة ألم من فم بُرهان يُرضي بها كبريائه، وكان تماسك بُرهان يزيد الشيخ شراسة ويستفز غضبته، فقد أراد الشيخ إهدار كرامة تلميذه حتى لا يعاود أسئلته المُحرجة، وما كان لبُرهان أن يبكي ألماً حتى وإن علم أن بكاءه سوف ينجيه من براثن شيخه، لكن من الممكن أن يبكي حُزناً على كرامتهِ المهدرة بغير ذنب حقيقي جناه فيما بعد.

بعد فترة قام التلاميذ الذين يقيدون وثاق بُرهان بتحريره من بعد ما يأس الشيخ أن يحرر صيحة واحدة من حلق ضحيته، فبات الشيخ يلهث وقد تقرحت يداه من فرط احتكاك العصا بها وظهرت حبات العرق على جبينه وقد بللت الأطراف الأولى من عمامته، وظهرت بقعتان مبللتان من تحت إبطه، فما استطاع غير أن يَسُبَ بُرهان وينال منه ويُسفه من أمره أمام زملائه ويتهمه بالبدانة والغباء والحذلقة مع قلة العلم.

أستند بُرهان بيديه على الأرض ووقف على قدميه، وكانت الرمال من تحته ساخنة فازداد النبض في قدمه تسارعاً بملامسته إياها، جلس المسكين في مكانه وقد أحاطته نظرات الشفقة والتعاطف من زملائه، وشرع الشيخ يُكملُ تسميع القرآن لتلاميذه وأخذ يشرح بلاغة بعض الآيات فلم يعي بُرهان مما قيل شيئاً، أما فوّاز فكان ينظر إلى أخيه في بؤس وقد خاف من الشيخ وطالته مهانة ما حدث ... وتطير[4] من وجوده في هذا المكان برمته.

بعد انتهاء الدرس قام بُرهان وقد انتعل بصعوبة من فرط الألم الذي يشعر به وقد تورمت قدماه بعد ما مر وقت على الفاجعة، تحامل بُرهان على أخيه فوّاز وحاول المشي على قدميه بشكلٍ طبيعي أمام زملائه حتى جاوز الكُتَّاب هو وأخاه، وعندما تأكد أنهما وحدهما ... بدأت الدموع تنساب من عينيه في صمت، فنظر إليه فوّاز قائلاً:

- أكان الضرب مؤلماً لهذا الحد؟.

لم يرّد بُرهان على أخيه الصغير لهنيهة ثم مسح الدموع من فوق خده، فنظر إليه فوّاز من أسفل بإشفاق وأمسك يده بقوة فشعر بُرهان بحنو أخيه عليه فامتلأت مقلتاه بالدموع مرة أخرى وفاضت واستبد به الحزن.

- أنا لا أريد أن أذهب إلى الكُتَّاب مرة أخرى.

غالب بُرهان حزنه وطفقَ يجيب أخيه...

- وهل سيسمح لنا أبونا أن نتغيب عن الكُتَّاب؟

- وهل يرضى لنا أبونا أن نضرب ونُهان وهو الذي لا يطيق أي مكروه يقع علينا!

- الأمر مُختلف يا فوّاز، فأبونا يهتم بالكُتَّاب ويراه هاماً بالنسبة لنا، ولسوف يتقبل أن أضرب في سبيل العلم بل ولسوف يلومني أني قد فعلت ما يستوجب الضرب.

استمر الأخوان في السير وفي مشية بُرهان عرجة لا تخطأها العين وقد أخذ يتحامل على أخاه حتى وصلا إلى منزلهما، والتقا بأمهما التي فجعت من عرجة بُرهان وسألت متلهفة عن السبب في ذلك ...فسكت ابنها الأكبر وقد تحشرج صوته، وفي الحين أجاب فوّاز بحماس يشوبه شئ من الحزن...

- قد ضربَ الشيخ بُرهان، مدَّ الشيخ بُرهان على قدميه أمام جميع من في الكُتَّاب.

اتسعت عينا الأم ذهولاً مما تسمع، فهي المرة الأولى التي تعلم فيها بُرهان كسولاً في دراسته، فلم يُعاقب بُرهان البتة طوال مدة دراسته في الكُتَّاب، فهرعت ميسون إلى ابنها تضمهُ إليها قائلة...

اخبرني ما حدث يا بُرهان، لماذا قام الشيخ بمدَّك. أحجم بُرهان عن الإجابة وقد دفن وجهه في جلباب أمه يستنشق عبير الأمان منها...

- قد تلجلجت وأنا اقرأ سورة الأنعام فقرر الشيخ مُعاقبتي... (سكت بُرهان هنيهة وأكمل) وذلك مع أنه كان من بين زملائي من هو أسوأ، فتركهم الشيخ وقرر مُعاقبتي أنا.

نظرت ميسون إلى ابنها في لومٍ:

- ولمَّ يتحامل عليك الشيخ يا بُرهان؟،لابد وأنك فعلت ما يسيئهُ.

- أنا لا أكذب عليك يا أمي هناك من كان أسوأ مني لكن الشيخ كان مُستفزاً أني اسأله في الدرس كثيراً، وقد اتهمني بذلك أثناء ما كان يمدني على قدمي.

سكتت ميسون وهي تحتضن ابنها وتغرس رأسه في بطنها وتربط عليه وتصفف شعره بأصابعها حتى هدأ تماماً وتركتهم يدخلون غرفتهم من بعدما تناولا طعام الغذاء، واخذت تنتظر سالم بنفاذ صبر، فقد هالها ما حدث لابنهما خاصة وأنه ظل يَعرجُ داخل المنزل وهو يتنقل بين ارجائه مما دلها على قسوة العقاب.

نظرت ميسون إلى زوجها وهو يتناول طعامه من الصحفة الموضوعة أمامه:

- قد ضرب الشيخ بُرهان اليوم وقام بمدَّه على قدمه أمام جميع زملائه.

توقف سالم عن الأكل للحظة، ثُمَّ أكمل طعامه ناظراً في صحفته:

- لابد أنه فعل ما يستوجب العقاب.

- يقول بُرهان أنه تلجلج بعض الشئ وهو يتلوا على الشيخ سورة الأنعام، وأنه كان من بين من يتلون من هم اسوأ منه بكثير وأن الشيخ مُتحامل عليه أنه كثير السؤال في الدرس.

شرد سالم لبرهة وأخذ يلوك الطعام ببطء متفكراً:

- الحق أن بُرهان كثير السؤال، طالما سأل ومازال، لكن لِما يرى الشيخ أن اسألته تستوجب العقاب؟

قالت ميسون مُدافعة عن ابنها...

- لابد أن الشيخ ملَّ السؤال، أو أن بُرهان يسأله اسألة لا يستطيع الاهتداء لإجابتها سبيلاً فقرَّرَ الانتقام منه.

- قد أقر ابنك أنه تلجلج في القرآن، وهو فِعْلٌ يستحق العقاب بذاته، فحتى لو كان الشيخ يُعاقبه على غيرِ ذلك من أمر فقد استحق ابنك العقاب أنه سمح له بأن ينال منه.

- لكنه أتلف الولد بضربه على قدميه بوحشية، حتى أنه لازال يعرجُ على قدمه حتى الآن.

لمَحَت ميسون نظرة عطف وشفقة في عين زوجها ما لبثت أن زالت تحت ستار من الحزم المُصطنع فأجاب:

- دعينا لا نتدخل في أمر الشيخ مع تلاميذه، فطالما ضُرِبنا لنصبح ما سرنا عليه.

أمسكت ميسون عن الكلام وأخذت تنظر إلى زوجها بلومٍ خفي وهو ينظر إلى طعامه مُتشاغلاً عن نظراتها حتى فرغ وخرج إلى جنته[5] لِيقرأ القليل قبل أن يحين ميعاد نومه.

فوّاز أمازلت مُتيقظاً؟ همهم فوّاز بصوتٍ غير مفهوم رداً على أخيه، فأكمل بُرهان:

- أريد أوصيك شيئاً... عندما تدرس القرآن... اهتم بفهم حدوده قبل حفظ حروفه.

ماذا تقصد؟ حاول بُرهان اختراق ظلام الغرفة وكأنه ينظر إلى أخيه:

- أقصد أن أهم من حفظ القرآن فهمه وتحليل ما به من آيات، ويَعقُب مرحلة الفهم مرحلة العمل بما فهمت، أما حفظ القرآن نفسه ... فيأتي في المرتبةِ الأخيرة.

أفاق فوّاز من غفوته واعتدل في فراشه وواجه أخاه بغير أن يراه:

- لهذا ضربك الشيخ اليوم يا بُرهان، فالجميع يُبَدوّن الحفظ على ماتقول، لهذا هم لا يُضرَبون وأنت تُضرَب.

- انه خطأي أن أحادث طفل مثلك، وهل تراني أضرب كل يوم أيها الساذج!

سكت بُرهان لبرهة ثم أكمل:

- قد يكون لك بعض الحق فيما تقول، فيُحتمل أني ضربت اليوم لأني أبَّدي الفهم على الحفظ، ومع ذلك أنا لا أُقَصِّرُ في حفظ آيات الله، لكن يبدو أن كثرة تساؤلاتي أثناء الدرس أثارت نقمة الشيخ علي.

- ولماذا لا تكن مثل الآخرين فلا تُضرب؟

- يا فوّاز الدين كله قائم على الفكر والتدبر، ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن إلا وحضَّ الله فيها عباده على التفكر في الكون والموجودات ... حتى يهتدي الناس إليه ويعبدونه عن يقين.

- ولماذا لا يفكر الآخرون مثلك؟ أيُعقل أن يكون ما تقوله هو الصواب ويجهله شيخنا وجميع من في الكتَّاب!

- تواطئ الناس على الخطأ لا يجعله صواباً، وإن أجمع الناس على باطل فليس معنى ذلك أن نكون معهم حتى لا نُتهم بالجهل والشذوذ.

- قد حيرتني يا أخي، لكني أعدك أن أحاول جاهداً فهم القرآن بغير التفريط في حفظه، حتى لا أقع ضحية لعصا شيخ الخلوة.

ضحك بُرهان لقول أخيه وقال:

- أفلح إن صدق.

غرق بُرهان في أفكاره الخاصة، وقرر التصالح مع نفسه بعدما بث ما بداخله إلى أخيه الصغير، وقرر أن يحاول التعامل مع أمر الدرس بشئ من

الذكاء فلا يسألُ شيخ الخلوة عن كل ما يعن له من فكر، ففي النهاية لن يقدم شيخ الخلوة له حلول مُقنعة حول المُعضلات التي تجول في ذهنه، لذا عليه إيجاد البديل، وليس ثمة بديل أفضل من قراءة كُتب الأولين، يتفحصها ويسألها فتجيبه عن ما بداخله من ظنون، ولله الحمد أن أباه من القراء النهمين، لعله يجد في مكتبته ما يسد ظمأه إلى المعرفة.

القلب يخفقُ أحياناً

بغداد 623هـ

كان مَشهدُ دفن الخليفة العباسي محمد الظاهر مَهيباً[6]، فقد كان الظاهر محبوباً من شعبه عادلاً يَرُدُ المظالم ويجزل العطايا ويَقومُ على شئون المُلك كأفضل ما يكون فحق على شعبه وكبار رجال دولته أن يبكوه.

كان من أوائل المصطفينَ أبو جعفر المُستنصر أكبر أبناء الظاهر، جواره أخوه الخفاجى، ينظرون إلى جسد أبيهم بإشفاق، أخذ يفكر الخفاجى في يد أبيه وكم كان يخالها كبيرة قوية وهي تربت على كتفه وهي تعبث بخصلات شعره، تذكر كيف كان أبوه يُدَثرِهُ الغطاء في المساء إن رآه نائما بعد جهد على أرض غرفته... ثم يقبله على وجنته، كان أبوه لا يعرف وقتها أنه قد أفاق وشعر بالحنو يغمره لكنه لا يظهر الفواق حتى يمتص عطف أبيه لآخر رمق، رباااه كيف كان أبونا رجلاً عظيماً فلم تستغرقه شئون الملك والحكم أن يقيم أواصر المحبة مع أبنائه.

لكن ما معنى كل تلك الذكريات الآن وقد مات الأب... مات الخليفة محمد الظاهر ليواري التُراب كفاه اللتان طالما حنوت عليه وعلى اخوته، كان الألم يعتصر قلب الخفاجى ففرت دمعة من عينية بعدما جاهد حبسها، وكأن هذه الدمعة الأولى قد حرضت غيرها على النزول والانهمار ففاضت أعين الخفاجى في صمت حتى تحررت جميع الدموع من مقلتيه.

عندئذٍ فكر الخفاجى أنه يجب أن يُشَرف موت أبيه، فيجب أن يرقوا ليكون على القدر الذي طالما انتظره منه، وفي تلك اللحظة وأثناء نزول جثمان محمد الظاهر أقسم ليكونن على مثل إرادة أبيه فيه.

أما المستنصر أبا جعفر فكان ينازعه شعوره بالأسى على والده... واحساسه بالمسئولية التي ألقيت على كاهله، فها هو يتوج الخليفة السادس والثلاثون من خلفاء بني العباس. واا ابتاه ... استبد الحزن بأبي جعفر وهو يرى جسد والده يوارى بالتراب فصمَّمَ هو الآخر ألا يخذل أباه فأقسم على أن يعمل على رفعة الدولة العباسية وأن يكون خادماً للمسلمين، وكأن هناك توارد للخواطر بينه وبين الخفاجى أخذ يُلملم من شتات حزنه وهو مصمم على مجاهدة نفسه ورجال حكمه حتى يبلغ المأمول، وما الضير والمصير إلى اللحد

دائماً، فها هو محمد الظاهر خليفة المسلمين يوارى في التراب ويسكن البوار من بعد ما سكن القصور وضاجع الجواري الحسان وهَصَرَ[7] الغصون النعام وتناول الطيب من الطعام، أإلى هنا المنتهى؟!! إذن فليحيها حياة قوية شريفة طيبة.

****

كان بُرهان مَشغول البال، يشعرُ بلوعة شديدة، لا يكاد يستطيع استجماع شتات أفكاره لاستذكار دروسه، بل وحتى الوقت الذي خصصه للقراءة الحرة والذي طالما داوم عليه طوال السنوات الثلاثة الماضية أصبح عبئاً، فلم يستطع استخلاص شئ مما يقرأ وكأن الحياة كلها فقدت معناها.

أين أنت يا كرمة قد أوحشتيني كثيراً، كيف طاب لك الابتعاد عني كل هذا الوقت. فوجئ بُرهان بلسانه يفضح أفكاره وكأنه يُحدِّثُ نفسه... وكأنه جُن.

تلفت بُرهان حوله عندما فطن لما نطق خوفاً أن يسمعه أحد، فلا أحد يعلم مكنون قلبه سوى أخاه فوّاز ... والذي كان يجدُ في محاكاته عنها سلوى شديدة ترطب من النيران المُستعرَّة في قلبه.

فكثير ما كان يحكي لبُرهان عن لقاءاته المُتكررة مع كرمة فيرويَّ له بالتفصيلِ عن كل شاردة وواردة في اللقاء عسى أن يطمئنهُ أنها تحبه تماماً كما يُحبها، وكان بُرهان يسمعُ منه باهتمام حقيقي ويحلل معه جميع تفاصيل اللقاء حتى يُطمئن أخاه عن حبيبته وحقيقة شعورها.

لكن أين كرمة الآن، فقد مر شهر كامل بغير أن تحضرَ صُحبة أبيها إلى منزل أبيه، وكان يتحرَّج أن يسأل أباه عنها وعن أبيها... استحياء منه أن يعرف السر المقدس الذي طالما جاهد اخفاءه في نفسه، لكن الشوق استبد به فصار لا يستطيع لكتمان لوعته سبيلاً، فطلب من أخيه أن يسأل أباه عن سر تغيب الشيخ فرج والد كرمة وقد كان...

- سالم... ترى أين الشيخ فرج وترى لمَّ امتنع عن القدوم لمنزلنا.

سمعت ميسون فوّاز وهو يُسائلُ أباه، وكانت في غرفة مجاورة ترتبها فقالت ضاحكة:

- تأدب يا فوّاز، فهل من غلامٍ مُتأدب يُنادي أباه باسمه مجرد من كل لقب!

لم يرد فوّاز ورد سالم نيابة عنه:

- دعيه يا ميسون فليس بالألقاب يتحقق الاحترام بين الأب وبنيه دعينا من المظاهر الفارغة، أعلم أن أبنائي يحبونني ويحترمونني فلا ضير من بعد

ذلك إن نادوني باسمي، فهذا يُشعرني أننا أصدقاء أكثر.

ميسون مُعترضة:

- لكنهم إن فعلوا ذلك أمام الناس ظنوا فيهم السوء ولم يعلموا ما بينكم من محبة واحترام.

قال سالم:

- دعك من هذا الآن، وأنت يا فوّاز عمَّا كنت تسأل، فقد شغلتنا أمك عن حديثنا.

سأل فوّاز ببساطة:

- كنت اسأل عن سبب تغيب الشيخ فرج وابنته عن مجلسنا؟.

- هو منشغل عنا الآن بعد موت الخليفة محمد الظاهر وتولي المُستنَصر باللهِ الخلافة.

- وما علاقة ذلك بذاك؟

- الشيخ فرج صديق شخصي لأحد المُقربين لدى الخفاجى شقيق المُستنصر وقد وعده أن يقوم بتعيينه في إحدى الوظائف الهامة مع الخليفة الجديد، ويبدو أن الشيخ فرج قد نال ما وعِّد وأصبح مشغولاً عنا الآن.

سكت فوّاز بعد إجابة أبيه الوافيه وجلس معه لبعض الوقت ثم توجه صوب غرفته ليخبر أخاه عن سبب تغيب كرمة...

فوّاز مازحاً:

- كم تدفع مُقابل ما لدي من معلومات؟.

بُرهان بنفاذ صبر:

- لا تكن سخفياً، أفصح ... ما الأمر؟

- هو أبوها قد وعده صديق للخفاجى بمنصب رفيع في بلاط الخليفة الجديد والشيخ فرج يَجِدُ ليحصل على ما وعِّدَ ... يحاول التهيأ له، بل ويقول أبوك أنه يبدو من الأمر أنه قد نال ما تمنى.

- ولماذا يوافقُ الشيخُ فرج أن يعمل في بلاط الخلفاء وهو على علمٍ بفساد طبائعهم وظلمهم للعباد!

- قد يخلفُ العابدِ الفاسدِ والعكس... ثم إن الخليفة محمد الظاهر رحمه الله قد أبلى بلاءاً حسناً على عكس ما توقعه الناس منه بسبب فساد والده، فأغلب الظن أن المُستنصر سوف يُحسِن سياسة البلاد، ثم إنك أعلم مني بذلك يا بُرهان لكنك ناقم على الأمر كله كون ذلك قد منعك من رؤية كرمة.

سَكت بُرهان وقد شعر بلوعة لم يستطع إخفاءها فسأل أخاه:

- لكن يا فوّاز ألا ترى أن كرمة لا تعبأ لأمري، فهي إن أرادت أن توجه أباها أن يأتينا لنراها لفعلت، يبدو أنها لا تحبني كما أوهمتني أنت في السابق.

- سُبحان الله، فأنت على ما عهدته منك من رجاحة العقل تعجز عن تقييم موقف بسيط كهذا!ا، كيف السبيل إلى ذلك وهي طفلة صغيرة؟، كيف لها أن توجِّه أباها على انشغاله هذه الأيام بأن يترك أمر وظيفته الجديدة ويأتي بها هنا حتى تراك.

بُرهان بأملٍ حقيقي:

- أتظنها مغلوبة على أمرها؟

- بالطبع.

بُرهان وقد عاوده الشك:

- أم تراك تحاول طمأنتي.

- وما يعود عليَّ من جراء ذلك!! طالما عهدتني صادقاً معك فيما أبثه إليك من رأي.

- أدعوا الله أن تكون الأمور على ما تقوله أنت.

- هي كذلك بإذن الله تعالى، وعلَّ الشيخ فرج وكرمة يظهرون مرة أخرى بعدما تستقر الأمور للخليفة الجديد.

تنهد بُرهان وأعطى ظهره لشقيقه وشرَعَ في تناول كتاب ليقرأه من مكتبته الصغيرة وهو بادي التوتر مُنفعل النفس، تأمل فوّاز أخاه وهو يحاولُ أن يقرأ وقد احمر وجهه من شدة الإنفعال والتفكير فأيقن أن أخاه لن يستطيع كبح جماح نفسه وهو يُفكرُ في كرمة، وأن أمر غيابها سيظل يطاردُ نفسه حتى وإن تشاغل عنه بقراءه آلاف الكتب.

انصرف فوّاز بدوره عن بُرهان وهو لا يعلم لمواساته سبيلاً، فقرر الترويح عن نفسه لبعض الوقت فذهب للخارج كما هي العادة لمُلاقاة صديقه مالك على قارعة الطريق، ليُشاركه الحديث واللعب والمبارزة كما هي عادتهما مع

بقية شباب الحي، وكان فوّاز يقترب من الموطن الذي يتقابل فيه مع مالك فوجده جالساً في انتظاره غافلاً عنه، فلما اقترب فوّاز تبسَّم لهُ مالك وهبَّ واقفاً ليحييه.

- أرَفَضَ بُرهان أن يأتي معك اليوم أيضاً؟

- أنت تعلم بُرهان... يُفضلُ القراءة عن أي شئ في الدنيا، لا عليك منه... هيا بنا لنلقى الرفاق.

سارا الصديقان جنباً إلى جنب وقد هدأت الرمال من تحت أقدامهما ومالت الشمس إلى الغروب فصفا الجو وحلا الحديث...

- ما أشد اختلافكما أنت وبُرهان!

- لا أتفق معك، فأنا أحب أخي واتأثر بآرائه.

- لم أقل أنك تكرهه، جل ما أقول أنكما جد مختلفان.

بدت على فوّاز إمارات التفكير وقال:

- هو أشبه بأبي يحب القراءة... عميق الفكر... مختلف عمن حوله في آراءه.

- من الجائز أن تكون القراءة هي التي ساهمت في تكوينه على هذا النحو.

- بالتأكيد الأمر كذلك، ولكني أصبى منه، ويُحتملُ أن أكون مثله عندما أشبَّ إلى عمره.

مالك ضاحكاً:

- هو لا يكبرك بسنوات كثيرة، هما سنتان فقط يا فوّاز، لكن من الواضح إنك تجله وتتمنى أن تصبح مثله، لكن لا يبدو الأمر كذلك.

فوّاز بلومٍ:

- ماذا تعني؟

- ما أريد قوله أن بُرهان عندما كان في مثل سنك كان يحب القراءة... ويعكف على الدرس ويفكر بعمق في جميع ما حوله، ويحاول تحليل الآيات القرآنية والاتجاهات الفقهية تحليلاً عميقاً، وأنت تميل أكثر إلى الحركة والانطلاق.

فوّاز وقد بدت علامات الاقتناع في قسمات وجهه:

- هو كذلك أنا لا أطيق الجلوس على كتاب لفترة طويلة من الزمن، أحب الحركة والمغامرة، فطبيعتي أكثر إلى الفارس عنها إلى العالم القارئ.

مالك بخبثٍ:

- ولا ضير في ذلك يا صديقي، بل وشخصيتك هي الأكثر جاذبية للفتيات.

- سوف تجن في يوم من الأيام بسبب ميلك إلى الفتيات وولعك بهن، فأنت تحاول دائماً جذب أنظارهن.

- أنا لا أفعل ما يغضب الله تعالى، فقط أحب أن ألمح نظرات الإعجاب في أعينهن... فنظرات الإعجاب تُلاقي هوى في نفسي.

- وما يدريك أن استجداء تلك النظرات لا يؤثِمك!

- وهل استراقك النظرات واستجدائك للكلمات من سلمى لا يؤثمك؟

- هو حب عفيف، فلم أفكر فيها يوماً على نحو يُغضب الله، ولم نفعل أنا ولا هي ما يستوجب الخزي أو الإثم.

- هون عليك يا صديقي، فلم أقصد مضايقتك، فقط أجاذبك أطراف الحديث، بالمناسبة كيف حالها الآن... وهل رأيتها بعد يوم الأثنين الماضي؟

- نعم قد رأيتها البارحة في السوق، لكن لم استطع مبادلتها كلمة واحدة، فقط اكتفيت بالتحرك والاستدارة حولها حتى تراني لعلي أظفر منها بابتسامة.

مالك ضاحكاً:

- وهل حصلت على ما تريد؟

- لم تشأ البارحة أن تضحك أو حتى تنظر حيالي، فقد كانت صُحبة والدتها وأظنها كانت تخاف أن تلمح أمها أي إشارة تفضح ما في قلبها.

- وما في قلبها! لا أريدك أن توهم نفسك يا فوّاز أنها تحبك، فهي لم تقل ذلك قط.

- يا لك من شخص سوداوي مُحبط، ليس كل ما يقال يصدر عن لسان المرء، ففي بعض الأحوال تكون العيون أبلغ رسول عمَّا تكنّه القلوب، لو رأيت كيف تنظر لي في السوق عندما تراني أحوم حولها لتيقنت من حبها لي.

- أشهد أنها مُعجبة بك، وأنك تلفت نظرها، لكن هل يحق لنا أن نتمادى بالأمر ونقول أنها تحبك.

- لو كان لي مثل حظ بُرهان وكان أهل سلمى أصدقاء لأهلي، لربما تحدثت إليها كما يتحدث بُرهان إلى كرمة، لكن شاء القدر أن تتعاظم لوعتي وأن أحب من لا استطيع تبادل كلمة واحدة معها.

استمر الصديقان في الحديث حتى وصلا إلى أصدقائهما وبدأ الجميع في اللعب والمبارزة، ليتلهى فوّاز عن لوعته وعن حبه لسلمى، لكنه في الحقيقة لم يسلاها قط، وكانت طوال الوقت في وجدانه، وكان يشعر أن جميع ما يفعله وجميع ما يُحرزه من تقدم على أقرانه في اللعب... هو نجاح مُهدى إليها يقدمه عن طيب خاطر على مذبحها، وكان فوّاز يفكر أن الله ربما خلق النساء لاستجلاء أفضل ما في الرجال ولتحفيزهم أن يركبوا الصعاب ويحققوا البطولات والانجازات.

****

توجه فوّاز تلقاء منزله من بعد ما أنهى اللهو والمران مع أصدقائه، كان مُتحمساً بشدة وأراد الاغتسال من أثر المجهود الشاق الذي بذله باقصى قدر من السرعة عسى أن يقف في السوق قبل ميعاد مرور سلمى فيظفر منها بنظرة تكشف عمَّا يجول بداخلها جهته، ومع أنه كان يعلم أن ميعاد مرورها لن يكون قبل مُضي ساعتين كما يحفظ عن ظهر قلب... فقد آثر السلامة وأحب أن يكون في مكمنه في السوق قبل الميعاد بوقتٍ كاف، حتى لا يحدث ما لا يُحمد عقباه فتمر سلمى مبكراً فيندم حين لا ينفع الندم.

نشَّفَ فوّاز عن نفسه قطرات الماء المنحدرة فوق عضلات جسده القوي في سرعة، وذهب إلى غرفته لتيخير أفضل الثياب، حتى لا تقع عينا حبيبته عليه إلا وهو في أحسن حال، ولم ينسَ أن يتطيب قبل أن يغادر المنزل، رَمَقَت ميسون ابنها عن كثبٍ وهو يتناولُ قطعة من فطيرة موضوعة فوق المائدة ويلتهمها في سرعة فقالت:

- إلى أين العَزم يا فوّاز؟

أجابها في سرعة بغير أن ينظر إليها...

- ذاهب للقاء بعض الأصدقاء "قالها باصوات متقطعة من أثر ما يلوك في فمه"

قالت ميسون مُتخابثة:

- منذ متى تتطيب بعطر أبيك وأنت ذاهب لمُلاقاة رفاقك.

- أمي... دعك مني الآن فأنا على عجلة من أمري وهم في انتظاري.

تنهدت ميسون ضاحكة وهي ترى ابنها يختفي عن ناظريها وكانت على يقين أن في الأمر أنثى تشغل بال ولدها، لكنها ابداً لم تخف عليه أن يقع في المحظور ويرتكب ما يُغضب الله، هي فقط تريد أن تعرف من هواها قلب ابنها وأن تطمأن لأصلها ولطباعها عسى أن تخطبها لهُ في القريب العاجل.

أما فوّاز فقد مرقَ إلى السوق يتعجل في خطاه حتى وصل إلى موضعه المبارك الذي يستطيع منه رؤية سلمى وهي تمر صحبة والدتها على الحوانيت التي اعتادت الشراء منها، أما سلمى فقد اعتادت النظر إلى هذا المكان الذي يتربص فيه فوّاز دائماً... فتبش لرؤياه، ولحسن حظ فوّاز صدق حدسه وجاءت سلمى اليوم مُبكرة عن ميعادها المعتاد، فشعر بقلبه يخفق بقوة لمرآها، أما هي فقد نظرت إليه نظرة عابرة ثم حولت ناظريها عنه بغير أن تفلت بسمتها المعتادة من شفتيها، وخيل لفوّاز أن سلمى اليوم أكثر حزماً من أي مرة مضَّتْ، ولاحظ كذا أن حبيبته لم تأت صحبة أمها لكن كان صحبتها اليوم فتاة تُناهزها في العمر، فتعجب من حال صاحبته ومن غياب أمها وهي التي لم تتركها قط وحدها في السوق.

فكر فوّاز ملياً في حال سلمى وفكر أن يذهب ليحادثها ففرصته اليوم لن تعوَّض في ظل غياب والدتها عنها، لكنه كان يشعر بالخوف الشديد من الإقدام على هذه الخطوة، وكان التردد يعتريه فيتنقل قراره داخل عقله من النقيض إلى النقيض، لكنهُ حَسَمَ أمره وقرر أن يتبعها وصاحبتها في السوق عسى أن يحاول التحدث معها.

- عُذراً ما قصدت مضايقتك...

قالها فوّاز مُتردداً فخرجت كلماته مُتلعثمة وغير مفهومة فنظرت إليه سلمى متعجبة لا تفهم ما يقول لكنها ضحكت فتشجع فوّاز لإعادة جملته على مسامعها علَّ ذلك اليوم يكون يوم سعده، فتنحنح عسى أن يفيق من سحرها وقال:

كنت أقول... ما قصدت إزعاجك، ولكني طالما أردت مُحادثتك والتعرف عليك. ردت عليه سلمى باسمة وهي لاتزال تسير بغير أن تقف لتتحدث إليه...

- وهل وجدت الفرصة سانحة اليوم بغيابِ أمي عن السوق.

فوجئ فوّاز بصراحة سلمى في الحوار وجرئتها، فزاد تلعثمه واضطرابه وشعر وكأنه طفل صغير ينظر إلى امرأة ملائكية تعرف عن الحياة كل شئ، لكنه استجمع شجاعته وقال:

- صدقيني لا أقصد مضايقتك لكنك تعلمين كم وددت لو تحدثت إليك منذ أمدٍ بعيد، حتى أني لا أكاد أصدق أن تلك الأنغام الساحرة تتساقط من

فمك على مسامعي، واعلمي أني طالما انتظرت هذا اليوم فلا تخذليني فأقع في ضيقٍ عظيم.

كانت سلمى تعلم أنه صادق في كل كلمة يقولها فالصدق بادٍ في صوته، يدعمه ما كان منه في السابق من انتظار لها في السوق بغير أن يتخلف في مرة من المراتِ عن ميعادهما الغير مُتفق عليه، بشَّت لهُ ووقفت ونظرت إلى عينيهِ مباشرة وقالت بجدية:

- أُصَدقُك.

أخذ فوّاز يحملق في عيني حبيبته غير مُصدق لا يستطيع التفوه بكلمة أخرى وكأنه يعلم أنها ستعرف كل ما كنَّ في نفسه عندما تنظر إليه وتعاين حاله.

أما صديقة سلمى فكانت واقفة في حالة توتر شديد، قلقة أن يَلحظُ أي من المارين بالسوق وقفتهما المريبة مع هذا الشاب الغريب، فكانت هي مُنشغلة عما يَقولهُ الحبيبان ناظرة ذات اليمين وذات الشمال تحاول رصد الحركة في السوق وإن كان أي شخص قد نبه لما تفعل صديقتها... ولحسن الحظ لم يفطن إليهم أحد في السوق فقد كان الجميع في حالة انشغال بالتسوّق، لكن صديقة سلمى لم تستطع تحمل المزيد من المخاطرة فشرعَت تشد صديقتها من كمها وهي لازالت تتلفت في جميع الاتجاهات قائلة:

- هيا يا سلمى، فهذا لا يليق، وإن لمحنا أحدهم وأخبر أباك فسوف يَحدثُ ما لا تُحمَد عُقباه.

كانت سلمى هي الأخرى منشغلة عن جميع ما حولها تنظر في عين هذا المهووس بها، لا تصدق أن هناك من يحبها بهذا القدر، وأخذ جسد سلمى يتحرك من أثر جذب صاحبتها لها، فآثرت السلامة وتحركت معها، لكنها نزعت وشاحها عنها لتعطيه لفوّاز الذي وقف مبهوتاً يرقبُ ما يحدث وكأنه غريب عنه... لا يكاد يصدق، لكنه قبض على الوشاح بلهفة وودعها بعينيه كما ودعته بغير أن يتبادلا كلمة أخرى.

أفاق فوّاز من سحر سلمى عندما ولته ظهرها وابتعدت فنظر إلى ما بقى منها بين يديه... فقبض على الوشاح بشدة، لكنه تراجع وخفف من قبضته عليه لئلا يزول ريحها منه، وأحس بوحشة شديدة ورغبة جامحة بأن يشتم الوشاح المقدس، وبالفعل رفع كفيه اللتين تحملان الوشاح إلى انفه وأخذ شهيق عميق إنساب وتغلغل داخل أوصاله، حتى أنه أحس بروح سلمى تسري في دمه وتتدفق في عروقه، فقد كانت رائحتها دافئة طازجة في الوشاح فحمله بحرص ولم يدسه في جيبه حتى لا يمحوا عبيرها منه، ونظر حوله ليرى إن كان أحد المارة في اِلسوقِ يتابع اِما يفعله، لكنه اطمأن أن كل حيِ مُنشغل بحاله

فانصرف سعيداً هائماً راضياً عن الحياة والموجودات شاعراً أنه نال كل ما تمنى عندما قبض على وشاح حبيبته، شرع فوّاز يمشي جهة بيته وهو يشعر أنه يطير ولا يمشي على الأرض.

****

جنكيز خان

الصين 624هـ

ارتصَّت الخيامُ التتارية بجانب بعضها البعض بانتظامٍ مُتقن كأنهن جبال راسخات، كانت الخيام مُصنَّعة من دوائر متشابكة من العُصي الآخذة في الارتفاع حتى تضيق إلى حد التلامُس في قمتها، وقد تمَّ كساء تلك العُصي باللباد، وكان اللباد مكسواً بالطمي الأبيض أو مسحوق العظام فبدت الخيام أكثر بياضاً، وكانت أبواب الخيام دوماً جهة الجنوب.

بجانب كل خيمة كان يوجد خزانة للاحتفاظ بالمُتعلقات الخاصة بصاحبها، أما في الجانب المقابل للخزانة كانت عربات النقل قابعة... استعداداً لتحميل الخيمة وخزانة المتعلقات في حالة التحرك من مكان لآخر، وكانت خزانة الملابس والعربات تعمل بمثابة الحوائط فتصد الرياح عن الخيام.

داخل إحدى تلك الخيام، أخذ هولاكو يتقلبُ في فراشهِ وقد جافاه النوم وهو يفكر في قولان أصغر زوجات جده جنكيز خان، فقد كان يحبها من شغاف قلبه ويشعر في حضرتها بالسكينة وانعدام الحيلة وكأنه انتقل إلى عالم آخر لا مكان فيه إلا لهما، وفي هذا العالم الفردوسي الرائع كان لا يشعر بشئ إلا بكيانهما... ولاتحده فيه إلا رغبة واحدة... وهي أن يضم قولان بين ذراعية وأن يستكين على نهديها الحنونين.

وقد كانت قولان أيضاً تحب هولاكو وتؤثره على غيره من أحفاد جنكيز خان خاصة من بعد ما لمسته من إنشغال أمه عنه واهتمامها بعلاقاتها الاجتماعية، ولم تكن أم هولاكو مُنشغلة عنه وحده... بل كانت منشغلة عن أبيه تولوي قائد جيوش التتار، فقد كانت سرقوقتاني بيكي من عائلة مرموقة ذات مَنعة ورغم أن زوجها هو تولوي قائد جيوش التتار وابن جنكيز خان قاهرِ الأرض... فقد كانت لا توليه الاهتمام الكافي وتنشغل عنه وعن أولادها دائماً، ولعل ذلك كان من الأسباب التي جعلت قولان تهتم لأمر هولاكو وتوليه الكثير من العناية والعطف، وقد كان هولاكو يصغرها بعدة سنوات فاعتبرتهُ قولان بمثابة الأخ الأصغر لها بل واعتبرته ابنها الذي لم تلده، خاصة وأنها لم يكن لها ذرية من جنكيز خان.

لكن هولاكو ربما أساء فهم الأمر، فأحب قولان كامرأة وظل حبها يتمكن من نفسه حتى أسرها تماماً، وأصبح لا يملك لصده حيلة حتى وجد نفسه غير

ذات مرة يعبث في ملابسها، بل وكان يختبئ لها في أماكن مُختلفة ليرى منها ما يراه الأزواج من بعضهم البعض.

ظلت عينا هولاكو مفتوحتان وهو نائم على ظهره في فراشه يفكر في جده، فرغم الحب والاحترام والإعجاب الذي يكنهُ له فهو يفكر في زوجته الشابه ويشتهيها لنفسه. كم يتمنى الآن أن تغمض عينيه ليحلم بحبيبته إحدى تلك الأحلام البطولية الجميلة والتي حلم مثلها من قبل مرات معدودة، فقد رأى ذات مرة في أحلامهِ قولان صُحبة عصابة من النساء العجائز الشريرات اللاتي يحاولن إيذائها لا لشئ إلا لحقدهن على جمالها ورقتها وحكمتها. فينتصر لها ويخرجها من بين براثنهُن. وفي مرات أخرى نادرة حقاً يحلم هولاكو بقولان أحلام منحرفة مصدرها ما رآته عيناه من مفاتنها بالصدفة أو بطرقٍ ملتوية.

وبينما تتلاعب هذه الأفكار بوجدان ومشاعر هولاكو ينتزعه منها شعور آخر مُختلف، فتسيطر عليه رغبة جامحة في النجاح وأن يكون نسخة من جده جنكيز خان قاهر العالم موحد قبائل المغول والتتار، فأمه وحبيبته قولان جديره بأن ترى بأسه بين الرجال ونجاحاته المُبهرة في الحياة، وغداً يوم هام يبلغ فيه أخواه قبلاي ومنكو العاشرة، وسوف يخضعان للتحدي الذي ينتقلان بموجبه من خانة الأطفال إلى خانة الجند العظام، وهو متحمس لما سيقوم به أخويه، فعن قليل سوف يخضع لذات التحدي ويثبت هو الآخر رجولته لقولان.

في صباح اليوم التالي قام الشابان منكو وقوبلاي ليستعدا للمراسم التي فرضتها شريعة الياسا[8] على كل من يريد الانضمام إلى مقاتلي التتار، ورغم كونهما حفيدا جنكيز خان... فلم يكن ذلك ليمثل استثناء بالنسبة لهما في مواجهة شريعة الياسا والأعراف المُقدسة.

كانت الياسا تفرض على الشاب الذي يريدُ أن يُصبح مُقاتلا أن يختار سلاحه في الصباح لينطلق عندما تغرب الشمس وراء صيد ما، ويجب في النهاية أن يصطاد صيداً يأكل جزء من قلبه في المساء ويمسح وجهه بقلب ما تم اقتناصه.

بالفعل نجح الشابان... فاستطاع قبلاي اصطياد أرنب بري، أما منكو فاصطاد غزال كبير، وأتى كلا الحفيدين بصيدهما أمام الجد ليُتمما مراسم انضمامهما لجند التتار، فلم يبقى لهما إلا أن يخلع كلاً منهُما قلب صيده ويأكل جزءاً منه ويمسح به وجهه.

وقفت قولان وسرقوقتاني وهولاكو وغيرهم ينظرون إلى الفتية في انتظار أن يتمما المرحلة الأخيرة من الاختبار، وساد الصمت على جميع الحضور وكان هولاكو بادي الحماسه وهو ينظر إلى أخويه وهم يؤدون الطقس المقدس، لكن فجأة جبن الفتى قبلاي عن إتمام مراسمه فجرى خائفاً إلى

خيمته، فنظر له الجميع باستهزاء وضحكوا، أما هولاكو فقد تجهم وجهه من أثر إحجام أخيه، لكنه عاد وضحك مرة أخرى عندما ساد الجميع الصخب احتفالاً بمنكو الذي نزع قلب فريسته وأخذ يمضغه على مهل وهو يمسح به وجهه كحيوان ضاري.

لم تمر أشهر على هولاكو حتى خاض هو الآخر ذات الاختبار وقد نجح بجدارة، وبغير أن يتردد لحظة!.

****

كانت قولان في هذا اليوم حزينة وتبدو منهزمة، فقد كانت تحب هولاكو وتخاف أن يمسَّه أذى، وقد جاء اليوم الذي بلغَ فيه هولاكو مبلغ الرجال... وقد أدى المراسم التي أهلته ليكون واحد من جند التتار، وهذا بالطبع سيجعله عُرضة للمزيد من الأخطار التي تُهدد حياته، فقد كان هولاكو بمثابة ابن لها وكان يُسليها عن انشغال زوجها عنها، ورغم انشغال جنكيز خان عنها بشئون الملك وفتوحاته المستمرة فقد كانت تحبه بصدق... كانت تحبه ذاك الحب الهادئ، وكان يرضيها منه مَعسول الكلام الذي يغدقه عليها كلما كانا في خلوة مع بعضهما البعض، فقد كان جنكيز خان يؤكد لها دوماً أنها زوجته المفضلة وأن همه الدائم هو إسعادها وأنهُ لا يطيق فراقها أو الابتعاد عنها لذا فهي دائماً معه وجواره في أي حرب خاض.

كان في قلب قولان حُبَّان... حُبها لجنكيز خان كرجلٍ وحبها لهولاكو كأبن أو أخ أصغر. لذلك أرجفت عندما عرفت أن الآوان قد آن لينضم هولاكو إلى صفوف مُقاتلي التتار... مُشفِقة عليه من قسوةِ التدريبات وشظف العيش الذي يتعرض لهُ الجنود، وكانت تُقلقها فكرة أن يمسه أحدهم بسوء في حربٍ من الحروبِ أو مَوقعة من المواقع، فقد كانت تعلم أن زوجها لن يسمح بتمييز أحفاده عن بقية مُقاتليه وأنه سوف يدفعُ بهم إلى الصفوف الأمامية للقتال متى أظهروا القدرة على ذلك، وأبناؤه خير دليل على ما تعتقد، فلم يضن[9] تيموجين بهم لإذكاء روح الحماسة في جنوده ليكونوا قدوة لهم.

كانت قولان فتاة مسيحية مُخلصة، تحصَّل عليها تيموجين كمحظية له بعد إحدى معاركه التي انتصر فيها على إحدى القبائل، فقد اعتاد تيموجين أن يتخذُ زوجة جديدة بعد كل معركة ينتصر فيها على قوم ما، وكان من ضمن أهدافه المُعلنة من تلك الزيجات تدعيم أواصر الصلة بين شعب المغول والتتار... والشعوب التي تمَّ غزوها، ومع ذلك فقد كان تيموجين يحب النساء ويُقدر جمالهن ويعتبرهن من مُتع الحياة القليلة التي يستمتع بها، وقد كانت شخصيته طاغية على نسائه فلا يخضع لهن ولا يتأثر برغباتهن، لذلك كانت تجد زوجاته

صعوبة شديدة في توجيهه إلى غير ما يريد، وحتى بورتي زوجته الأولى وأم أولاده كانت لا تملك أي سيطرة عليه ولم تستطع أن تمنعه أن يتزوج من غيرها مع أنها كانت شديدة الغيرة عليه مُخلصة في حبها.

والحق أن جنكيز خان كان جديراً بحبِ زوجاته، فقد كان حنوناً عليهن يُسمعهُن جميعاً من طيب الكلام ما يثلج صدورهن، وكانت قسوته معهن في بعض الأحيان لا تستنفذ من رصيده لديهن، فعادة ما تحبُ النساء الرجال ذوي البأس ممن يقسون في مواطن الشدة، فيجلّن بذلك أزواجهن ويَشْعُرَن أنهم مثل أبائهن ويتيقن أنهُن في مأمن معهم وأنهم حائط صد حقيقي في مواجهة نوائب الزمن.

كانت قولان تجد صعوبة شديدة في إملاء أفكارها على زوجها، فلم تستطع إبعاد رحى الحرب عن قومها، فكانت لا تملك تحريك إرادته قيد أنملة فيما تعلق بتوجهاته السياسية وفتوحاته العسكرية، ومع ذلك فقد لاحظت أنه كان يُفضَلُ الابتعاد عن قومها بقدرٍ... كونه قد صار بينه وبينهم نسباً وصهراً عندما اتخذها زوجة.

بينما كانت قولان غارقة في خواطرها دخلت بورتي الزوجة الأولى لتيموجين عليها فوجدتها على حالها من الحزن والتأمل فقالت لها باستهزاء ظاهر:

- مالي أراك منشغلة البال على هولاكو هكذا، أتراك تحاولين اثبات أن حبك له أقوى من حب أمه، لقد كبر الفتى وآن له أن ينضم إلى صفوف أسلافه العظام، أم تراك تريدين أن تخيبي فيه رجاءنا ليكون مثل رجال قومك من الضعفاء رهاف الحس المُتنمقين.

- لا أريد أن أثبت شئ، فقط اتركيني، مالي كلما خلوت إلى نفسي نازعتيني أفكاري، أكثير علي أن أنفرد بنفسي لقليل من الوقت.

- آه منك ومن أفكارك التي أنت فيها غارقة، وليتك تحتفظين بأفكارك العليلة لنفسك، لكنك تحاولين بثها إلى أبنائي وأحفادي من بعد ما لفظها جنكيز خان، فهي لا تُناسب بأسه ولا تنطلي عليه.

- أنا لا أحاول أن أؤثر على أحد بافكاري، وإنما أنا أناجي الله وحيدة لكنكِ هنا دائماً لتعكري صفو خلوتي بربي.

- هذا ما تتصنعين به دائماً، وأنك لا تريدين التأثير على أحد، لكن ها أنت تنفثين سُمُكِ في دماء ذريتي ليتحولوا عن عقيدة آبائهم ويهجرون التنجيري[10] إلهنا العظيم، فعندما تُصّلين أمامهم وتحنون عليهم باسم إلهكِ الجبان يسري خدرك القاتل في أبدانهم فلا يستطيعون منه فكاكاً

فيصبحون ضعفاء رعاديد يقبلون إساءة أعدائهم ويديرون خدهم الأيسر لمن يلطمهم على الأيمن.

سكتت بورتي للحظة ثم نظرت لقولان بازدراء وألقت بكل مقتها في عبارة واحدة:

- يا للحقارة والدنو.

حاولت قولان تحمل تلك الهجمة الشرسة التي شنتها بورتي عليها، حاولت أن تتقبل صفعاتها المستمرة في صبر وعزة كما أمرها المسيح، لكنها لم تستطع، ووجدت أن هجوم بورتي الأخير موجه إلى المسيح نفسه وإلى تعاليمه المقدسة فوجب عليها الرد:

- إني لأعجب من كمية الحقد والمقت اللذان يملآن قلبك، الإن تيموجين يحبني ويؤثرني عليك وعلى باقي زوجاته!

- كيف تتوهمين ذلك ومكانتي عند جنكيز خان يدركها الجميع، والكل يعلم أني أم خلفائه وصفيته المختارة، فكيف تقارنين نفسك بي أيتها العقيمة الجدباء، ألم يبذل خاننا العظيم كل ما هو غالي ونفيس لاستعادتي من بعد ما وقعت في الأسر، ألم تُرفع السيوف وتُجيش الجيوش من أجل استعادتي.

احمرت أذنا قولان ووجها من شدة الإهانة التي تتعرض لها من قبل بورتي، حتى أنها لم تصدق هذا الهجوم المحموم الذي تشنه غريمتها القديمة عليها، فكيف لها أن تغمد سيفها إلى نهايته في سويداء قلبها، كيف تهن أنوثتها بهذه الفظاظة، كيف تهجم عليها بكل ما أوتت من قوة بغير ما تترك شئ للمواربة، كادت قولان تفقد المواجهة وهي تبحث عن كلمات تتماشى في قسوتها مع ما سمعته من بورتي بغير أمل، وشعرت أنها في وسط العدم تشعرِ فقط بالخزي والعار والاستسلام التام من جراء ضربات بورتي المتتالية المُحْكَمة.

لاحظت بورتي نظرات الاستسلام والضعف في أعين قولان فاستمرت في الهجوم بلا رحمة:

- ومالك أنت وخان التتار يا قولان، ألست مسيحية مُخلصة، ألا تمنعك شريعتك من الارتباط بالكفرةِ الغوغاء الهمج، لماذا أنتَ زوجة خاننا العظيم إذن؟، ألا تغربين عنا وتريحينا من وجهك الضعيف المقيت الآن وللأبد.

استرجعت قولان ذكرياتها مع الأسر وكيف انتصر جنكيز خان على قومها وكانت أميرة بينهم فاستحياها ثم اتخذها زوجة له، وهي بعد مُمتنة له أنه رفع

من قدرها واختارها لتكون حليلته، لكن تبقى غصة زواجها من كافر لا يؤمن بالمسيح في حلقها مُرة لا تزول... حتى قابلت أحد القساوسة وقد أكد لها أنها في مهمة مُقدسة، وأنها تُسدي خدمة عظيمة لبني قومها وهي في جوار إمبراطور التتار وقاهر العالم، فهي وحدها التي تملك تحويل ذؤابة سيفه عنهم وكف آذاهُ عن رعايا المسيح، ثم اليس من الوارد أن يتحول الخان العظيم إلى المسيحية فتتحول معه جيوشه وجحافله فيصيبها من جراء ذلك أجر عظيم، هكذا منّاها القس وهكذا اقتنعت بواقعها مع جنكيز خان، فتمنت من زوجها إحدى الحُسنيين، إما الانصراف عن أذى قومها وإما اعتناق المسيحية والخضوع للمسيح الرب، وكأن التفكير بالمسيح أعطى قولان قوة هائلة تستطيع بها صد الهجوم الضاري الذي تشنه بورتي، فردت عليها أخيراً:

- أما أنا فأحِبُ تيموجين وقد استشرت رجال ديني فسمحوا لي أن أبقى في كنفه، وجنكيز خان هو رجلي الأوحد منذ وطأت قدمي هذه الأرض فلم يدخل محرابي غيره من الرجال، أما أنت يا بورتي فالجميع يعلم أن جوتشي ليس ابناً لهُ[11] وانه ابن قائد القبيلة التي وقعتِ في أسرها، ولربما حللت ضفائر شعرك بيديك هاتين حتى يعبث هو به، فلا أصدق أنه آتاك على كراهة.

هنا اشتعل الغضب في نفس بورتي فقامت بغتة وصفعت قولان على وجهها:

- خسئت، لقد خضت في حديث لا يمحوا ذكراه إلا الدم، وحق التنجيري إن كان جوتشي لازال على قيد الحياة لأمرته أن يبقر بطنك بضربةِ سيف واحدة فأتلذذ برؤيتك تحاولين لملمة أمعائك من حولك أيتها المسيحية العاهرة.

دخل تولوي ابن جنكيزخان وقائد جيوشه الخيمة على أمه وزوجة أبيه على حالهما ذاك:

- كيف تتعاركان على هذه الشاكلة ونحن على أعتاب عدو ذو بأس شديد، تريدان أن تُشتتا ذهن أبي بهذه الصراعات الجانبية التافهة فتؤثِرون على حسن سير المعركة ويهلك الرجال، ألا يكفي خاننا العظيم ما أصابه من ألم جراء فقدانه لجوتشي أثناء تلك المفاوضات الحمقاء.

كان تولوي بن جنكيز خان طويل القامة عريض الصدر قوي البُنية مفتول العضلات، شعره طويل يميل إلى الشُقرة يُضفره في ضفيرة واحدة تتدلى على ظهره حتى تكاد تقارب خصره، وقد قال ما قال زاعقاً فخافت السيدتان من غضبته، لكن أمه لم تزل تشعر أنها لم تستفي حقها من قولان بعد فردت على ابنها:

- ما كنا لنفقد جوتشي لولا اندفاع ابنك هولاكو أثناء المفاوضات مع أولئك الصينيين الملاعين، فلولا تسرعه بأن أخرج سيفه من غمده لما حدث الهرج والمرج الذي خرج منه ابني الحبيب قتيلاً.

علا صوت بورتي وهي تنطق بعبارتها الأخيرة وبكت وهي تولول بصوت يملأه الأنين وتتقطع من شجنه القلوب جووووووتشي، جووتشي، أشاح تولوي بوجهه بعيداً ناظراً إلى زاوية خالية من الخيمة وقد امتلأت مقلتاه بالدموع حزناً على أخيه، لكنه ظل صامتاً، هنا رق حال قولان لبورتي وسامحتها من أعماق قلبها على الإهانات التي وجهتها إليها، حتى أنها نسيت أمر الصفعة، فقالت مواسية:

- بورتي... قد كان تصرف هولاكو فيه اندفاع شديد، لكنه قدر جوتشي في النهاية، ولا تنسي أنه قُتل بسهم صديق.

أخذت بورتي تنتحب وتشد ملابسها عليها بشئ من اللين فرق تولوي لأمه وقال:

- لقد أقسم خاننا العظيم أن ينتقم من أولئك الصينيين أشد انتقام، وسيكون عقابهم مُضاعفاً، فقد منعوا عنا المدد من الرجال، وهُم كذا تسببوا في مقتل أخي الأكبر جوتشي، وإني لأعجب لأمر أولئك القوم، فقد فتحنا بلادهم عنوة منذ عشرة سنوات .. فكيف ينسون ما حل بهم بهذه السرعة. قد أقسم أبي ألا يقبلُ منهم صلحاً وأن يضحي بأرواح الآلاف ليُبارك مقتل أخي على أن تُكلل أرواح أولئك الآلاف من الصينيين بروح زعيمهم من بعد أن يأخذ أجمل زوجاته حليلة له.

****

جلس جنكيز خان وحيداً وسط صخرة ناتئة في ساعات الصباح الأولى، كانت أصوات الطيور تبعث الراحة في النفس والخضرة من حوله تغسل الروح من أدرانها وآلامها، حتى صوت خرير الماء كان يدعو إلى مزيد من التفكر والاسترخاء، لكن كل ذلك ما كان ليبهج روحه المكلومة، فقد كان يفكر في كل السنوات التي مضت وقد تجمعت الأحزان عليه ، كان الجو بارداً بعض الشئ على لنحو يثير الشجن، ولسبب ما تذكر أباه يسوجاي الذي قتلته قبيلة مُعادية بالسم من بعد ما آمن لهم وأكل معهم، أخذ جنكيز خان ينظر إلى الماء الجاري في النهر وعينيه ثابتة وقد امتلأت مقلاتاه بالدموع وانعقد حاجباه بالغضب.

كان يتعجب من أولئك الأقوام ممن جرأوا على مجابهته مرة من بعد مرة بغير أن يعوا الدروس التي لقنها التاريخ إياهم ، فها هو على أعتاب الصين مرة أخرى مُقبلاً على غزوها بعد اثنتى عشرة سنة من الغزو الأول[12]، ألم يتعلموا شيئاً بعد عن قوة المغول!.

لماذا يضطره أولئك الصينيون على تأديبهم المرة بعد المرة، الم تكن المرة الأولى كافية... لماذا اضطروه للمجئ إليهم مرة أخرى وتسببوا في مقتل جوتشي ابنه الأكبر، وكأن التنجيري كان يعلم أن ابنه الأكبر لن يمكث في الحياة فترة طويلة وأنه سيكون ضيفاً كريماً عليها فألهمه أن يُسميه جوتشي[13].

بل لم يكن الأمر حكراً على الصينيين، فها هُم المسلمون الخوارزميون يتجرأون عليه ثانية، ألم يهزم علاء الدين خوارزم شاه منذ سبع سنوات!، ألم يضطره إلى الموت هارباً ذليلاً[14]، والأكثر مدعاة للسخرية أنه ما بادءه العداوة، فقد كانت هناك معاهدة بينه وبين علاء الدين على التبادل التجاري، ومع ذلك قام "بنال" حاكم مدينة "أترار" بقتل التجار المغوليين من بعد التشاور مع علاء الدين ظناً منهم أنهم جواسيس.

تذكر جنكيز خان كيف سيطر على غضبه وطلب من علاء الدين تفسيراً لمقتل التجار المغول، فكذب علاء الدين والقى بتبعات الأمر على حاكم أترار الذي قتل التجار بغير أن يرجع إليه، فأرسل إليه جنكيز خان الرسل يطالبه بتسليم حاكم أترار ليحاكمه بنفسه، فرفض علاء الدين خوارزم طلبه وأمر بقتل الرسل قاطعاً بذلك أي بادرة أمل أن يتوافق معه، الآن حاكم أترار هو بن خالة محمد خوارزم يرفض تسليمه ويتحدى خاقان العالم! هو من أرادها حرباً، فلتكن حرباً.

عندما وصل جنكيز خان لهذا الخاطر انعقد حاجباه على نحو أكثر حدة وعيناه على حالهما مُثبتتان جهة النهر الجاري، هم من أيقظوا المارد بداخله، هم من طلبوا الموت ... وما اقترف إثماً إلا أن نولهم ما كانوا يريدون، ولكن هيهات أن يتعلم أولئك المغرورون بضعفهم الدرس مرة، فها هو جلال الدين خوارزم شاه يتحداه من بعد موت أبيه، بل ويستطيع هزيمته في كابول ويحرض المدن الإسلامية التي فتحها ضده ومع أنه استطاع دخول تلك البلاد الإسلامية مرة أخرى وأدب أهلها، ومع أنه هزم جلال الدين غير ذات مرة فقد تمنى أن يظفر به ليجعله عبرة لمن لا يعتبر.

لكن دعنا من خوارزم شاه الآن، فدوره لم يأت بعد، الآن يجب أن أكرث جهودي كلها للانتقام من أولئك الصينيين واثأر لمقتل جوتشي، فإن كان جوتشي قد قتل بسهم تتاري فهم من تسببوا في الملابسات التي أدت إلى انطلاقه ولسوف يدفعون الثمن.

****

أطلق جنكيز خان لجواده سيسنز[15] العنان وهو جاثم فوقه سارحاً في أفكاره حزيناً على جوتشي، وكلما زادت عليه الذكريات الحزينة لكز سيسنز بقوة أكبر ليندفع الجواد في غضبة لينهب الأرض من تحته، زادت سرعة الجواد إلى حد الجنون، وبات الهواء البارد يصطدم بصدر جنكيز خان ووجهه بقوة، تعثر الجواد فجأة في صخرة كبيرة، ليسقط صاحبه من فوقه سقطة قاسية لم يستطع الجسد الواهن المُنكّس احتمالها، ولم يستطع حتى الوقوف على قدميه، فحمله جنوده حتى وصلوا به إلى خيمته عليلاً ترتفع حرارته بسبب كسور جسده، لكنه أمر جنوده بإخفاء نبأ إصابته حتى يفتح الصين المُتمردة مرة أخرى.

بينما كان جنكيز خان ممدداً على سريره المفروش بفرو الحيوانات البرية دخل عليه حفيده هولاكو...

- عمت مساءاً أيها الخاقان الأعظم.

- مرحباً بحفيدي هولاكو، تعالى هنا اجلس بجانبي.

تقدم هولاكو ليجلس على طرف فراش جده وهو يتحاشى النظر إلى عينيه مباشرة، فلاحظ جنكيز خان نظرات حفيده الزائغة هنا وهناك فبادره بالسؤال:

- مالي أراك واجماً هولاكو.

- لا شئ يا جدي، فقط أنا متعب بعض الشئ، قالها هولاكو بغير أن يحاول النظر في عين جده وفي صوته شئ من الضيق.

- فلتقل ما يزعجك مباشرة ولا تتمنع عن الكلام مثل النساء، فهذا ليس بسلوك مقاتلي التتار العظام.

نَظَرَ هولاكو إلى جده والحزن بادي على ملامحه:

- قد عزلت أبي تولوي عن قيادة الجيش بغير ذنب اقترفه، فطالما كان أبي مطيعاً لك مخلصاً في محبتك، ثم أنك عزلته وأنت على فراش المرض، فكان أولى لك أن تُثبته حتى يحفظ مُلكك.

- لازلت صغيراً يا هولاكو[16]، ولا تفهم كيف يُدار الحكم... ومع ذلك اعلم أنه لا يجب عليك أن تُثبت أحد قوادك أبداً، فطول الأمد في المناصب يولّد الكفر والغرور ويدفع صاحبه إلى الاستبداد.

- لكنه ابنك يا جدي، ومن المستحيل أن ينقلب عليك، وقد أصابني من الخزي ما أصابه نتيجة قرارك هذا.

- ألم أقل لك أنك لازالت صغيراً يا هولاكو، لسوف تفهم يوماً ما حقيقة القرارات التي اتخذتها، ولسوف تُصدر مثلها.

قالها جنكيز خان وأغلق عينيه متوقفاً عن الحديث، فنظر إليه هولاكو في حالة من عدم الاقتناع، وأطال النظر إليه وهو لا يزال على ثباته فربت على يد جده وقبلها ثم قام.

****

كيف يُمكن لجيبي أن يخطئ السهم، لابد أن في الأمر أمر، قالها القائد التتاري بشكٍ ممزوج بالدهشة، فكيف يُخطئ أفضل رماة التتار هدفه، وكيف يصيب هذا السهم جوتشي الخاقان القادم وابن جنكيز خان في مقتل.

رد عليه أحد الجنود:

- معك حق أيها القائد لابد أن في الأمر أمر، وما ترانا فاعلين.

القائد التتاري:

- يجب أن يتم التحقيق مع جيبي لنعرف حقيقة ما اعتراه ورَعَشَ يده لتصيب جوتشي بدلاً من أولئك الصينيين.

أخذ جيبي يأن من الألم الذي يتعرض له من قبل المُحققين التتار، ووقف القائد ينتظر اعتراف جيبي من بعيد، فعندما سُئل جيبي أول الأمر عن سبب حيد السهم من يده وهو لم يخطئ الرمي من قبل اضطرب وظهر منه السوء.

قال جيبي صارخاً من وطأة الألم:

- سأعترف سأقول لكم كل ما أعرف لكن اقتلوني خلصوني من حياتي البائسة.

أشار القائد للمحققين أن يتوقفوا عن جيبي بإشارة من يده:

- فلتتكلم يا جيبي ولتنل موتاً رحيماً.

- أمرني بقتله شقيق الخان العظيم طمعاً في المُلك من بعد جنكيز خان.

هبَّ القائد واقفاً من هول ما سمع واستوثق من جميع التفاصيل الخاصة بالمؤامرة من جيبي وانطلق ليخبر بها جنكيز في خيمته.

****

أخذ جنكيز خان يستمع لتفاصيل المؤامرة التي صاغها أخوه بسرعة ودقة... للخلاص من أكبر ابنائه جوتشي، فدمعت عيناه وعزم على الانتقام.

- ساعدني على النهوض.

- عافاك الله أيها الخان العظيم، قالها القائد التتاري وهو يساعد جنكيز على النهوض ليجلسه على عرشه.

وهَبَتْ رغبة الانتقام جنكيز خان صحوة مفاجئة من الموت، فعاد إليه صوته القوي واستطاع أن يقيم صلبه وقال بصوت راعد:

- أريد أمامي الآن أخي وجيبي حتى أحاكمهم بنفسي.

- سمعاً وطاعة يا مولاي

قالها القائد منحنياً وهرع لينفذ ما أُمر به.

وكأن دم جيبي وشقيق جنكيز خان المسفوح قد افتدى به الرب دماء آلاف الصينيين، فقنع جنكيز خان بفتح الصين على صلح بغير قتال على أن يتزوج أجمل سراري إمبراطور الصين، فقد كان الخان العظيم معتاداً على زيجة جديدة بعد كل فتح جديد، لكن القدر لم يمهل الخاقان العظيم متسع من الوقت ليستمتع بزيجته الأخيرة، فقد توفى ألماً على جوتشي ومتأثراً بسقطته من فوق جواده[17] عن عمر اثنين وسبعين عاماً، ليرجع به أنصاره إلى نقطة كان قد اختارها ليُدفن فيها... فوق جبل بركان كالدون المقدس بمنغوليا[18].

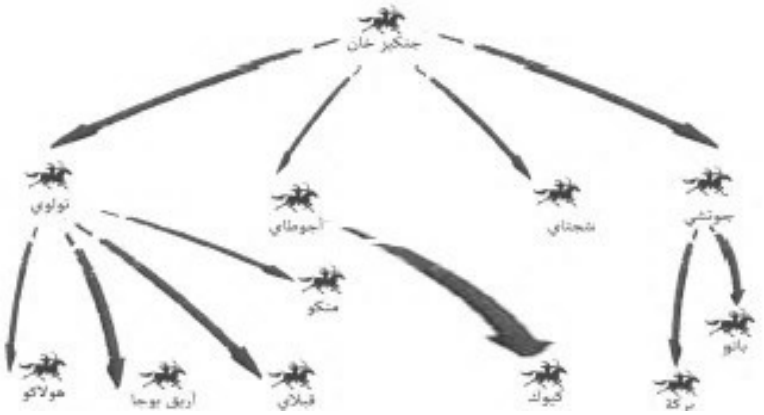

****

الإخوة الأعداء

مصر 625هـ

جلس الملك الكامل بن الملك العادل في حديقة قصره يتجاذب أطراف الحديث مع مستشاره الخاص ويفضي إليه بمشاغله...

- ما كنت أخال أن يكون اخوتي أشد بأساً عليَّ من الصليبيين الفرنج، لا أفهم لماذا ينازعونني مُلكي، وهل قصرت أنا في حقوقهم أو اسأت إليهم حتى يطمعوا فيما في يدي!!

رد المُستشار ...

- إن صَدَقَ القول على أخيك الملك المُعظَّم عيسى فهو لا يصدق على الأوحد والأشرف فهم على الحياد.

- الحياد في هذه الظروف جريمة لا تستوجب الغفران، فإما معنا وإما علينا.

- يا جلالة الملك، للحديث شجون، أنت والمعظم بالنسبة للأوحد والأشرف إخوة، والأوحد والأشرف في موقف صعب الآن لا يعرفون للإصلاح بينكم سبيلاً وهم يعفّون بأنفسهم أن يتدخلوا مع طرف على حساب الآخر.

- لكن أنا ملك مصر وقد أورثني الملك العادل إياها دونهم وإن ولاهم على بعض الإمارات فليس معنى ذلك أن يُحادوني في ملكي، لكن ماذا أقول وليس للطمع حدود، بل وجب على اخوتي أن يساندوني لرد هذا الآبق العاصي عيسى حتى تعود الأمور إلى نصابها وتتوحد البلاد تحت راية واحدة.

- معك حق يا مولاي، لكن يجب أن تضع نفسك موضع اخوتك، وترى الصراع القائم من وجهة نظرهم، فأنت والمعظم عيسى لازلتم إخوة، ومن العسير عليهم التدخل مع طرف لمواجهة الآخر.

- عيسى لم يعد أخي بعد الآن...

قالها الكامل بحدة وقد علا صوته بعض الشئ.

- عيسى استعان بهذا الخاسر ابن الفار المهزوم جلال الدين خوارزم ليتعاون معه ضدي، والآن ما عساي أن أفعل؟... فلن أرضخ لضغوط هذا

الحاقد مهما كان.

كان المستشار شارد الذهن وهو يستمع إلى الملك الكامل، ومن ثم فكر في أن يلقي إليه باقتراحه الذي خاف أن يعرضه عليه طوال الفترة الماضية:

- يمكنك الاستعانة بالفرنج، فالإمبراطور فريدريك تربى وتعلم في صقلية وفيها ما تعلمه من مظاهر الحضارة الإسلامية، لذا هو متأثر بها مُقدر للإسلام والمسلمين وهو واسع العلم يتحدث العربية، فإن كان للمعظم عيسى جلال الدين خوارزم، فللملك الكامل الإمبراطور فريدريك.

فتح الملك الكامل عينية وكأنه أفاق بغتة ونظر إلى مستشاره:

- كيف استعين بعدو لنا قد حاربناه بالأمس؟.

ابتسم المستشار بسمة خفيفة وقد أدرك أن الملك الكامل لم يستبعد اقتراحه بالمرة وأنه يفكر فيه، فأكمل في ثقة:

- عدو الأمس صديق اليوم يا مولاي، وما السبيل أمامنا؟ وقد أبى العيسى علينا إلا ذلك.

- وإن وافقتك، فما تقول الرعية؟، وهل سينصاع قواد جيشي إلي وأنا آمرهم أن يقاتلوا إخوانهم وأبناء عمومتهم جنباً إلى جنب الصليبيين الذين تعاونا جميعاً على قتالهم بالأمس.

- للضرورة أحكام يا مولاي، وما ترك لنا المعظم عيسى من خيارات اخرى من بعد ما استعان هو الآخر بجلال الدين خوارزم.

أمسك الملك الكامل عن الكلام وهو يتأمل في كأس الشرب الموضوع أمامه وهو غارق في التفكير.

****

دخل الإمبراطور فريدريك على زوجته فرحاً ذاك اليوم، فقالت له زوجته:

- ما بالي أراك سعيداً اليوم على غير العادة؟.

نظر إليها فريدريك مُتخابثاً:

- أأدخل عليك عبوس الوجه مُتجهم دائماً؟.

لم تشأ الزوجة أن تعصف بسعادة زوجها وأرادت أن تعرف المزيد عن سبب سعادته:

- لم أقل ذلك، لكني لم أراك سعيداً إلى هذا الحد منذ فترة طويلة.

- اليوم جائني فخر الدين يوسف رسول الملك الكامل يبلغني رغبة الملك أن أتعاون معه ضد أخيه المُعظم عيسى.

- قالت الزوجة باندهاش: وهل تصدق هذه الدعوى، وهل يتقاتل الإخوة؟؟! ألم يكن أولئك كتفاً إلى كتف ضدنا في حملتنا الخامسة في دمياط، لعله فخ ونُصِّبَ لنا.

- ما أظن ذلك فجواسيسي بمصر والشام أخبروني أن الصراع بين الإخوة مُستعر وأن المعظم عيسى قد استعان بجلال الدين خوارزم ليفتك بأخيه.

- لكن ما العائد علينا نحن عندما نتدخل في تلك الصراعات الداخلية؟

- لقد وعدني الملك الكامل أن يُسلمني بيت المقدس وجميع فتوحات صلاح الدين بالساحل الشامي، وقد علمتي ما وعدت به من قبل أن أقوم بحملة صليبية سادسة إلى الشرق عندما ساعدني البابا للوصول إلى حكم الإمبراطورية، وقد تقاعست كثيراً لتنيفذ ما نذرت به[19].

- إذاً فلتتحرك وليبارك الرب مسيرتك.

- لسوف أجهز جيش صغير أتحرك به، فما أخالني سأحتاج إلى الجمع الكبير لأحدث توازناً في هذا الصراع الأهلي القائم، فسرية واحدة تكفي[20].

****

أخذ فريدريك يفكر آسفاً فيما آلت إليه الأوضاع...

- أكان يجب على المعظم عيسى أن يموت الآن

قالها فريدريك في أسف.

- رد عليه قائد فرسانه: هون عليك جلالة الإمبراطور، إنما هي مشيئة الرب، فلا يجب أن نقف عند هذا الحدث ودعنا نفكر فيما وراءه.

- وما عسانا أن نفعل؟؟

- من رجاحة العقل يا مولاي أن تحاول التفاوض مع الكامل، فلسنا على القوة الكافية لمواجهته الآن، وكذا فقد وفيت جلالتكم بالتزامكم في الاتفاق وأتيت إلى هنا لمساندته.

- معك حق سوف أراسل الكامل الآن، ولنرى نتيجة ذلك، فمن العار أن نرجع إلى الكنيسة نجر أذيال الخيبة ولم ننجز شئ فيما وعدنا به من

انتصارات وفتوحات.

****

بالفعل قام الإمبراطور فريدريك بإرسال رسالة إلى الملك الكامل يرجوه فيها أن يتمم له ما بذله من وعد، وكان من المتوقع أن يرفض الملك الكامل إنجاز ما وعد كون فريدريك لم يتدخل في الصراع الكائن بينه وبين أخيه عيسى، لكن فريدريك بالغ في استعطاف الملك الكامل[21]... وبالفعل أفلح سلاح الاستعطاف مع الملك الكامل خاصة وقد كان فرحاً من التخلص من أخيه المعظم عيسى بغير قتال فأعطى الإمبراطور فريدريك بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وصيدا، وذلك في معاهدة عقدها معه في يافا[22]، وقد اشترط الكامل على فرييدريك ان تبقى مدينة القدس على ما هي عليه فلا يجدد سورها وأن يظل الحرم وما يضمه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة بأيدي المسلمين وتقام فيه الشعائر ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة.

****

آلموت، قلعة الحشاشين

626هـ فارس/إيران

وقف حرب ينظرُ من برج القلعة الشمالي إلى الفراغ من تحته وهو لا يكاد يتبين حركة الفلاحين في الأسفل، فقد كانت قلعة آلموت على ارتفاع 6900 قدم[23] من سطح الأرض، وكان لها طريق واحد فقط للوصول إليها، عبارة عن منحدر طبيعي وعر ذو صخور خطرة، وكان من الصعب إن لم يكن من المستحيل اقتحام القلعة، فبات حرب ينظر من داخل برج حراسته وفي قرارة نفسه أن لن يقدم أحد على اقتحام القلعة أو التسلل إليها، لولا أنه فدائي مُجتهد لتخلى عن حظره المعهود ثقة في تحصينات القلعة.

سمع حرب وقع أقدام صاعدة إلى البرج، فحدَّثَ نفسه أن لعله الملاحظ جاء ليطمأن على يقظته أثناء فترة تكليفه، فوقت الطعام لم يحن بعد حتى يأتيه الغلام بوجبة الغذاء، نظر حرب في نطاق ملاحظته مرة أخرى حتى أحس أن الشخص الصاعد على وشك الوصول فنظر جهة الفتحة الموجودة في أرضية البرج ليتعرف على الزائر المجهول.. فوجده شاهر رفيقه القديم بالقلعة، فأدار رأسه بملل ليتابع الملاحظة تاركاً شاهر يتحدث من خلفه:

- كيف حالك يا صديقي، لماذا لم نشهدك أمس عندما تناولنا الطعام في القاعة.

سكت حرب لبرهة ثم أجاب بغير أن ينظر إلى شاهر:

- كنت مُتعباً ليلة أمس فآثرت تناول بضع ثمرات اختزنتها من الليلة الماضية.

- أنت هو أنت يا حرب، لا تحب التجمعات وتنأى بنفسك عنها منذ كنا صغاراً، حاولت كثيراً أن أعرف سبب عزوفك عن أمر السهر والمسامرة فلم أعرف.

- فقط أحب أن أئوي إلى فراشي مبكراً... حتى أستطيع أداء مهامي في اليوم التالي على أكمل وجه.

قالها حرب وهو يلتفت إلى الخلف لينظر إلى شاهر بغير أن يتوجه إليه بجسده.

- أنت أشبه بمولانا حسن الصباح رضي الله عنه مؤسس هذه القلعة وزعيم طائفتنا، يقال أنه لم يخرج من خلوته قرابة الخمسة والثلاثين عاماً. "سكت شاهر برهة ثم أكمل" بمُناسبة مولانا الصباح، هل تصدق ما كان يقال عليه؟

شعر حرب أن زيارة شاهر سوف تطول وأنه لم يأت إليه لغرض محدد، فهو لا يكاد يثبت على موضوع معين في نقاشه معه، فالتفت حرب إليه وترك أمر المُلاحظة إلى حين، فقد مل هو الآخر من ملاحظة السكون أسفله فقال:

- ماذا تقصد...؟

- أنه كان يستطيع إدخال من شاء إلى الجنة فيريه إياها رأي العين، وأنه كان يختص بذلك... من هو مُقدم على مُهمة فدائية، وذلك حتى يزداد يقينه في الله خاصة وأن الفدائي إن تم تكليفه بمهمة معينة واستلم الخنجر... فإنه يكون متيقناً من الهلاك... فسوف يتم قتله بمن يقتله لا محاله.

- حسن الصباح كان مجاهداً مخلصاً، أخلص عمله لله تعالى، فلا غرو أن أثابه الله بكرامة لم يؤتها أحد من العالمين.

- يُقال أن من يدخل جنة الصَّباح يظل في حالة اكتئاب من بعد أن يخرج منها، ويظل في حالة اشتياق أن يرجع إليها مرة أخرى ، فلا يكون لذلك سبيل إلا تنفيذه للمهمة الانتحارية التي وكِّلَ بها ليعود إلى الجنة التي طُرد منها، ففي جنة الصَّباح... نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، سكت شاهر لوهلة ثم استطردَ في خباثة: وبالطبع فإنه كان يواقع أياً من الحور العين اللاتي تقع عينه عليهن.

- وكيف يُجهّز مولانا الصباح من وقع عليه الاختيار حتى يدخل الجنة؟

- فقط هو يجلس على أريكه الشيخ الصباح ولا يلبث وقت طويل حتى ينام ويصحوا وهو في الجنة.

- وعندما يستفيق منها، أين يجد نفسه.

- ضحك شاهر متخابثاً: على الأريكة نفسها.

- ألا يمكن أن يكون ذاك حُلماً.

- كلا فقد أكد جميع من دخلوا الجنة أنهم رآوها رأي العين ولم يكونوا في حلم أو ما شابه، لقد قطفوا من الثمرات وتكلموا مع الحوريات بل وضاجعوهن.

- إذاً هي كرامة لشيخنا الصباح، رحمة الله عليه عاش مُجاهداً مُطارداً غريباً.

- رحمة الله عليه، قد مر أكثر من قرنين من الزمان على موت إمامنا الجليل، آه لو أن الأكبر[24] أو أياً ممن سبقوه لديهم ما لدى حسن الصباح من كرامة، إذاً لرأينا الجنة واشتقنا إليها أكثر مما نحن مُشتاقون، ولبذلنا في سبيلها كل ما هو نفيس، ولبذلنا في ذلك أرواحنا.

- قد رآها إخواننا من قبلنا، وشيوخنا على درب مولانا حسن الصباح سائرون... فسادة القلعة وإن لم يكن لهم كرامات مولانا الصباح، فجزاؤنا نحن ومن سبقونا بالإيمان واحد، فجميعنا إلى الجنة بإذن الله، ولعل جنتنا تكون أعلى مرتبة من جنتهم، فقد عاينوها هم من قبل أن يدخلوها، أما نحن فلم نرها وصدقّنا بغير أن نرى، فسوف يكون لنا جزاء أوفى من رب العالمين.

- آمين، لكن من الذي أسماك حرباً؟ أكان ذلك أبوك؟

- حرب في ملل: ألا تكف عن الحديث اليس ورائك عمل تُنجزه يا رفيق[25]؟

- وما ورائنا غير الحديث، جئت لأسليك وأصرف عنك ملل نوبة المُلاحظة، فلا تكن فظاً وأجب.

كان حرب ليس في حاجةٍ حقيقية أن يسليه أحد، فطوال عمره يعرف كيف يقضي أوقاته، وقلما يثقُ هو في أحد، لكنه احترم رغبة شاهر أن يتقرب منه فقرر مجاراته في الحديث:

- حقيقة لا أعلم فقد شببت هنا في القلعة ولا استطيع تذكر عائلتي من الأساس، لربما الذي أسماني بهذا الأسم هو بائعي إلى شيخون قائد التدريب في القلعة، أو ربما يكون هو شيخون نفسه.

- هذا الأسد العجوز، لمَّ لا تذهب وتسأله عن ذلك بنفسك بعد انتهاء نوبتك في الملاحظة، لربما كان هو من أسماك.

- وما الهام في ذلك كله يا شاهر، فأنا في النهاية حرب وأنا أحب اسمي، ما الجدوى من معرفة أي شئ آخر!

- يا لك من شخص ممل، ألا تريد حتى أن تعرف القصة وراء اسمك؟، ألا تشعر أن اسمك مُنفر؟.

- مُنفر! لماذا؟ لم أشعر بما تقول يوماً فطالما أحببت اسمي.

- ألم ينهى رسولنا الكريم عن تسمية الأبناء بالأسماء الكريهة.

- ما اسمي بالكريه، ألم يقل الله تعالى "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم"، فقد يكون في القتال والحرب شر ظاهر خير باطن، فالقتال هو وسيلة خالق الكون لإحداث توازنات فيه، ألم يقل تعالى " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض".

- الآن أنت فقيه فيلسوف من بعد ما كنت مقاتل صنديد.

- لا يلزم المرء أن يكون فقيهاً ليرد عليك بما أقول، فتأمل الكثير من الأسماء من حولك لتقف على حقيقة ما أقول، بل وأسم مالك الذي درج الكثير من الناس على تسمية أولادهم به هو اسم خازن النار من الملائكة، أليس هو أسم ذو كراهة.

- نعم هو كذلك، أعجب لما هو منتشر على هذا النحو!.

- أسم مالك يحمل الكراهة في شكله لكن في باطنه الرحمة، لإنه إن علم الناس أنهم سيُتركون بغير حساب لفسدت الأرض ولبغى الأقوياء على الضعفاء بغير وازع، أفلا يكون مالك كخازن للنار هو سبب من أسباب الرحمة في الحياة الدنيا.

- لديك الحكمة يا حرب، ولا عجب في ذلك، فنحن في القلعة لدينا كل الوقت لنتأمل ونقف على حقيقة الأشياء، ومنا من يستثمر وقته كحالك، ومنهُم يقضي وقته في الثرثرة والسمر.

قالها شاهر ضاحكاً مشيراً إلى صدره.

****

كان تمَّام لا يطيق النظر إلى قاسم، فهو يُذكره بحليل زوجته المتوفي فهو يشبهه كثيراً ويؤلمه أن يتذكر زيجة امرأته الأولى، ترى هل كانت ريحانة تحب زوجها أكثر ما تحبه، ترى هل كان يُمتعها في الفراش أكثر منه؟، ريحانة كانت دائماً تشعره أنه يمتعها ويملأها تماماً أثناء الجماع لكنه لا يُصدقها... فقد كان الصادق زوجها وسيم قوي ذو حضور وذكاء وهيبة، فكيف يتفوق عليه، تباً لك يا صادق، تُعذبني حياً وميتاً.

قد فضلَّت ريحانة الصادق على تمَّام في السابق، فقد كانت ريحانة تعلم أن تمَّام يُحِبُها من قبل زواجها بالصادق، لكنها فضلت الصادق عليه لمناقبه الطيبة، والحقيقة كانت أن شخصية الصادق وصلت لحد من الكمال بحيث أنها كانت تجذب إليها جميع فتيات المدينة، فريحانة لم تكن هي الوحيدة المهووسة به رغم كونها أملح الفتيات وأكثرهن رقة وحيوية.

عندما تقدم الصادق للزواج من ريحانة وافقت عليه مباشرة بغير قيد ولا شرط، وكأنها كانت تنتظر إشارة منه حتى تهرول نحوه وتأوى إليه والحقيقة أن الصادق كان يُعامل ريحانة معاملة طيبة فقد كان يحترمها ويقوم على أمرها ويجتهد لإسعادها، ورغم مرور سنوات الزواج بينهما ما خذلها قط، فقد ظل مُحافظاً على مظهره ولم يتخل عن مروءته وشجاعته، وظل مُلتزماً بجميع المناقب التي أحبته لأجلها.

والعجيب أن تمّام لم يحقد على الصادق أن تزوج ريحانة، فقد كان مُقتنعاً أنه كفئاً لها وأنها ما كانت تستحق غيره، وقد كان يعلم أن الصادق أفضل منه، فهو أوفر منه حظاً في كل شئ، وهو دونه في كل شئ، فلا معنى للحقد عليه، فالبون واسع والفرق لا يمكن تداركه.

وعندما مات الصادق ترك ريحانة وفي بطنها ولد، فكانت هائمة على وجهها مُنزعجة مصدومة، لا تدري سبيل لتربية طفلها من بعد موت عائلها الوحيد، فقد كان أبوها على علو منزلته لا يملك المال الكافي لإيواء ريحانة ولا لتربية الجنين المستقر في أحشائها.

لذلك استجابت ريحانة لتمَّام ومحاولته التقرب منها من بعد وفاة زوجها وهي تعلم قدر حبه لها وولعه بها، فواربت الباب عندما حاول الولوج، ثم فتحته تماماً عندما لم تجد غير سبيله للخروج من الأحزان التي أحاطتها فوافقت على الزواج منه.

ولم تفكر ريحانة عندما قبلت الزواج من تمَّام في ابنها الذي لم يتعدى عمره عدة أشهر، فلم تفكر في موقف تمّام منه، فقط فكرت كيف لها أن تستعيد حياتها المُستقرة مرة أخرى وتعود إلى ملاذها الآمن، وقد كان تمام يتقبلُ قاسم في قَبول حسن سنوات الزواج الأولى، فكان لا يظهر التبرم عندما يصرخ الطفل فتقوم زوجته من الفراش في أوقات متقطعة من الليل لتلبي نداءه، لم يكن يعترض على رائحة ثيابها المُشبّعة بقطرات اللبن المتسربة من حلماتها، لم يكن يتبرم ولا يعترض... فقد كان الزواج من ريحانة حلم عزيز عليه، وقد تحقق الحلم وهو سعيد بذلك ولا يريد أن يُفسِدُ الأمر رغم المُنغصات.

لكن تباً للعادةِ، فما أن يصل الإنسان لما يحلم به ويتمناهُ حتى يزهدهُ بعد حين، لذا فقد فَتَرَ تمّام من ريحانة بعض الشئ، ومل من وجود قاسم بينهما، ووجه غضبه إلى الصغير فنقم عليه وأساء معاملته من الصغر حتى صار بينه وبين الطفل حاجزاً ضخماً سميكاً عالياً، وكان تمَّام لا يشغل باله في تفسير سبب نقمته على الصغير... وهل السبب في ذلك أن قاسم يذكره بالصادق خاصة وأن الشبه بينهما مُتطابق، أم لأنه يشغل مساحة من وقت ريحانة

واهتمامها، أم لأنه كائن غير مرغوب به في المنزل؟، أياَ كانت الأسباب فهو يتمنى أن يتخلص منه.

وكان مما أوغل في صدر تمام أنه لم يكن له ولد من ريحانة أو غيرها، رغم السنوات الثمانية التي مرت من زواجهما، إلا أن هاجس الحمل لم يكن يؤثر على ريحانة مثلما أثر عليه، فهي في النهاية أم للقاسم وقد أشبعت غريزة الأمومة لديها، ولا يمكن لأحد أن يتهمها أنها عقيم، فقد لقّمها زوجها الفقيد بالولد.

في هذا المساء جلست ريحانة على الأرض بعد أن أحضرت صحفة الطعام، وقد كان تمَّام والقاسم جلوساً في انتظار ما أعدته، وبدأ الجمع بالأكل في صمت، فصار قاسم يُفتت اللحم الموجود أمامه يتخير أطيبه ويترك الدهن في الصحفة، فنظر إليه تمَّام شذراً:

- ألا تستطيع أن تأكل مثلما يأكل الناس.

توقف قاسم عن المضغ تماماً وقد شعر بغصة في حلقه من جراء تحرش زوج أمه به، أما ريحانة فقد احمر وجهها وثبتت ناظريها على الطعام أمامها واستمرت تلوك ما في فمها ببطء، فقد آثرت عدم التدخل حتى لا يتحول تمَّام إليها ويتشاجر معها كما هي العادة.

- ألا ترين كيف يُفتت اللحم بهذه الطريقة المقززة ويترك لنا بقاياه في وسط الصحفة لنبتلعها.

سكتت ريحانة ولم ترد، في الحين الذي احتشدت فيه العبّرات في عين قاسم وأصبح غير قادر على مواصلة التظاهر باللامبالاة، بل وحتى المضغة التي باتت في فمه لم يعد قادراً على بلعها، فأكمل تمَّام حديثهُ موجهاً إياه لريحانة.

- أأصبت بالصمم أنت الأخرى، ألم أسألك سؤالاً، هلا أنعمتي عليَّ بالرد.

- ريحانة: وأين السؤال؟ أنت فقط ناقم على قاسم ولا تطيق رؤيته كما هي العادة.

- تمام: أهذا ما توصلتي إليه من جميع ما يحدث أمامك، ألا تسمعين صوته العالي وهو يلوك الطعام على هذا النحو المُنفر!

لم يعد قاسم قادراً على تحمل المزيد من الكلمات، فقد قام من على الطاولة وقد ازدرد ما بقى في فمه بدلاً من إلقاءه حتى لا يزيد من نقمة تمَّام.

- تمام: أترين؟ هذه نتيجة تدليلك إياه، فقد قام ناقم عليَّ رافضاً توجيهي له.

سكتت ريحانة ولم تجب، فصرخ فيها تمام:

ما بالك يا امرأة تتحولين إلى صنم كُلما تعلق الأمر بابنك لم يكن تمَّام يذكر قاسم باسمه، فكان دائماً ما يذكره بضمير الغائب.

- هو لم يفعل ما يستوجب ردة فعلك هذه يا تمَّام، وإن كنت أحببته لتقبلت ما يفعله بغير الكثير من السخط والتبرم، فهو لا يزال صغيراً.

- ها أنت تعودين لاتهاماتك الباطلة الجوفاء وأني لا أحب ابنك، ولا تلتفتين إلى سلوكه الأعوج لتقوميه.

سكتت ريحانة ولم تجب، فقد باتت غير قادرة على مُجادلة قلب مُفعم بالكراهية، وهي بعد لا تقوى على التمرد عليه وهجرانه هي وابنها، فتمَّام هو عائلهما الوحيد، وعليها وعلى قاسم تقبل مضايقاته المستمرة حتى يدرك في النهاية أن قاسم ليس بهذا السوء، وإن كانت ريحانة تعلم أنه من المستحيل تغيير عاطفة تمَّام جهة قاسم إلا أن الأمل ظل يحدوها، فقد كانت تُمني نفسها بالوفاق بينهما حتى تستطيع الاستمرار في الحياة، خاصة وأنها تنعم مع زوجها في أوقات أخرى كثيرة بمشاعر الحب والتقدير.

أخذ تمَّام ينظر إلى ريحانة منتظرا إياها أن تجاريه في الحديث وتدين سلوك ابنها لكنها بقيت على صمتها، فأطاح بالصحفة من أمامه فتناثرت قطع اللحم وحبات الأرز على ملابسه والأرض والمائدة، فقام بغتة ينفض عن ملابسه ما لحق بها من طعام:

- ما عدت أطيق الأكل ولا أطيق الحديث معك.

ترك تمَّام ريحانة غارقة في دموعها التي أبت النزول في حضرته، وفاضت بعد أن ولاهها ظهره.

أما قاسم فقد اتخذ قراره أنه لن يجتمع مع أمه وزوجها على مائدة قط حتى لا يتأذى، وقد كان يشعر في قرارة نفسه بالكراهة أن يأكل من مال هذا الرجل، لكنه لم يكن يستطع الاستغناء عن دعمه، فهو بعد لا زال يدرس ولا يستطيع تدبير أمر قوته فضلاً عن نفقات المدرسة، لذا فكر قاسم أن يترك المدرسة ويعمل في السوق حتى يستطيع أن ينفقَ على نفسه وعلى أمه إن هي أرادت الفكاك من زوجها قاسي القلب. وهو لا يدري إن كانت أمه ستوافق على أن يترك الدراسة ويعمل أم لا، لكنه بلا شك سيحاول جاهداً أن يقنعها ، فهو لا يريد أن يكون لتمَّام فضل عليه.

****

نحن... وهم

بغداد 627هـ

جلس فوّاز وبُرهان ومالك في أحد الأركان الهادئة المُلحقة بالخان الموجود على أطراف المدينة، وقد كان فوّاز وبُرهان ساهمين ينظر كلاهما إلى شئ وهمي بعيداً وهما واجمان صامتان.

أقطعنا كل تلك المسافة لتجلسا صامتين واجمين على هذا النحو. قالها مالك ساخراً هو ينظر إليهما يستحثهما الحديث....

فوّاز في ملل:

- وما تريد لنا أن نفعل أيها المُتحذلق.

مالك ببساطة:

- تكلما... فما جئنا هنا للعبوس والصمت.

- بُرهان: لا شئ في هذه البلدة يدعو المرء إلى الكلام والحديث، فكل ما فيها فاتر يَبعثُ إلى الملل.

- مالك ضاحكاً: كيف السبيل إلى ما تقول وبغداد عاصمة العالم، وفيها كل ما تشتهيه الأنفس؟.

- بُرهان: أمازلت تصدق تلك الأساطير البالية يا مالك؟

- وما الأساطير فيما أقول، ألا ترى جمال عاصمتنا المجيدة، والحق يُقال... منذ أن بويع للمستنصر بالخلافة وهو لا يألوا جهداً في تحسين أوضاع البلاد.

- بُرهان: قد بذل قدر من الجهد وليس كل الجهد، وفي رأيي الخاص فان شئون السياسة قد أفسدته.

- مالك مُستهجناً: أفسدته... كيف السبيل إلى ذلك! الم ينشر الخليفة العدل في ربوع الدولة؟ ألم يُكرِّم أهل العلم والدين ويُقربهُم؟ ألم ينشئ المساجد والمدارس والمستشفيات؟ ألم يجيش الجيوش لمواجهة أعداء الدين؟ ألم يُنشئ المدرسة المستنصرية التي علمتك التحذلق؟

- فوّاز مقاطعاً: اهدأ يا مالك، فنحن نتناقش ولا نتعارك.

- بُرهان في هدوء: يا مالك يا صديقي، لا أنكر فضل المستنصر، لكن الرجل له زلات، فما قولك في موقفه من النكبات التي يتعرض لها المسلمون خارج أسوار بغداد.

- مالك: أتقصد ما تعرض له الخوارزميون من إذلال على يد جند التتار؟

- بُرهان: إذلال فقط، لقد استأصلت شأفتهم من على وجه الأرض وقُتل ملكهم علاء الدين وشُرِّدَ ابنه جلال الدين، وأصبحت الدولة الخوارزمية المُترامية الأطراف أطلال خربة.

- مالك: وما كنت تريد من خليفتنا أن يفعل حيال ذلك الصراع، هي حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، فهي حرب بين اثنين من أعدائنا، وقد غنمنا إذ تصارعا بغض النظر عن نتيجة هذا الصراع.

- بُرهان: اختلف معك فيما تقول، فنحن والخوارزميون أبناء جلدة واحدة، وكان حري بنا أن ندعمهم ضد التتار وقد طلبوا الدعم، فصحيح أن الدولة الخوارزمية طالما ناصبت دار الخلافة العداء لكن أمام الأخطار الخارجية كان الأولى لنا أن نتحد.

- مالك متعجباً: انتحد مع الخوارزميين الذين طالما ناصبونا العداء وتحدوا سلطان الخلافة، وما يدرينا أننا إن عاوناهم انقلبوا علينا مرة أخرى من بعدما تقوى شوكتهم بانتصارهم على التتار؟

- بُرهان: نحن وهم.... تلك هي المشكلة التي خلقها الحُكام ليعضدوا لحكمهم.

- مالك: ما قصدك؟

- بُرهان: أقصد أننا كرعايا للدولة الإسلامية في بغداد ليست لنا عداوات مع رعايا الدولة الخوارزمية، لكن المشكلة والصراع كامن بين المُستنصر بالله وعلاء الدين خوارزم، وقد انتقلت لنا تبعات ذلك الصراع... ونحن وهم كرعايا ليست لنا مصلحة في هذه العداوة، بل بالعكس فمصلحتنا هي أن نتحد ونصبح كلنا أبناء هذا الإقليم الكبير.

- مالك: ألم نكن كلنا أبناء هذا الإقليم الكبير حتى شقَّ جلال الدين خوارزم شاه عصا الطاعة وتكبر على خليفة المسلمين وود لو استأثر بالأمر، فما كان خليفة المسلمين ليفعل غير أن يناصب هذا الباغي العداء.

حاول فوّاز التدخل ليخفف من حدة الحديث...

- يا مالك قد يكون المُتسبب في انفصال الخوارزميين عن الخلافة أخطاء أساسها بيت الخلافة نفسه، فقد يُلام المتبوع على انفلات تابعه منه، فقد

لا يُقدم له الرعاية الكافية ...وقد يكون المتبوع غير متمتع بالفطنة والكياسة اللازمة كي يسوس تابعه.

- مالك: أأصبح خليفة المسلمين هو المسئول عن الإنشقاقات الحادثة من حوله الآن، يا لكما من خبيثين تقلبون الحقائق فقط لتبرهنا على وجهة نظركما.

اعتدل بُرهان في مقعده بعد ما كان متكئاً وأخذ نفساً عميقاً:

- الأمر غير ذلك، فالحقيقة دائماً تحتاج إلى جهد كي تظهر، والشقاق والخطأ عادة ما يتسبب فيه جملة من الأفعال يدلو فيها كل بدلوه ، فالخلافة العباسية خاطئة والدولة الخوارزمية خاطئة ونحن الضحايا في النهاية، إنها شهوة المُلك يا صديقي.

استمر مالك في مجادلة بُرهان لفترة وفوّاز يتدخل بين الحين والحين لتهدئة الأمر بين صديقه وأخاه أو للتعليق على أمر من الأمور أو لتوضيح مسألة، ومر الوقت على الأصدقاء على حالهم يتحدثون حتى حان وقت العودة، فباكر... سوف يذهب الجميع إلى المدرسة المستنصرية.

****

دلف مالك بقوامه الممشوق داخل المدرسة المستنصرية شاعراً بالفخر والرضاء التام عن الحياة والموجودات، فقد كان دارساً للفقه في تلك المدرسة العريقة، فأخذ ينظر إلى مباني مدرسته مُتعجباً بها وكأنما يلفظ ما علق بذهنه من مناقشات الأمس مع فوّاز وبُرهان من خلال معاينته لجمال الواقع الذي يعيش فيه.

لّمَّ هم ساخطون على المُستنصر خليفة المسلمين؟!، أفلا ينظرون إلى تلك التُحفة المعمارية العلمية التي أنشأها بعد ثلاث سنوات فقط من خلافته؟ ألم يجمع في مكتبة تلك المدرسة العظيمة كل ما هو نفيس من الكتب حتى وصلت أعداد المجلدات داخل المكتبة إلى ما ينيف على الـ 450 الف مجلد؟ أفلا ينظرون إلى ساعة المدرسة العجيبة وما تشملة من إعجازات علمية شاهدة على التطور العلمي الذي وصل إليه العرب في عصر هذا الخليفة العظيم!

صعد مالك الدَرَج ليصل إلى الطابق الثاني من المدرسة ليستقرَ في قاعة درسه، ورغم أن المدرسة كانت تُدَرِسَ الفقه على المذاهبِ الأربعة فقد اختار مالك دراسته على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، فقد أحب المذهب الحنبلي لتمسكه بالنصوص واعلائه قيمة النص على الرأي، فالدين عند مالك بسيط

واضح... فهو عبارة عن أوامر من الله يُخاطب بها العباد وهم مطالبون بتنفيذها، فإن هو نفذ ما هو صادر إليه من أوامر على الوجه الأكمل نجا من النار، وإن هو فرَّط وتسفسط خاب وهلك.

دخل أحمد صديق مالك عليه قاعة الدرس وكان الأول يقضم من شطيرة في يده بغير شهية حقيقية، كان أحمد منتمياً إلى الطائفة الشيعية دارساً للفلسفة في المدرسة المستنصرية، وكان مالك يميل إلى مُصاحبته والحديث معه...

- كيف حالك اليوم يا أحمد؟.

- بخير وأنت؟.

- في خير حال والحمد لله رب العالمين، وهل في الإمكان أفضل مما هو كائن، قالها مالك بانفعال زائد وكأنه يؤكد لنفسه تحذلق وزيف حديث بُرهان وفوّاز ليلة أمس.

- رضي الله عنك وأرضاك، قليلون من هم مثلك سعداء بما لديهم راضين بما آتهم الله.

شجع ذلك الإطراء مالك أن يُفاتحه فيما خالط نفسه من شكوك مبعثها حديث الأمس الكئيب، فأكمل حديثه ضاحكاً في ثقة زائفة:

- أو تدري قد كنت ليلة أمس جالساً مع بُرهان وفوّاز في الخان.

- فوّاز هذا الفتى الأبيض قوي البنية الذي يدرس الطب في الطابق الأول.

- نعم هو، وكان صحبته أخاه بُرهان دارس الرياضيات، الذي ظل يتحدث في يأس مقيت عن أحوال البلاد والعباد، وهو ناقم على سياسة الخليفة المُستنصر غير راضٍ عن موقفه من الدولة الخوارزمية وكأنه كان يريد المستنصر أن يقاتلً التتار مع الخوارزميين، بل وأنه يُلقي بتبعة انشقاق الخوارزميون على خلفاء بنو عباس انفسهم.

- أصدقك القول... قد أحببت أن يتحد أهل بغداد والخوارزميين في كفاحهم ضد القوى التتارية الغاشمة، لكن لا يمكن لوم خلفاء بنو عباس على تلك الفرقة.

- لا فض الله فاك يا أخي، فالخليفة في الفُرقةِ غير مُلام.

وافق مالك على بعض كلام أحمد متجاهلاً بعض كلامه الآخر وهو يتوق لخلق أرضية مشتركة بينه وبين مُحدِّثه الجديد لعله يساعده على تجديد الثقة في رضاءه عن خليفته ودولته.

- لكني أحب أن التقي أصدقائك بُرهان وفوّاز إن لم يسؤهم ذلك، فقد شعرت بلمسة إخلاص فيما يتداولنه مع من أمر.

تجدد القلق في نفس مالك، وشعر أن حديث الأمس المشئوم يتجدد فقال بفتور:

- بالطبع أظنهم سيرحبون، فنحن أبناء مدرسة واحدة.

****

كان الأخوينِ فوّاز وبُرهان جالسين في الخان في ركنهما المعتاد في انتظار مالك، وبعد مرور بعض الوقت ظهر صديقهما في الأفق.

- هاهو مالك قادم من بعيد.

- يبدو أن أحدهم صحبته.

اقترب مالك وأحمد أكثر حتى دنيا من المائدة التي يجلس عليها الأخوان.

- مالك مُحيياً: السلام عليكم ورحمة الله.

رد الأخوين السلام مُتسائلين بأعينهم عن كنه الضيف الجديد.

- هذا أحمد صديقي، يَدرسُ الفلسفة معيتنا في المدرسة المُستنصرية.

حياه فوّاز باحترام وإن بدا بُرهان أقل تحمساً للضيف الجديد، لكنه حياه بفتور ودعاهم للجلوس وطفق الجميع يتحدثون في شان المدرسة المستنصرية وسير الدراسة بها، وما مضى الكثير من الوقت حتى شرع أحمد في فتح المناقشة التي أتى من أجلها:

- أخبرني مالك أنكم ترون لزوم مُشاركة بني العباس الخوارزميون في قتالهم ضد المغول والتتار.

رمق بُرهان مالك بنظرة نارية يملؤها الغيظ، وكأنه يلومه على تسرعه وتحدثه مع صديقه الجديد بما كان في الأمس، التقط أحمد بفطنة الموقف وود لو خفف من التوتر واستمالة الأخوين إليه فقال:

- أكثر ما جذبني في كلامك يا بُرهان اعتزازك بالوحدة بين المسلمين ورغبتك في أن يقاتل الجميع يداً واحدة ضد المُعتدي.

- وهل ينكر عاقل ما أقول!!

قالها بُرهان بعصبية زائدة...

- أحمد بهدوء: لا أخالفك الرأي، لكن ما السبيل إلى الوحدة وقد فسخ الخوارزيون أواسرها عندما استقلوا بأمرهم عن الخلافة العباسية، بل وأنهم لو ملكوا القدرة والقوة لأخضعوا الخليفة لسلطانهم.

أحس بُرهان بأن أحمد يتفاعل مع أفكاره ولا يقصد التجسس عليه، فقد شعر الإخلاص في كلامه، وسعد أن أحدهم يتناول أفكاره بالتحليل ولم يرفضها جملة فطرد نبرة التعالي من صوته:

- كما قلت لمالك أمس... الوحدة والمُصالحة تكون دائماً مسئولية مشتركة بين المُتخاصمين، فحتى وإن نأى الخوارزميون بجانبهم فقد اتاح الله الفرصة للخليفة المُستنصر أن يعيد أواسر الود إن هو استجاب لطلب نجدتهم وواجه معهم التتار.

- أحمد: وما قولك إن أنكر ملوك خوارزم فضل الخليفة وعاودوا قتاله من بعد تغلبهم على المغول والتتار.

يتدخل فوّاز في الحديث هذه المرة...

- لذلك يقول أخي أن المصالحة هي مسئولية مُشتركة، فرغم أن الخطأ ثابت في حق الخوارزميين لكن الله هو القائل " وادفع بالتي هي أحسن" فوجب على الخليفة الإحسان إلى أخوة الأمس لمواجهة الخطر المشترك، وعلى الخوارزميين أن يتحملوا نصيبهم من المسئولية المشتركة للمصالحة ويتقبلوا مبادرة الخليفة قبول حسن ... يرأبوا به الصدع.

- مالك: ألا يكفي الخليفة المُستنصر أنه أرسل أخاه الخفاجى لقتال التتار وأنه انتصر عليهم.

- فوّاز: بلى قاتلهم، لكن إن قاتلهم بجانب آل خوارزم كان سيتغير مردود القتال تماماً، إذاً لاستثمر هذا القتال في وحدة الصف وإصلاح ذات البين.

- أحمد: كلام منطقي لا أملك سوى أن أوافقك عليه.

نظر مالك إلى أحمد مبهوتاً، فقد أتى به إلى هذه الجلسة عسى أن يُعاضده في مواجهة الأخوين، وما ظن أنه سيستسلم لأفكارهما بهذه السهولة، لكن الحق يقال.... لم يكن مالكاً يوماً عنيداً مُنغلق الفكر، فقد كان ينقد أفكاره من وقت لآخر ويراجع توجهاته بين الحين والحين، لكن غرابة الأفكار التي يتداولها الأخوين دفعته للتمرد عليها في بادئ الأمر، لكنها اخترقته ونفذت إليه بلا شك منذ ليلة أمس، ومالك معذور إن حصَّنَ نفسه ضد تلك الأفكار، فهي المرة الأولى منذ مولدة يسمع فيها أنه يمكن بل ويجب التصالح مع

الخوارزميون، فكل من حوله ينظرون إليهم أنهم عُصاة فُجَّار يستحقون القتل، لكن المنطق يفرض نفسه في النهاية.

ورغم أن دراسة مالك الفقهية كانت تزيد من أصوليته واتجاهاته المحافظة، لكن في النهاية انتصر صوت العقل داخله وقرر أن يفهمَ المزيد.

- مالك: لكن ما جدوى هذا الحديث الآن وقد سارت الدولة الخوارزمية في خبر كان وقد مات علاء الدين وشَرِّدَ بعده ابنه جلال الدين أثناء مواجهتهم مع أولئك الهمج.

اعتدل بُرهان في مجلسه ورشف رشفة أخرى من مشروبه:

- الجدوى تكمن في معرفة أهمية مبدأ الوحدة وعدم التشرذم والتفرق، الم يقل الله تعالى "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" وقال كذلك "وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم "

زاد اقتناع مالك بالأمر كله فختم حديث بُرهان قائلاً: صدق الله العظيم.

أحس مالك أن الثوابت الكامنة في ذهنه طوال سنوات مضت تتبدل ويسكن محلها فرضيات أخرى، لم ترقى بعد لتكون ثوابت، لكنها فرضيات مُترابطة متينة لا تقدم إجابات جاهزة لكل التساؤلات لكنها بلا شك تنتقل بالعقل إلى آفاق أرحب وأوسع.

****

قرع بُرهان باب منزله فلم يلقى استجابه من الداخل، فزاد من شدة ضرباته على استحياء حتى تسمعهُ زوجته كرمة في الداخل، فعساها أن تكون نامت... خاصة وهي لا تستطيع الصمود من بعد صلاة العشاء إلا النذر اليسير.

ندم بُرهان على تأخره في الخان مع أصدقاءه، فما أراد إزعاج زوجته وإيقاظها من نومها، ومع أنها كانت قد وعدته الانتظار... فمن الواضح أنها حنثت بالوعدِ، ود لو أن ثمة طريقة يستطيع بها الولوج إلى الداخل بغير إيقاظها، لكن ما باليد حيلة... استمر بقرع باب منزله على نحو تصاعدي حتى سمع حفيف أقدام زوجته تقترب من الباب... وأخيراً سمع صوت المزلاج وهو ينزاح عن الضلفة الخشبية إيذاناً له بالدخول.

- خَجلٌ منكِ يا كرمة، يبدو أني بالغَت في التأخيرِ مع الأصدقاء.

قالها وهو يحتضن جسد زوجته الدافئ من أثر الفراش، ردت عليه مُهمهمة من أثر النوم:

- لا عليك أنا فقط لم أستطع انتظارك فقد غلبني الملل فنمت.

حرر بُرهان جسد زوجته من بين زراعيه على كراهة منه، لكنه منى نفسه أن يغير ملابسه ويحتضنها في الفراش حتى يخلدَ إلى النوم، وسبقت كرمة زوجها إلى غرفة نومهما وهرعت إلى الفراش فتدثرت وأخذت تنظر إليه بعينٍ يغشاها الوسن وقالت ناعسة:

- كيف كان لقاءك مع أخيك ومالك.

- كانت جلسة ممتعة تجاذبنا فيها الحديث عن شئون السلطان والمُلك.

- أنت دائماً تتحدث عن شئون السياسة والسلطان والملك، وأنا على كراهة من ذلك، فعسى الحديث أن يبلغ الخفاجى أو الخليفة فينقم على أبي.

- أنا فقط أعبر عن رأيي، ولا أهجو الخليفة ولا رجاله، فقط أبين أوجه العوار في السياسات العامة للدولة.

طار النوم من أعين كرمة وقد انفعلت من جراء حديثها الليلي مع زوجها وقالت:

- الكل راضٍ عن أداء الخليفة ويشهد بصلاحه وصلاح رجاله، أنت فقط من يرى العوارً في كل ما حولك، انقطاعك على القراءة أفسد عقلك يا زوجي العزيز.

قام بُرهان بتعليق جلبابه على المشجب وشرع في ارتداء منامته، وقال لزوجته بغير أن ينظر إليها:

- أنتِ الوحيدة التي ترى في العلم والقراءة والمعرفة فساد للعقل.

- وكيف لا أرى ذلك وأنا أعاين أثرها بنفسي! فما شهدت أحد يتحدث بمثل هذه السخافات غيرك.

قال بُرهان وقد أتم ارتداء منامته وهو يدس نفسه في الفراش بجانبها:

- لأنني كما قلت أنتِ... أنقطع على القراءة فأرى ما لا يرون.

قالت كرمة وقد علمت عناد زوجها:

- فقط أخاف أن يبلغ الأمر أبي فينقم عليك، وأنت تعلم مدى حبه واحترامه لك.

- لا تخشي شيئاً، فإن وصل الأمر والدك فلن أعدم الحجة أن أناقشه في صحة مآخذي على الخليفة، عسى أن يكون لأباك بعض التأثير عليه فيكون

لي نصيب من الثواب إن صلح حال الأمة بما أقول.

قالت زوجته عن غير اقتناع:

- كيف تقنع أبي أو أي شخصٍ بما تقول وقد فشلت في اقناع زوجتك؟

- أتى مالك اليوم إلى مجلسنا صحبة صديق جديد، وقد تحدث إليه ببعض آرائي في شأن التتار وضرورة مواجهتهم كتفاً إلى كتف مع الخوارزميين.

اعتدلت كرمة في الفراش من أثر الانفعال:

- مالك هذا المتهور... هذا الحديث ليس من المفترض أن يتم تداوله مع الغرباء.

- حنانيك يا كرمة، فقد اقتنع أحمد بصحة ما أقول وبات مدافعاً عن آرائي.

- وما يدريك أن هذا الأحمد يظهر لك الموافقة ويسِر لك الرفض، وما يدريك أن يذهب بما تقول إلى أحد خواص الخليفة فيشي بأمرك ويقبض الثمن.

- بُرهان مفكراً: لا أعتقد، فقد لمست الصدق من حديثه، فقد كانت داخله رغبة صادقة لمعرفة الحقيقة.

كرمة وهي تحتضن زوجها:

- أريدك أن تكون أكثر حرصاً في التحدث مع الغرباء، فلا أريد أن يحدث السوء بينك وبين والدي أو أن يصل حديثك إلى السلطان فيأخذك بجريرته.

- أعدك بذلك... قالها بُرهان وهو يحمد الله أنه لم يقل لها أن أحمد شيعي المذهب حتى لا يزيد من قلقها عليه، وغطس في الفراش جوار زوجته وقد وضع رأسها على صدره ولف زراعه حولها وأغلق عينيه ليستسلم الإثنان لنومة هادئة عميقة.

قام المهدي من نومه مُعتل المزاج، فلم يستطع النوم الليلة الماضية، فكان يتقلب في فراشه وقد أخذت ضربات قلبه تعلو كلما تذكر جاره همام، فهمام جار جائر لا يرضى أن يوفيه حصته العادلة من الماء ليروي أرضه، فيأبى عليه إلا أن يأخذ فضلات الماء الباقية منه. حاول المهدي أكثر من مرة التفاهم مع همام لكنه لم يرضى بديلاً عن قسمته الجائرة ، وقد تسائل المهدي أكثر من مرة عن السبب الذي جعل همام أكثر تماسكاً في مواجهته فلم يجد لذلك تفسيراً إلا انتماء همام للأغلبية السنية، لكنه الآن غير قادر على تحمل المزيد من الظلم، فلسوف يتحرك ليدفع الظلم عن نفسه وليكن ما يكون.

وضعت زينب زوجة المهدي الإفطار على الطاولة حتى يتناول زوجها فطوره وشرعت تنادي على ابنها حسين...

- حسين هلمَّ قد جهّزت الإفطار

أعادت زينب النداء على ابنها فلم يرد عليها...

- هيا يا حسين فأباك يفطر الآن عسى ألا تؤخره كما هي عادتك دائماً.

نظرت زينب إلى زوجها وهو جالس يتناول إفطاره ساهماً بغير شهية حقيقية:

- ما بك يا مهدي؟

تسائلت زينب بنبرة عطوفه.

- لا شئ... مشاغل تخص الأرض والعمل.

- أمازال همام يُضيّقُ عليك في الماء اللازم لري الأرض؟.

- هو كذلك، لكني سأجد الحل قريباً، فليس من المعقول أن نظل مُجبرين على هذا الكم من الظلم.

- ألم تكتبُ شكوى إلى ديوان السلطان فلم يعرك أحد اهتماماً! هو قدرنا وعلينا احتماله.

لم يقتنع المهدي بحديث زوجته، فقد انتوى مواجهة همام اليوم عسى أن يتعاظم أمرهُما... فيصل إلى السلطان فينظر إلى المسألة بعين العدل، ولم يُرد المهدي أن يواصل النقاش مع زوجته فقام تاركاً إفطاره كما هو... لم ينقص منه إلا بضع لقيمات، فهو إن تحدث معها عما ينتويه من مواجهة... لأثنته عن عزمه.

- إلى أين... أنت لم تُكمل إفطارك، وحسين لازال يستعد ليصحبك إلى الأرض.

- اخبريه أن يلحق بي.

تحرك المهدي جهة أرضه وأخذت نبضات قلبه ترتفع مرة أخرى وهو يتخيل مواجهته مع همام، مُتقبلاً أن يصل الأمر بينهما إلى التراشق بالأيدي إن لزم الأمر، فلن يرضى اليوم عن حصته في الماء بديلاً.

وصل المهدي إلى أرضه في سرعة وتوجه مباشرة جهة الترعة التي تروي أرضه وأرض همام فحول الماء إلى أرضه ... عن طريق سد مجراها في أرض همام بالكُتل الطينية، آنذاك لم يكن همام قد وصل إلى أرضه بعد.

أخذ المهدي يُفلح أرضه ناظراً بطرف عينيه إلى موضع جريان الماء مُتربصاً أن يأتي همام ويحولها عنه مرة أخرى.

مرت الدقائق طويلة مملة مملؤة بالتحفز والتوتر حتى ظهر همام فجأة من وراء زراعاته الطويلة وهو يتعجب عن سبب عدم جريان الماء في أرضه، وعندما عاين ما فعله المهدي لم يصدقه، فكيف يجرؤ هذا المهين على مخاصمته، كيف جسر أن يحول عنه الماء بهذه الفظاظة، وعندما استوعب الموقف أخذ يزيل الكتل الطينية التي تقف حجر عثرة أمام جريان الماء في أرضه في سرعة وعصبية وهو يتوعد فِعلة جاره بالثبور.

تحرك المهدي إلى همام في سرعة وغضب، وكان المهدي يعلم أنه أصبى وأقوى من غريمه، وأن همام لن يستطيع مواجهته بدنياً، فقد كان الأخير شديد النحافة بارز العظم معتل الصحة قد بدت على جسده أخاديد عميقة من أثر الجلد المتكرمش من فعل الزمن، أقبل المهدي على عدوه وقام بدفعه دفعة خفيفة حتى يتوقف عن إزالة الكتل الطينية، نظر إليه همام نظرة يتطاير منها الشرر وصرخ:

- أجننت أنت! كيف تجرؤ على تحويل الماء عن أرضي قبل أن أسمح أنا لك بهذا.

- رد المهدي في صوت كالهزيم: الماء ليس حكراً عليك، فلتروي ساعة وأروي الأخرى، وإلا فلن تمر قطرة من الماء في أرضك ثانية.

- قد جننت بالفعل...

قالها همام وهو ينظر إلى المهدي باستغراب لوهلة، ثم يتحول عنه ليفتح الطريق أمام الماء ليروي أرضه.

في هذه المرة قام المهدي بدفع همام بقوة أكبر فوقع الأخير على ظهره، فطار المهدي ليجثم فوق صدره ويشلُ حركته تماماً، اختنقت العبارات في حلق همام والمهدي ضاغطاً على رقبته:

- ألا تستكين ... اكتفيت منك ومن ظلمك، لن اتركك تتحكم في مصائرنا بعد الآن لست أفضل مني في شئ حتى تترك لي فضلات مائك، ولئن لم تنته لــ.....

فجأة تآوه المهدي بألم شديد وجحظت عيناه، فسكت همام ناظراً إليه باستغراب وقد جمدت حركته تماماً وانساب سيل بطئ لزج من الدم من فم المهدي ليلوث صدر وملابس همام، وفي الخلف كان يقف سُفيان ابن همام ناظراً إلى الشوكة التي غرسها في ظهر غريم أبيه مُتأملاً الدماء المنفجرة من تحت براثنها[26] منتظراً حركة المهدي أن تخمد.

لم يستطع المهدي أن ينظر للخلف ليودع قاتله، فقد سقط إلى الأمام جاثماً على صدر غريمه، عندها قام سفيان بإزاحة جثته باحتقار من فوق جسد أبيه وساعده على النهوض بغير أن ينظر حتى إلى الجسد الذي سلبه الحياه.

في الخلف وعلى بُعد عشرات الأمتار كان يقف حسين ابن المهدي مُمسكاً في يده صرة بداخلها إفطاره وإفطار أباه الذي لم يكمله، فقُدرَ له أن يشهد مصرع أبيه بأم عينيه، أخذ حسين يرتجف من الخوف والغضب والحزن الذي اعتصر قلبه وقد انفلت طرف من صرة الطعام من يده ليرتطم الخبز والغموس بالأرض وهو لا يحرك ساكناً.

****

سقوط آل خوارزم

جبال كردستان 628هـ

كان جلال الدين خوارزم هائماً على وجهه في جبال كردستان[27] من بعد ما ولى الأدبار في آخر مواجهاته مع الجيش التتاري، ولم يكتفي القدر بهذا... بل لفظه وحيداً هارباً ذليلاً في تلك المنطقة الجدباء من بعد ما تخلى عنه جميع أنصاره، ولا عجب في ذلك... فهم لا يرجون خير منه وهو على حاله الذي آل إليه، يُعاقر الخمر ويهذي بالكلام ويُفرط في السباب ويغلظ على كل من حوله، بغير أن يدرك أنه ما عاد يملك السلطان الذي يُخضعهم به، وبينما هو على تلك الحالة المزرية صادف مرور رجل كردي على مرمى بصره...

- أنت... أنت يا من تمشي هناك.

لم يستطع الرجل سماع صوته الواهن فاستمر في السير، فرفع جلال الدين صوته أعلى حتى يُسمَعْ.

- أيها الغافل، أنا هنا فلتأتي إلي.

سمع الرجل جلال الدين فرآه وتقدم نحوه، وعرف فيه آثار عز بائد فسأله عن شخصه:

- أنا جلال الدين خوارزم ملك ملوك الأرض وقاهر التتار بن علاء الدين خوارزم شاه.

يفتح الرجل عينية في دهشة وإجلال:

- أأنت؟!

يتقدم الرجل ليأخذ بيده ليسنده ليقف.

- نعم يا رجل أنا السلطان جلال الدين خوارزم بشحمه ولحمه، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، ما اسمك أيها الرجل الطيب.

- شيرفان يا مولاي.

- اعدك يا شيرفان لأن رجعت إلى بلادي سالماً واستقررت على عرشي لأريك من النعمة ما لم يرى أحد من العالمين.

استبشر شيرفان خيراً بما سمع فشدَّدَ قبضته تحت إبط السلطان ليسنده بقوة أكبر:

- دام عزك مولاي الملك، حقاً انه ليوم سعدي.

تأوه جلال الدين من أثر جرح في ظهره فأبعد شيرفان يده عن موضع الإصابة وسار أكثر حرصاً وهو يتقدم به وسط الدروب الوعرة.

كان جلال الدين جريحاً من أثر معركته الأخيره مع جند التتار الذين قادهم القائد المحنك شورمقان على رأس ثلاثون ألف مقاتل. وما كان ليُهزم لولا أن تخلى عنه أكبر قواده سيف الدين بغراق في غزنة من بعد ما انتصروا على التتار مرتين في السابق، فلم يرضى بغراق عن قسمة الغنائم بينه وبين ملك خان... أمير مدينة هراه فتحاربا.

أراد شيرفان أن يتملق الأمير السلطان فقال:

- قد ملأ الفخر والأمل جميع المسلمين بعد انتصار جلالتك على التتار في البلق ومن بعدها في كابول.

- تحارب قواد جيشي فيما بينهما فذهبت ريحهم وأصبحنا لقمة صائغة لأولئك الهمج البرابرة.

- وهل يعقل أن يتحارب الإخوة وهم يواجهان معاً خطر محدق.

- هو ما حدث يا شيرفان فلم أقوى على مواجهة أجوطاي وحدي في غزنة، وقد تخلى عني الجميع... حتى الصيادين الذين لجأت إليهم ليُأمِّنوا عملية الانسحاب التي خطت لها تخلوا عني وهربوا لما علموا بمقدم جند أجوطاي أجحمه الله.

وصل الرجلين لأول الطريق الممهد وفكر شيرفان في استحضار دواب حتى يستطيع نقل الملك المُثخن بالجراح إلى منزله، فمع أن منزله قريب فلن يستطع الوصول إليه مترجلاً وصحبتهُ هذا الحمل الثقيل، وعندما وصلا الرجلين إلى قارعة الطريق فكر شيرفان في إخفاء جلال الدين حتى لا يعثر أحدهم على كنزه الثمين.

- أجلس في هذا المتكأ يا مولاي عساي أن أتيك بجواد ينقل جلالتك إلى منزلي المتواضع حتى نستجمع أفكارنا ونقف على ما يجب عمله.

لم يَرُد جلال الدين على الكردي من شدة الاحباط والتعب، فجلس مُستسلماً حيث أجلسه الكردي منتظراً أياه ليأتي بما وعد، انحنى الكردي لجلال الدين قائلاً:

- عذراً مولاي، لسوف أعود سريعاً.

أخذ جلال الدين يجتر ذكريات سنوات مضت... آإلى هذا المقام ينتهي الحال بالدولة الخوارزمية العظيمة، أتصرف أحمق من أباه أدى إلى كل تلك المغبات التي انتهوا إليها، أكان جنكيز خان على هذا القدر من القوة بحيث أزلهم وأسر نساؤهم، ما كان هذا ليحدث لولا خيانة الكلب سيف الدين بغراق وتلهفه على الغنائم، أما كان لهذا الطامع أن يصبر حتى يستقر الأمر لهم فيأخذ ما شاء من الأسلاب والمغانم، فلو هُزِمَ التتار لدانت لهم جميع الممالك ولوجدوا فيها ما شائوا من كنوز وغنائم ونساء، وكان الأمل لازال قائماً في أن يرجع بغراق عن ما هو فيه من عزة وشقاق لولا قتل أخيه في المعارك الطاحنة التي تسبب هو فيها.

- هيا بنا يا مولاي فقد اعددت لجلالتكم مركوب يوصلنا إلى بيتي المتواضع.

أفاقت صيحة الكردي جلال الدين من أفكاره فنظر إليه بآناة:

- ما معنى اسمك أيها الكردي الطيب.

- شيرفان يعني المُقاتل باللغة الكردية يا مولاي.

- أسم جميل لسوف يكون لك شأن جزاء ما بذلته معي من جهد.

قال شيرفان مطصنعاً الزهد:

- المجد لك يا مولاي، مكافئتي... أن تجلس فوق عرشك وتقاتل أولئك البرابرة الهمج وتحرز العزة للمُسلمين.

لم يسمح غرور السلطان له أن يتعرف على نبرة التصنع في صوت الكردي، فكل ما كان يعنيه بالفعل المُكافئة المادية التي سيحصل عليها من السلطان، لربما مَلَّكَه هذا الحانوت الذي يعمل به أو لربما أعطاه ما يكفي من مال ليشتري جميع تجارة سيده الذي يعمل عنده فيكون هو السيد الذي لا يُضام.

- أنت مسلم مُخلص يا شيرفان، ليت كان المُستنصر بالله ذلك الخليفة العباسي على قدر عقيدتك وإيمانك، فقد استنصرته بالأمس من بعد ما تخلى عني بغراق فلم يتحرك له ساكن، وحتى أمراء بني بكر خذلوني.

- أحقاً تقول يا مولاي، ألا يعلم المُستنصر الغافل أن التتار ما أن يفرغوا من دولتكم لا قدر الله، لسوف يقيمون وجهتهم جهة الخلافة العباسية نفسها.

- هو أحمق لا يرى الأمور إلا من وجهة نظره الضيقة، فهو يحسب أنه بمنعة عنهم، متغافلاً أن منعته تأتي مني ومن جيوشي الجرارة التي تواجه

هذا الخطر الداهم من قبل أن يأتيه.

- عافاك الله وحفظك يا مولاي، ها هو بيتي المتواضع يا مولاي، هو لا يليق بجلالتك لكنه مثوى مؤقت لحين رجوع جلالتكم إلى عرشك.

دخلا الرجلين البيت وساعد الكردي السلطان أن يتسطح الفراش وخفف من ملابسه وأعد له بعض من الطعام الذي كان اشتراه من السوق وهو يستجلب الدواب التي نقل بها السلطان إلى منزله، وضع شيرفان الطعام باحترام أمام السلطان:

- هو بعض الزاد المتواضع يا مولاي على أن آتيك بما تحب من السوق فلم اسأل جلالتك عما تفضل في الأكل في المرة الأولى على استعجالي أن آتيك بما يحملنا.

- لا لوم عليك أيها الكردي

قالها السلطان واتكأ يلتقم من الطعام، فسعل بقوة ولم يستطع تناول المزيد.

- حفظ الله مولاي من كل سوء.

قالها شيرفان مُداهناً للسلطان، وسكت هنية ثم قال في تردد:

- أحقاً خانك أخوك الغياث يا مولاي فلم يرضى بمحاربة التتار إلى جوارك.

صاغ شيرفان عبارته بحرص لكنه كان يستعجب في مكنون قلبه من أولئك الأقوام المتعلقون بالمُلك الطامحون إلى السلطة إلى الحد الذي يقتل فيه المرء أخيه.

سعل جلال الدين سعلة خفيفة وقد تذكر أخاه غياث الدين وكيف حاده في مُلكه من بعد ما انتصرا على التتار، فعندما أدار ظهره عن المغول وجد سيف أخيه مغروس فيه، وتذكر كيف استطاع بالمكيدةِ أن يتخلص من غياث الدين بمساعدة أحمد الناصر لدين الله الخليفة العباسي[28].

- جلال الدين: غبي خائن، قد نال جزاءه، أليس من مدى لشهوة السلطة لدى الجميع.

نظر إليه شيرفان نظرة احتقار قائلاً في نفسه: الأولى أن تنصح نفسك أيها الفار المهزوم المتكالب على الدنيا، لكنه طفق يقول:

نصر الله مولاي وأعزه على أعداؤه وجعله ذخراً للإسلام والمسلمين.
نظر إليه جلال الدين نظرة سقيمة مُتعالية يصبغ بها رضاه عما قال ويصمت.

- سأذهب الآن لأستأجر الحرس والدواب والزاد التي يمكن أن يستخدمها جلالتكم في ارتحاله إلى بلاده واستئنافه الجهاد ضد التتار.

- نعم إفعل.

- سمعاً وطاعة يا مولاي، لكني ما أظن أن الأمر سيقتصر على جهد هذا اليوم لكنه سيستغرقنا أيام تكون جلالتكم قد استعدت عافيتك فيها.

أومأ جلال الدين خوارزم برأسه موافقاً بغير أن يجيب وقد أدار رأسه إلى الجهة الأخرى من الحائط، فانحنى الإعرابي وانصرف لينجز ما نوى، استمر الوضع هكذا لساعات وجلال الدين ناظراً إلى الحائط بغير وعي وبغير تفكير حقيقي في شئ، وفجأة سمع طرقات على باب المنزل.

- السلام عليكم ....

لم يرد جلال الدين كارهاً أن يقطع أحدهم خلوته، خاصة وأن ذلك يضع عليه عبء جديد في تفسير سبب تواجده في منزل ذلك الكردي والتعريف بنفسه.

- أأنت بالداخل يا شيرفان؟

يتقلب جلال الدين في فراشه فيعتدل ويتحسب للقادم فيسمعه الطارق فيزيد شكه ويدخل ليجد جلال الدين جالساً على الفراش، فينظر إليه متفرساً.

- من أنت أيها الرجل، وما أدخلك في منزل شيرفان؟

أحس جلال الدين بالغدر في أعين الزائر الغريب فراوغ قائلاً:

- أحد جند جلال الدين خوارزم.

قالها جلال الدين عالماً أن الرجل سوف يعرف من ملابسه وجرحه أنه مقاتل مُتخارج عن ميدان المعركة قريباً.

- أيأوي شيرفان الجرذان في بيته؟

قالها الرجل باشمئزاز...

- إحفظ أدبك يا هذا أنت تتحدث مع قائد عالي المقام من قواد السلطان المُعظم جلال الدين خوارزم.

قالها جلال الدين بغضبٍ وصلف.

ضحك الرجل ضحكة تملؤها المرارة:

- أفرحٌ أنت بانتمائك إلى ذاك الكلب؟؟ لقد تسبب في مقتل أخي أثناء صراعه مع أخيه غياث الدين.

ظهر التوتر والخوف على وجه جلال الدين وطفق ينظر إلى الرجل بغير أن ينبس ببنت شفة، استشعر الرجل الخوف في ملامح جلال الدين، فاعتراه الشك فاقترب أكثر يعاين هيئة الجريح المتكئ ، نظر الرجل إلى الحذاء الموضوع على الأرض محصَّ ما يلبسه جلال الدين... فتراجع ذاهلاً:

- بل أنت جلال الدين خوارزم نفسه، أنت رأس الفتنة قاتل المسلمين.

أصاب الدوار جلال الدين من هول الموقف الذي يتعرض له الآن وقد أيقن النهاية، أتكون نهايته على يد ذلك المأفون المجهول في تلك البقعة الغريبة؟، يا لفرحة جنكيز في قبره لو يعلم بموته على تلك الحالة، يا لسعادة أجوطاي خليفة خاقان التتار العظيم عندما يعلم أنه نجح فيما فشل فيه أباه وأنه تسبب في موت جلال الدين بن المتكبر علاء الدين خوارزم تلك الميتة المُزرية، لكن لا ضير من الموت الآن وقد فقد كل ما يملك، فليدع هذا الكردي يتم عمله في صمت وتقبل ورضاء.

عمد الكردي الزائر إلى حربة يعرف مكانها في بيت شيرفان ورجع إلى جلال الدين ليجده على موضعه ذاهلاً مستسلماً إلى مصيره المحتوم، فنظر الكردي إلى عينيه مباشرة ودب الحربة في صدر جلال الدين خوارزم لينفذ سن الحربة من ظهره ويصطدم بقائم الفراش ويتدفق الدم من صدر جلال الدين بطيئاً بليداً ليلفظ أنفاسه الأخيرة شاخصاً ذاهلاً ينظر إلى وجه قاتله المتشفي وهو يحرك حربته في بطء ليُقطع من صدره وقلبه وأوصاله.

مل جلال الدين النظر في عين قاتله فأخذ ينظر إلى سقف الحجرة وقد تدفق خيط رفيع من الدم على جانب فمه لتفيض روحه إلى بارئها ليجزيها قدر ما عملت، وليسقط بفناءه الحجر الأخير للخوارزميين وليسقط ما تبقى من دولته في يد شورماقان القائد التتاري المغوار[29].

في هذه اللحظة استطاع المارد التتاري العملاق التهام أول الثيران، وسار التهام بقيتهم مسألة وقتٍ لا أكثر.

للجهاد طرق شتى...

بغداد 631هـ

انصرف فوّاز من غرفة أبيه مطأطأ الرأس، وكانت علامات الانفعال لازالت بادية على وجه سالم، وكانت ميسون وجِّلة تستند إلى باب غرفة زوجها وهي ترقب الموقف الكائن بينه وبين وابنها منذ البداية، لوت رأسها لتتأكد من انصراف ابنها وقالت لسالم:

- قد قسوت عليه هذه المرة كما لم تفعل من قبل.

كان سالم لايزال منفعلاً، فجاوب زوجته بحده وقد تهدج صوته:

- وما كنت تريدين مني غير ذلك يا ميسون! يريد ابنك ترك دراسة الطب والالتحاق بالجيش.

- لا أخالفك الرأي فيما تقول، لكن أراك قاسياً عليه وأنت تواجهه بخلاف ما يريد.

- هو موطن يستوجب الشدة، فما كان فوّاز ليستقيم بغيرها، فطالما أعددت بُرهان وفوّاز ليكونا من العلماء وليحدثا تأثيراً في بِركة هذه الأمة الراكدة.

- مسلك العلم أئمن له، لكنه لا يرضى عن الجهاد في سبيل الله بديلاً.

- وهل صدقتي ما يقوله أيتها الساذجة، ابنك يرى في نفسه الفارس المُقاتل، ولا يرضى عبائة العلماء لطموح في نفسه، ولا علاقة للأمر من قريب ولا بعيد بالدين ولا بالجهاد في سبيلِ الله، لو كنت لمست منه إخلاص حقيقي فيما يريده لكنت فكرت في إعانته لما يصبو إليه لكني أخشى أن يفنى الولد هباء بغير أن ينال الثواب، فواجبنا الآن أن نوجهه إلى الطريق المستقيم لترشيد جهوده وقطف ثمرته.

وما هي الثمرة التي ترجوها من فوّاز يا سالم؟ أخذ سالم يحملق في زوجته بغضبٍ وتعجب:

- وكأننا لم نعش معاً طوال تلك الأعوام!! ما أريد منه غير أن يكون ذا نفع لمجتمعه مخلصاً في ذلك النية لربه عسى أن يصيبنا من جراء ذلك رحمة

من التواب الرحيم، فرحمة الله هي الثمرة التي ارتجيها لي ولك من ولدنا فوّاز.

- لكنك دائماً كنت متفاهم مع ولديك، ولم تجبرهم على شئ قط.

- لكل مقام مقال يا أم بُرهان، والمقام الآن مقام شده، وليس كل ما يشاءه ابنائنا أستطيع موافقتهم عليه، فسوف يندم ذلك المتهور بعد حين وسوف يلومني شخصياً آنذاك إن وافقته على ما أراد، وكان سيتمنى لو منعته حينها يوم يعض على يديه حين لا ينفع الندم، أنا أحميه من نفسه يا ميسون.

قال سالم جملته الأخيرة رافعاً صوته بعض الشئ من أثر الانفعال.

أشفقت ميسون على سالم فقالت:

- أفهم ما تقول، لكن أخشى أن يثور فوّاز عليك ويعصى أوامرك ويفعل ما يريد رغماً عنك.

توتر سالم عندما واجهته زوجته بما هو كامن في نفسه ويقلقه، لكنه غالب إحساسه بالقلق ونظر إليها انظرة زائغة:

- استبعد ما تقولين فلدي رصيد كبير لدى ولدَّينا.

- يا رب...

زفرتها ميسون بقوة وكانها تحاول طرد ما يجول بداخلها من قلق مستغيثة بالله تعالى، ثم قامت من أمام زوجها بعد أن استأذنته لتتابع حال فوّاز عسى أن تقنعه أو تثنيه عمَّا يريد تاركة إياه يُحاول مُراجعة أفكاره والتحكم في غضبّة نفسه.

****

دخلت ميسون على ابنها فوّاز فوجدته يزرع غرفته ذهاباً وإياباً والعصبية بادية على ملامح وجهه، فجلست على فراشه وأخذت تتابعه بناظريها وهو لا يريد التوقف عن حركته الدأوبه....

- ميسون: فلتجلس يا فوّاز حتى استطيع التحدث إليك.

لا يستجيب فوّاز لرغبة والدته ويرفض الجلوس:

- لا أطيق ذلك، هاتي ما عندك، ما تريدين مني الآن؟

- أريد التحدث معك، فلتهدأ قليلاً.

- كيف أهدأ وأنا اتفاجئ بردة فعل زوجك عندما طلبت منه الجهاد في سبيل الله.

- لو تيقن أباك من صدق رغبتك لاستجاب لك فيما تريد.

- فوّاز في عصبية: وهل أصبح أبي إلهاً حتى يعرف حقيقة نوايا الناس.

- أنت لست من أحاد الناس، فأنت ابنه وهو أعلم الناس بسريرتك.

- ليس معنى أنه أبي أنه يعلم ما في نفسي.

سكتت ميسون مترددة أن تواجه ابنها بما يعتمل في رأسها، لكنها مالت إلى المواجهة الكاملة جزاء لما تلاقيه من ابنها من صلفٍ وعنادٍ.

- أليس للأمر علاقة بزواج سلمى من غيرك.

نظر فوّاز إلى أمه وهو لا يصدق ما تقوله، فلم يتوقع منها هذا القدر من المكاشفة في الحوار..

- هل انا صغير في نظرك أنت وزوجك إلى هذا الحد؟ هل اختزلتما السبب في جميع ما انتويت في غضبتي أن تزوجت سلمى؟؟؟

- قد يكون لحزنك عليها سبب في رغبتك الالتحاق بالجيش.

فوّاز وقد زاد غضبه كون أمه لم تتراجع عندما أعطاها الفرصة:

- ليس لسلمى علاقة بالأمر، فقط ليس لدي ما يدعوني للمكوث بجانبك وجانب زوجك بعد كل تلك السنوات.

- اهدأ يا فوّاز، أنا لا أُسَفِه منك، ولم أقل أن السبب الوحيد في رغبتك أن تهجرنا هي سلمى، لكنه إحدى الأسباب، وأنت لم تعدم أسباب المكوث بعد... فلديك دراستك في المدرسة المستنصرية ولديك أصدقائك وأباك ... وأنا.

- قد علمتي عدم رغبتي في الدراسة، وميلي إلى القتال والمنازلة، فلكلٍ مجاله الذي يستطيع خدمة الدين فيه، ألا يكفي أبي ابنه بُرهان الذي يحب العلم والدراسة، هم على وفاق تام وقد زوَّجه وضمن بقاءه بجانبه، فلمَّ لا يتركني أفعل ما أريد!!

- قد عرضنا عليك الزواج كثيراً لكنك كنت تأبى في كل مرة، وكأن من خلق سلمى لم يخلق غيرها.

- سلمى سلمى سلمى، أليس في بغداد أحد غير سلمى وسيرة سلمى.

- كفانا من سيرتها، لكن أمكث معنا وداوم على دراستك، لا تُحسِّرْ قلوبنا عليك.

- كفاكي يا أمي، أريد أن أمكث وحدي الآن.

- لكن عدني ألا تقوم بشئ مجنون، ولنتحدث في وقتٍ لاحق.

- فوّاز في ضيق: أووووه، فلتمكثي هنا طالما شئتي، أنا من سيغادر هذا السجن.

قالها فوّاز وترك المنزل غاضباً وقد صفع الباب خلفه بعنف، بعد مرور بعض الوقت أخذ يفكر ثانية فيما اعتزمه من أمر وما مر به من أحداث. لمَّ يَدسون اسم سلمى في جميع افتراضاتهم، لم يُفسرون بها جميع ما يعتريه من أمور ويعتقدون أنها السبب في جميع ما انتوى، قد سار يكره اسمها ويكره سماع حروفه، فسماع اسمها يؤلمه ويجلعه يفكر فيما خسر.

كان فوّاز يعلم أنه لن يحب أنثى غيرها فهي حب طفولته وحب حياته كلها، لكن ما باله لا يستطيع نسيانها، ألم تتركه لتتزوج غيره وهي تعلم كم يُحبُها، ألم تفضل عليه غيره، لكن مهلاً... زواج سلمى لم يكن بيدها، فقد ضغط عليها أباها لتتزوج ممن اختاره هو، وهي لم تكن تستطيع الرفض، لم تكن تملك غير الإذعان، لكنها أيضاً كانت تملك الرفض، كانت تملك أن تقنع أباها أن يتمهل حتى يستطيع هو التقدم إليها والزواج منها، فهي لم تريده بالقدر الذي أرادها به، فقط لو كانت أظهرت بعض المقاومة.... بل أن المقربين منها قد نقلوا له أنها سعيدة بزيجتها من ذلك التاجر الغني الوسيم، يبدو أن الأمور بالنسبة لها كانت تسير على ما يوافق إرادتها، فلمَّ يحبها بعد كل ما بدر منها؟!.

قد كان استراح من نير حبها، أو هكذا ظنَّ... حتى رآها ليلة البارحة صحبة خادمتها في السوق، وقد رأته في مكمنة المعهود فتنكرت له، وما آلمه أكثر أنه ما رأى تأسف بادٍ في ملامحها، لم يرى في عينيها غير الرضاء التام عن حياتها الجديدة وزوجها الثري، وقتها تمنى لو كان حظه مثل حظ أخيه بُرهان فيتزوج ممن أحب.

لكنه الآن غير عابئ بالحياة، ليس لديه ما يخاف عليه فيها، فلا لذة لشئٍ يفعله، لا الاصدقاء ولا النساء ولا لحظات اللهو والسمر، فليفعل بحياته شيئاً نافعاً، وهل أنفع من أن يوهب العبد رقبته لله تعالى!! فلِمَّ يأبى عليه أباه أن يُجيبه إلى ما يريد، ألم يتشدق أباه دائماً بأن الجهاد في سبيل الله واجب على الجميع وأن التولي يوم الزحف كبيرة، ألم يقل لهم أن هذه الحياة الدنيا متاع وأن الآخرة هي دار القرار!.

يبدو أن أباه أحد أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، وا أسفاه على من ظنه مثله الأعلى وقدوته، لكن التفكير في أباه ليس مقامه الآن، فيجب أن يُدبر أمره للالتحاق بأحد الجيوش التي تجابه الصليبيين أعداء الدين، عساه أن يجد في القتال السلوى التي تلهيه عن التفكير في سلمى أو أن يلقى الشهادة فيستريح من كبد هذه الحياة، ويلقى سلمى الأخرى التي أعدها الله له في الدار الآخرة، فقط عليه في الغدِ أن يتحدث إلى أخاه بُرهان فيفصح له عن رغبته ليساعده في اقناع والده أن ينضم إلى الجيش.

- لا تغضب من حديثي يا فوّاز وإنما أباك على حق.

قالها بُرهان لأخيه وهو يتفرس ملامحه عن كثب ليدرك أثر الكلمات عليه، ومدى استجابته لما يقال...

- كيف يقف أبي حجر عثرة بيني وبين الجهاد في سبيل الله ويكون معه الحق! لو كان يؤمن بالفعل بتلك المبادئ التي طالما علمنا إياها، ما كان ليمنعني اليوم.

- صه يا فوّاز، طالما كان أباك ممن يصدقون القول بالفعل فلم يشذ يوماً عمَّا آمن به من مبادئ.

- بل هو غير ذلك، هو ممن يقولون ما لا يفعلون.

- تأدب يا فوّاز هو أبانا على ما عهدناه فيه من استقامة وإخلاص النية.

خفض بُرهان صوته بعض الشئ ثم قال بشئ من الحنو:

- ألم تفكر لساعة أنك المخطئ؟

- لا يا أخي... فالموقف واضح، أنا أريد الجهاد وهو ليس على القدر الكافي من الإيمان ليخاطر بابنه في صفوف جيوش المسلمين.

- صمت بُرهان برهة وقال بشئ من الصبر: الجهاد في سبيل الله مُصطلح غاية العموم ويشمل عدد لا حصر له من الأفعال، فمجاهدة النفس وإمساكها عن المعاصي جهاد في سبيل الله، وطلب العلم ونشره جهاد في سبيل الله، والعمل في كافة المجالات بغية تقدم المجتمع الإسلامي الذي نحيا فيه وله... جهاد في سبيل الله، سكت بُرهان برهة أخرى وقال بلهجة ذات مغزى، وبر الوالدين جهاد في سبيل الله.

- وماذا عن قتال المشركين ومنعهم أن يجيسوا خلال الديار، أليس في ذلك جهاد في سبيل الله؟!

- لا أنكر، لكن قتال المشركين هو إحدى وسائل الجهاد في سبيل الله والتي لا يمكن حصرها لتعددها وتشعبها، فلم اخترت أنت هذه الوسيلة

لتجاهد بها في سبيل الله؟

- أنت تحب العلم والدراسة وأنا أحب السيف والنشاب وركوب الخيل والأخطار، فكلاً منا يجاهد في مجاله الذي حباه به الله.

- اتفق معك ... لكن ماذا عن النية واخلاصها لله تعالى فأنا إن تعلّمت وعلّمت ليقال عني عالم فقد خسرت، وأنت إن قاتلت يئساً من الحياة فقُتلت فقد خسرت الدنيا والآخرة.

- فوّاز في غضب: ومن قال لك اني سوف أقاتل يئساً من الحياة؟ أدخلت في ضميري لتعرف سريرة نفسي أنت وأباك؟

دخلت كرمة زوجة بُرهان عليهما في خلوتهما وبين يديها صحفة عليها فاكهة وشراب، فسكت الأخوان بغتة بدخولها عليهما لتدرك بفطنتها أنهما لم ينتبها إلى قرعها على الباب:

- اعتذر إن بدا لكما أني اقتحمت عليكما خلوتكما، لكني قرعت الباب مدة وأنتم لا تسمعون.

تحاشى فوّاز النظر إليها وقد عقد حاجبيه من شدة نقاشه مع أخيه، أما بُرهان فقد لانت ملامحة لمرأى زوجته فبشّ لها وأقبل عليها يتناول منها الصحفة:

- لا عليك، يبدو أن الحديث قد استغرقنا فلم نشعر باستئذانك.

تبادلت كرمة نظرة عرفان مع زوجها، وضمَّنت النظرة وصية خفية بفوّاز، عسى أن يتباسط بُرهان معه في الحديث، فالتقط بُرهان نظرتها وطمأنها بهزة من رأسه وأغلق الباب دونها واستدار ليواجه أخيه ويضع صحفة الطعام أمامه:

- الجهاد يحمل في معناه التضحية وأنا أراك زاهد في الحياة منذ فترة مضت، فكيف تريد أن تبيع الزهيد بالنفيس؟

- فوّاز وقد استشاط غضباً: حياتي ليست بتافهة يا بُرهان، فحياتي قد تكون أثمن من حياتك، أم أنك ترى حياتي بلا جدوى أني لم أتزوج وليس لي أنجال...؟

- بُرهان في ضيق: لم أقصد ذلك ... لم لا تحاول استيعاب ما أقول، فلتفسح لي بعض المساحة من عقلك الضيق.

- بل عقلي أوسع من عقلك وأرجح، فقط أنت تغضب وتتهم غيرك بالقصور العقلي إن فشلت في إقناعه، فأنا أفهم تماماً ما ترمي إليه، أنت تقصد أني آيست من الحياة بسبب فشلي أن اتزوج من سلمى.

- أنت من آيستني من الحديث معك والأمل في إقناعك، فلن تنفعني بشئ إن أنت انضممت إلى الجيش أو أحجمت، وأنا لا أنصحك على سبيل الحذلقة ولكني أفعل ذلك لأني احبك وأريد أن نحيا جميعاً سعداء.

- قد قلته بنفسك... أنت تريد العيش سعيداً.... وأنا أريد الموت بشرفٍ، فليكن لكل منا ما يريد.

- أهذا جل ما استنجته من حديثي معك!!.

سكت فوّاز عن الإجابة تحت تأثير الغضب والجفاء، فقال بُرهان إن كان الأمر كذلك فاعتذر لك عمَّا بدر مني من نصيحة ولتفعل ما تريد، ترك فوّاز الغرفة لبُرهان بغير أن يضيف كلمة أخرى وذهب لا يلوي على شئ.

****

الصعود من الهاوية

مصر 635هـ

شعر الملك الكامل برغبة مُلحة أن يذهب إلى الخلاء مرة أخرى وقد فقد شهيته عن الطعام نهائياً من بعد ما كان يستمتع به وينهل من اللحوم بغير أن يصيبه من جراء ذلك مكروه.

نادى الملك الكامل على خادمه الشخصي ليساعده للوصول إلى الخلاء، فأتى الخادم هرعاً إلى سيده وأخذ يسنده وقد انتابت الملك الكامل حالة من السعال الشديد، وأخذ يتأوه بأنات خفيفة وهو يشعر بالألم في طريقه إلى الخلاء من جراء الضغط على قدمه المصابة بالنقرس.

- الملك الكامل واهناً: أريد ابني سيف الدين الآن.

- الخادم: سمعاً وطاعة يا مولاي.

أسرع الخادم من بعد أن أوصل سيده إلى الخلاء ليخبر حاجب القصر برغبة الملك الكامل أن يلتقي وابنه سيف الدين، فذهبت الرسل في طلبه ليقابل آباه العليل، ورجع الخادم مُسرعاً ليتلقى سيده من بعد خروجه من الخلاء ليُرجعه إلى فراشه.

- الملك الكامل: لا أدري ما اعتراني من سوء، أما لهذه العلة من زوال.

- عافاك الله وشافاك يا مولاي، فجميع رعيتك يدعون لك بالشفاء والسلامة من كل شر.

- أحقاً يدعون بالشفاء أم يدعون بالهلاك؟

- حاشا لله يا مولاي، شعبك يحبك ويجلك.

- لكن ألا يقولون هذا الذي تعاون مع الإفرنج ضد أخيه.

- لقد بادئك المُعظم عيسى العداء واستعان بعدو جلالتكم جلال الدين خوارزم الذي لقى جزاءه على يد أعداؤه من التتار، فما كان لمولاي أن يفعل إلا أن يتعاون مع الإمبراطور فريدريك، ثم أن فريدريك لم يكن طرفاً في الصراع لقد وصل من بعد ما حُسِم الأمر ومات المعظم عيسى.

- لكن العامة تأخذ علي أني راسلته من البداية ليكون عوناً لي على أخي.

- ومال العامة والسياسة يا مولاي، فمن رحمة الله بنا أنه ولى على عباده أمثال جلالتكم من كبار العقول، فقد أدت حكمتكم إلى استقرار أحوال البلاد طوال مدة أربعين عاماً التي حكمتمونا فيها، ألم تكن جلالتك القائد المغوار الذي تصدى للحملة الصليبية الخامسة؟.

ضحك الملك الكامل وقد اختلط السعال بضحكه المرير وقال:

- بل أنا من استجلب السادسة، بل وحتى أخي الأشرف قد ساءت علاقتي به في أواخر عمره، فمات وبيننا جفوة.

- قد طمع في "الرقة" يا مولاي، وقد أعطيته جلالتك أكثر مما يستحق لكن ليس لشهوة السلطة حد.

دخل سيف الدين على أباه وقد كان الخادم يدثره بالغطاء، فأشار الملك الكامل إلى الخادم بالانصراف ليتحدث مع ولده على انفراد.

- أجلس، فما أردتك إلا لأمر جلل.

قالها الملك الكامل وأخذ يربت على مساحة بجانبه على الفراش يستحث ابنه أن يجلس عليها.

جلس سيف الدين جوار أباه قائلاً:

- لبيك يا مولاي.

- أعلم أن أخيك نجم الدين هو أسن منك، ومع أن نجم الدين مُقاتل مغوار فهو يفتقد إلى حس السياسة اللازمة لإدارة شئون البلاد، وقد طمعَ في المُلك قبل الآوان ... وحاول الانقلاب عليّ.

سكت سيف الدين وهو يتوقع ما سيقوله أباه وقد انفرجت أساريره، فطفق الملك الكامل يقول:

- لذا وبعد طول تفكير اشترك فيه جميع رجال الدولة استقررت أن أوليك الحكم عوضاً عن آخاك.

- أحقاً ما تقول يا مولاي.

- وهل في هذا الأمر مزاح، هو قول فصل، أنه أمر دونه الدم.

سكت سيف الدين وقد امتلأت أوداجه فخراً وفرحاً:

- أدام الله لنا مولانا الملك الكامل، وما أسكت صوته من دنيانا.

ضحك أباه مُتضجراً:

- دعك من هذا الكلام، إنما اجتمعت بك اليوم حتى اتأكد من صدق رغبتك في أن يكون لك السلطان من بعدي، فأخوك نجم الدين لن يرضى بذلك إلا بالدم، فهو أسن منك ويرى أنه أحق منك بالمُلك.

- حقاً تقول يا أبي لكن ما يملك هو من بعد وصيتك أياي بالعرش من بعدك.

تعجب الكامل من سذاجة ابنه:

- بل يملك الكثير... فقد يتخذ بطانة من لدنه ويسير الجيوش لملاقاتك ... بل وقد يقتلك.

- ظهرت إمارات الجد على وجه سيف الدين: وما العمل يا أبتاه.

- الملك الكامل: أشعر بدنو أجلي، لذا سوف أهيئ لك الأمر وأوصي قوادي ورجالي أن يتبعوك، لكن ذلك كله غير كافي، فأهم ما سوف أقوم به هو إبعاد أخاك نجم الدين عن العاصمة حتى تستطيع ترتيب أمورك ويعجز هو عن التكتل ضدك، وعندما يصدر الأمر مني فلن يستطيع العصيان ولسوف ينفذ ما آمره به كارهاً.

- ونعم التدبير يا مولاي، ليت لي نصف ما أوتيت من حكمة وحسن تدبير.

نظر الكامل بحنوٍ إلى وجه ابنه من بعد ما أداره إليه بيده وربت على صدغه:

- لو كان لك نصف ما لدي من حكمة وحسن تدبير ما خفت عليك في مقامي هذا، لكن اعلم يا بُني أن نجم الدين لن يستسلم بسهولة وإن نفذنا كل ما قلت، ولسوف يحاول اتخاذ بطانة من دونك ولسوف يحاول الانقضاض عليك متى سنحت له الفرصة، فاجعل عينيك عليه دائماً واجعل تطويقه وتجريده من جميع ما يمكن استخدامه ضدك هدفك الأساسي طوال مدة حكمك الأولى ولتكن هذه أولويتك التي تُبَدْيها على جميع مطالب الحكم حتى مواجهة العدو.

- سمعاً وطاعة يا أبي، أدام الله عليك الصحة والعافية.

قالها سيف الدين وطفق يقبل يد أباه الواهنة التي لازالت ملتصقة بصدغه وقد التمعت عينيه من فرط الفرحة.

****

أعاد الملك الكامل إرسال ابنه نجم الدين أيوب إلى بلاد الشرق[30] ليُشغله بمقاتلة قلعة الرحبة بمساعدة من بقى من الخوارزميين، فيُضعِفُ بذلك أعداؤه ويبعده عن منافسة أخيه في مصر، وبالفعل انصاع نجم الدين إلى أمر أبيه فقاتل في الرحبة ومعه ابنه توران شاه والخوارزميون، واستطاع دحر قوات الأمير بدر الدين لؤلؤ[31].

وأثناء الهجوم على قصر بدر الدين لؤلؤ، كانت هناك أمة[32] تحاول الهرب مُستغلة حالة الهرج والمرج التي أصابت الجميع.

- إلى أين تنتوي الرحيل يا شجر الدر، قالتها مرجانة في استغراب.

- أي مكان غير هذا السجن.

ردت شجر الدر بغير أن تنظر إلى مرجانة...

- وهل أساء إليك أحد من الموجودين بالقصر.

- لا أشعر بالراحة هنا لعلي أستطيع الرجوع إلى قومي في سنجار[33]، فما ولِدتُ أمَة.

ضحكت مرجانة بتهكم:

قد ولدت يا شجر الدر بغير أن نعرف لك أب ولا أم. توقفت شجر الدر هنيهة ونظرت لمرجانة شذراً وأكملت ترتيب ملابسها.

- لا تنقمي علي يا شجر الدر، فأنتي صديقتي الوحيدة، وما لي من دونك من قريب أو صديق.

ظلت شجر الدر تجمع أغراضها بغير أن تنظر إلى مرجانة، فأكملت مرجانة قائلة:

- ما قصدت التعريض بك، ولكن قصدت إثنائك عن الرحيل.

رقت شجر الدر لحال صاحبتها فسامحتها على اهانتها:

- إن شئت فلتأت معي، فأنا أيضاً سوف افتقدك، لكني لا أطيق المكوث في هذا المكان المقيت.

سرحت مرجانة للحظة بخاطرها، فشعرت أنها لن تطيق المكوث بغير صديقتها:

- حسناً سأذهب معك وليكن ما يكون، قالتها مرجانة وهي خارجة لتلملم أغراضها هي الأخرى.

رجعت مرجانة إلى شجر الدر في سرعة، وأخفت الجاريتين وجهيهما بالنقاب وخرجتا من البوابات الخلفية للقصر وهما يهرولان.

- أسرعي يا مرجانة لربما لحق بنا جنود بدر الدين.

- على رسلك فجنود بدر الدين مشغولون بمقاتلة أعدائهم.

- دعينا من ذلك، فالله أعلم بمُجريات الأمور، أأمن لنا أن نصل إلى سنجار في أسرعِ وقت.

بعد مرور ساعات من مسيرتهن شعرتا بصوت ركض الخيول من خلفهم، فأوجسا خيفة وأسرعا الخطى.

- الويل لنا لا أعلم لماذا اتبعتك ولماذا استجبت لتلك المغامرة السخيفة، لسوف يمسنا الأمير بدر الدين بالسوءِ.

أخذت الخيول تدور حول الجاریاتان بتفحص، فنظرت إليهم شجر الدر ولم تعرف فيهم أحد من فرسان الأمير بدر الدين لؤلؤ.

- يبدو أنهما من إماء الأمير بدر الدين لؤلؤ.

قالها الفارس الأول وهو يتمعن فيهما ولازال يدور حولهما.

- استبشر الفارس الثاني قائلاً: هما من غنائمنا.

- الفارس الأول: قد جاد الله بهم علينا.

خافت مرجانة وشرعت تختبئ خلف شجر الدر فتتلصص من خلف كتفها لتستشرف ما يحدث، وكانت شجر الدر صامدة لهذا الحدث الجلل وإن كانت مُتحسرة مما يحدث، فما أن تخرج من أسر حتى تدخل في رق!

تقدم الفارسان ليحمل كل واحدْ منهما أمة من الإماء على فرسه وسط حسد خمسة من الفرسان الآخرين ممن تأخروا عنهم فلم يغنم أحدهم مغنم هذين الفارسين.

****

حسمت فلول الخوارزميين المعركة صحبة توران شاه ابن نجم الدين أيوب، ورجعت الحملة والعود أحمد... إلى نجم الدين من بعد ما ظفروا وغنموا، ووصلت أنباء الغنائم من الجواري إلى نجم الدين فأمر بعرضهن عليه، فمر عليهن ليصطفي منهن ما يشاء وكانت شجر الدر من جملة المُصطفين.

أخذ نجم الدين يمر على الإماء غير آبه حتى وقعت عيناه على شجر الدر... فانتبهت جميع حواسه وكأنه أفاق بغتة من سُبات عميق... أحقاً ما يرى، أيمكن أن يصل الجمال إلى تلك الحدود المُعجزة، لأول مرة يشعر هذا الكيان الجبار داخله بالضعف أمام تلك البراءة والتلقائية، هي زهرة برية تختلف عن جميع ما قطف، ومال هذه النظرة الثاقبة التي يراها في عينيها مال هذه الجرأة... من أين أتت بكل تلك الجسارة، كيف تنظر جارية ضعيفة هذه النظرة المتفحصة إلى سيدها، وكأنها هي الأخرى تقيمه كما يقيمها، حاول نجم الدين أن يلملم من شتات نفسه وقال:

- من أنت يا فتاة.

فوجئ بنفسه ينطقها متلاطفاً معها بغير أن يقصد، فقد توقع أن يخرج صوته على نحو أكثر شده.

- أسمي شجر الدر يا مولاي، كنت أمة من جملة إماء الأمير بدر الدين لؤلؤ.

سكت نجم الدين وقد سحره صوتها وشعر به يدغدع مشاعره فينقله إلى عوالم أخرى... تنحنح نجم الدين لينفض عن نفسه سحر صوتها:

- من أي البلاد ترجع أصولك يا شجر الدر؟

كان في صوته تردد ورجفة لم يعتدها وقد عرفها من حوله من رجاله فأخذوا يختلسون النظرات فيما بينهم...

- من سنجار يا مولاي

قالتها شجر الدر بدلال وقد أدركت اعجابه بها بفطرتها الأنثوية.

أخذ نجم الدين يتفحص جسد شجر الدر ليزداد اعجابه بها، فقوامها مثالياً وبشرتها شاهقة البياض يشوبها شئ من الحمرة دليل على حيويتها وصحتها الوافرة. سكت نجم الدين لا يدري ما يقول وكأنه طفل صغير، فلا هو انصرف عنها ولا هو أكمل حديثه ولا هو أمر شئ بشأنها، أفاقه من نشوته المُتخبطةِ صوت أحد رجاله:

ألك فيها حاجة يا مولاي؟ استعاد نجم الدين رباطة جأشه وكأنه يحاول أن يلملم ما بدر منه من إمارات عشق لا تليق:

- من الذي غنمَّ تلك الأمة؟

رد عليه الرجل قائلاً هو أحد فرسانك المخلصين يا مولاي، فأكمل نجم الدين جولته بين الإماء حتى لا يُظهر أمام رجاله إعجابه الزائد بهذه الأمة، فقد رغب أن يظهر بمظهر المحايد أمام تِلك الفتِنة الآخاذة، لكنه أخذ يمر على بقية

الإماء بغير اهتمام حقيقي وقد عزم أن يستأسر بهذه الجارية لنفسه مهما كلفه الأمر من ثمن.

****

مات الملك الكامل[34] من بعد ما أوصى لعرشه لابنه الأصغر سيف الدين، واختار سيف الدين لنفسه لقب الملك العادل الثاني[35]، من بعد جده والد الملك الكامل (الملك العادل الأول)، وساعده على اعتلاء العرش الناصر داود وعماد الدين إسماعيل، وبالفعل نفذ الملك العادل وصية أباه فتخلص من جميع أعوان ورجال نجم الدين والمحسوبين عليه، لكنه فعل ذلك بغباء شديد فأقصى أعداد غفيرة من رجال الدولة ممن هم مع أخيه أو ممن حسبهم مع أخيه دفعة واحدة.... حتى خلق عداوة بينه وبين الكثيرين من أصحاب النفوذ، وكان من ضمن من حبس الملك العادل ... الأمير فخر الدين يوسف[36].

وبالطبع فإن هذه العداوة الوليدة الكائنة بين الملك العادل والحرس القديم دفعت أولئك الأخارى إلى إرسال المبعوثين إلى نجم الدين أيوب يبايعونه ويطلبون منه عزل أخيه عن العرش، وهو الأمر الذي استجاب له نجم الدين أيوب بالفعل من بعد ما انضم إليه بعض الأمراء المتضررين من الأوضاع الجديدة.

تحرك نجم الدين أيوب جهة مصر وباتت الإمارات تسقط في يده الواحدة تلو الأخرى حتى علم بالخبر المشئوم وأن عمه عماد الدين إسماعيل استولى على الشام، فأسقط في يد نجم الدين أيوب ذلك الهجوم المُضاد الذي قام به عماد الدين اسماعيل، فعزم على الرجوع إليه ومقاتلته عن طريق التحصن بقلعة دمشق ومواجهته من تلك البقعة الحصينة، دخل نجم الدين خيمته على زوجته شجر الدر يستشيرها فيما هو مقبل عليه من أمر كما هي عادته:

- ما رأيك يا شجر الدر فيما أنا عازم عليه من أمر؟

- وما بقي لك يا نجم غير هذا، رحمَّ الله أباك الملك الكامل وسامحه عن دماء المسلمين التي سالت.

- ومال أبي ومال دماء المسلمين؟

- إن كان سلَّمك عرش مصر ما كانت لتسيل كل تلك الدماء وما كان حدث كل هذا الشقاق.

- أما كان لأخي أن يرفض الملك وهو يعلم أني أحق منه به، أما كان له أن يرشد أبانا إلى أحقيتي عنه في ذلك.

ضحكت شجر الدر من أمل زوجها نجم الدين في مروؤة أخوه التي غرته وجعلته يعتقد بمكنة التنازل عن العرش لأسباب عاطفية بائسة:

- هو شئ دونه الدم يا حبيبي ، فسِر على بركة الله وليكن النصر لك حليفاً.

اطمأن نجم الدين لحديث زوجته واتكأ على أريكته:

- آمين يا حبيبتي، أتعلمين... بإمكاني الاستغناء بك عن كل عروش الدنيا، ما كنت أخال أن تملكي نفسي في أيام قليلة.

- إني لأحمد الله في كل يوم ... أن أرسلك إلي يا مولاي وفارسي ومُنقذي، قد خلصتني من الرق وأكرمتني وتزوجتني وأنزلتني منزلة أرضاها، فأدام الله مولاي ونصره.

اقترب نجم الدين من شجر الدر واحتضن كفها في كفه واحتضنها بين زراعيه وغابا معاً في قبلة طويلة حارة وكأنه يستمد منها الشجاعة والاطمئنان لإتمام ما هو مقبل عليه في الغد.

****

تحركت سرايا نجم الدين قبالة الشام وعندما عمدوا إلى قلعتها ليتحصنوا بها لمواجهة عماد الدين إسماعيل فوجئوا بقوات معادية تقذف عليهم القذائف والرماح وقد كانوا يدنون من القلعة بغير حرص، فتراجعت البشائر الأولى من قوات نجم الدين وأرسلوا نفر قليل من الرجال ليستطلعوا الأمر، لتتبين لهم الفاجعة.

- لقد سبقنا جنود عماد الدين اسماعيل احتلال القلعة يا مولاي، قالها أحد الجنود وملامحه تعكس قدر كبير من القلق.

- أمتيقن مما تقول يا هذا؟

- هو حق اليقين يا سيدي، وسل من أرسلت معي من الرجال وإنا لصادقون.

- رباااه وما العمل الآن، قالها القائد بجزع وأطرق الجندي رأسه في الأرض.

مرق قائد الجيش من خيمته بغير أن يضيف كلمة أخرى مع الجندي حتى يقابل نجم الدين ويخبره بالفاجعه.

اضطرب نجم الدين لسماع الخبر، فقد كانت تلك القلعة هي أمله الوحيد في السيطرة على الشام عن طريق الاحتماء بها، ويبدو أن نجم الدين لم يكن الوحيد الذي يعرف أهمية الاحتماء بتلك القلعة، فقد كان يعرف ذلك كبار قواده بل وصغار جنوده، وبالطبع لم يكن أولئك يقاتلون وراء نجم الدين عن عقيدة راسخة، وإنما طمعاً في الغنائم والتمكين بعد تمام النصر، فلمّا علموا بصعوبة الانتصار من بعد ما تم احتلال القلعة انصرف من حوله الجميع ولم يبق معه إلا بضع أمراء وثمانين مملوكاً، وعندما حاول نجم الدين الانسحاب من الشام هو ومن بقى معه قابلتهم سرية من سراياَّ بدر الدين لؤلؤ غريمه القديم فأسرتهم جميعاً.

- وعلى الباغي تدور الدوائر

قالها بدر الدين لؤلؤ بشماتة واضحة، أليست هذه جاريتي التي كانت في قصري ضحك بدر الدين مشيراً إلى شجر الدر، وأكمل:

- ألم تأنف نفس الأمير نجم الدين ابن الملك الكامل أن يطأ جارية من جواري بدر الدين لؤلؤ قد ذاقها وامتص رحيقها.

قام نجم الدين محاولاً لكم بدر الدين لؤلؤ:

- صه يا حقير.

تحرك رجلان من رجال بدر الدين لؤلؤ يكتفون نجم الدين في حين ما أطرقت شجر الدر في صمت ذليل وقد أنسلت دمعة من مُقلتيها.

- أغضبت مما أقول يا بن السوداء[37]؟، قالها بدر الدين وهو يقهقه باستهزاء فرحاً أنه استطاع أن يستفز نجم الدين على هذا النحو.

- سلها كيف كانت تتأوه تحت وطأ فحولتي، سلها كم من المرات دغدغت أوصالها حتى باتت تصرخ من اللذة.

حاول نجم الدين أن يتخلص ممن يقيدونه ليصل إلى بدر الدين فلم يستطع فبات يسمع ذليلاً ما يُلقى على أذانه بغير أن يستطيع له رد.

- هي لا تريد أن تجيب، لكن أنظر إليها لتعلم أن كل ما أقوله صحيحاً وسلها من بعد ... إن كنت أنت قد أرضيتها على نحو ما فعلت أنا، سلها إن كانت لازالت تتخيل صورتي وهي بعد في فراشك، سلها كم ملأت الدنيا صراخاً وكم تحسست من جسدي راضية متلهفة من فرط النشوى والألم.

سكت بدر الدين لؤلؤ لهنيهة ناظراً إليهما باستحقار فاكمل:

- لكني ما فكرت يوماَ أن أجعلها لي زوجة، فقط اكتفيت أن استكشف جسدها وألقي فيه قطرات شهوتي بغير أن أفكر أنا الأمير الكريم أن ارتبط بأمة حقيرة لقيطة، فما كانت لتجروأ على النظر إلي من بعد الانتهاء منها فقد كانت تعرف جيداً ما يجب عليها عمله.... أن تلملم حاجيتها وتستر جسدها المجلود باللذة وتغرب عن وجه سيدها، أما أنت فتزوجتها وأنجبت منها ابناً لك.

استجمع نجم الدين شتات نفسه ونظر إلى بدر الدين بعين مشوبة بالحمرة:

- والله لأذيقنك سوء العذاب يوم أقدر عليك، ولأجعلنك تتمنى الموت وما أنت بلاقيه، ولأقطعن قضيبك الذي تتفاخر به أمام عينيك وأحشره في فمك ثم لأذبحنك ذبح النعاج.

- ألا ترى أنه من الغرور أن تتحدث بهذا الآن وأنت بعد لا زالت أسيراً في يدي، فما يدريك أن أفعل أنا فيك مثل ما تقول، أو أريك بأم عينيك كيف السبيل لإرضاء زوجتك.

ضحك بدر الدين لؤلؤ وهو ينظر إلى شجر الدر ثم أكمل:

- لكني لن أفعل... لن ألج في مكان قد نفثت فيه قاذوراتك الحقيرة، ولا عجب أن تحقد على قضيبي وقد فشلت أن تملأ فراغه.

قال بدر الدين ما قال ثم استدار مُدبراً من الغرفة التي اصطفاها لاحتجاز نجم الدين وشجر الدر وقد أوصدت الأبواب واستقر الحراس المعينين على حراستهم كلٌ في مَكانه.

****

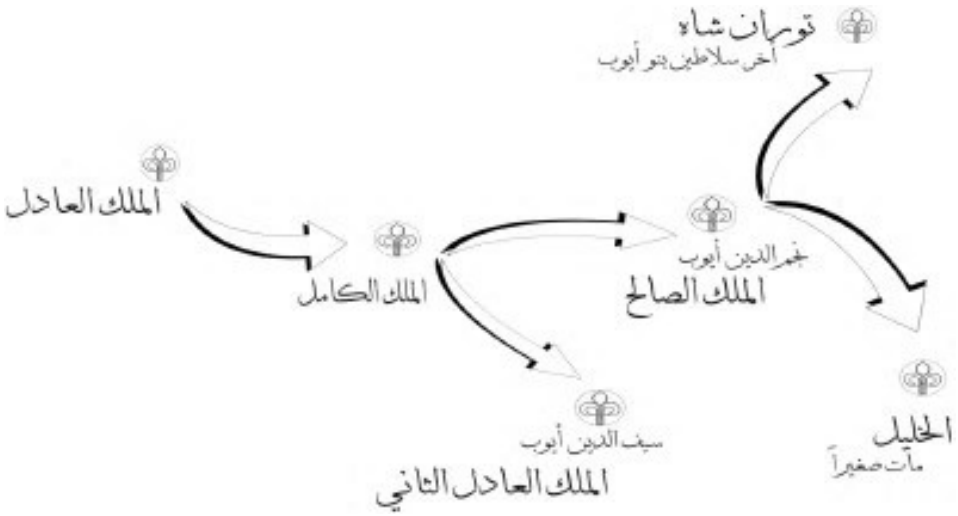
توران شاه
آخر سلاطين بنو أيوب
الملك العادل
الملك الكامل
نجم الدين أيوب
الملك الصالح
سيف الدين أيوب
الملك العادل الثاني
الخليل
مات صغيراً

صناعة العنف

635هـ الطريق إلى آلموت

أخذ فوّاز يتقلب في منامته وهو لا يستطيع النوم، فقد مضى على رحيله من بغداد سبعة أيام عجاف، وقد نفذ ما معه من طعام وشراب، وصار يتقوت من نبات الأرض ويشرب من أنهارها ويتقي الحر تحت أشجارها، كان فوّاز عاجزاً عن التفكير وكان الحنق يملأه، يشعر وكأنه ملعون، فهل يمكن أن يتمكن الحنق والغضب والنقمة من إنسان كل تلك الأعوام؟، هل هو بالفعل صاحب رسالة أم أنه طالب للموت؟.

لم يعد ذلك يمثل فارق الآن، فهو يمشي على الأرض ويأكل ويمارس مهامه الحياتية بغير أن يشعر أنه حي، وله اليوم سبعة أيام يسير في البرية وحده فلم يرى راجلاً ولا فارساً... لم يرى إلا الهجير والرمال، فاختلط عليه الأمر فصار غير قادرٍ على تلمس الحدود الفاصلة بين الحقيقة والوهم، فقد مرت عليه أوقات لا يستطيع الجزم فيها إن كان ما يشعر به ويراه حلم أم أنه عين اليقين.

منذ أن تزوجت سلمى من غيره، أصبح غير راض عن جميع من هم حوله عازفاً عن الحديث مع أصدقاءه مؤثراً عليهم الوحدة والصمت، وأصبح من وقتها نومه متقطعاً، وأصبح عصبي المزاج يستوي عنده الكسب والخسارة، أصبح ميتاً من الداخل حياً من الخارج.

كان فوّاز قد قرَّرَ أنه لن ينزل عن حصانه إلا بعد أن يعيه التعب حتى يستمتع بقدرٍ قليلٍ من النوم علَّ عقله يستريح من التفكير في سلمى وما مضى، لكن هيهات... فقد مرت كل تلك السنوات وهو ينام مُستيقظاً، يشعر بجميع من حوله وعقله يرفض الهدنة، يرفض أن يستريحَ من التفكير في حبيبته التي فرطت فيه وفضلت عليه غيره ولو في فترة النوم ، وكان ذلك يدفعهُ إلى حافة الجنون، ولعله أراد الموت لكي يستطيع إيقاف عقله عن التفكير وحتى يرقد جسده هادئاً في إحدى الخنادق المظلمة بغير أن تأتيه ذكرى سلمى المؤلمة لتفسد عليه رقاده.

وبينما فوّاز غارقاً في أفكاره السوداوية إذ سمع صوتاً جوار الكوة التي اختار النوم فيها، فغلب ظنه أنه وحش من وحوش الفلاة قد عرف أثره وأراد افتراسه فتنبه وقام من رقاده.

كان القمر بازغاً تلك الليلة، فاستطاع فوّاز استشراف الآتي من بعيد فوجده فارساً قد أتى مُتهدلاً من فوق تبة عالية، وكان فرسه يمشي على مهلٍ وكان يبدو على الفرس والفارس إمارات التعب والإرهاق.

تحسس فوّاز سيفه، فلم يكن ليأمن على نفسه من الغرباء خاصة وسط الصحراء حيث لا يوجد شاهدٌ ولا رادع، وقد يكون الفارس القادم في حاجة إلى الزاد والماء فيقتله رغبة فيهما... أو قد يطمع في فرسه، وقف فوّاز للآتي متحفزاً مُمسكاً بقبضة سيفه لكنه لم يخرجه من غمده وهو ينظر مُباشرة إلى القادم حتى اقترب، فشرع ينظر إليه في عينيه حتى قال القادم بصوتٍ واهنٍ ... السلام عليكم.

فوّاز في توجسٍ وقد خفف من قبضته على مقبض السيف:

- وعليكم السلام من أنت؟

- الغريب: لا تخف ... عابر سبيل، شاءت ليَّ المقادير أن أمر بهذا المكان حتى التقي بك، فقد نفذ مائي منذ وقتٍ بعيد، أكاد أموت من الظمأ.

فكر فوّاز في تردد وهو يعاير كمية الماء التي بقيت معه في قربته منذ أن غادر البركة التي عبأ منها الماء الآسن... وقرر أخيراً أن يسقي الغريب، أدار فوّاز ظهره للغريب وانحنى ليدخل في الكهف الذي أعده ليقضي ليلته داخله، وبمجرد دخوله في الكهف أحس الرطوبة الكامنة داخله فتناول قربة الماء على عجل وطفق يرجع بها إلى صاحبه، ووجد فوّاز صاحبه قد ترجل من فرسه ينتظره ليسقيه.

رفع الغريب قربة الماء إلى فمه وأخذ يجرع منها حتى جذبها فوّاز من يده:

- يكفي هذا، فما ندري متى نتحصل على الماء ثانية.

أخذ الغريب يُطبقُ فكيه على حبات الرمال التي علقت في فكه من بعد ما ارتوى، فسمع لها فوّاز صوت مسموع.

- الغريب: من أين لك بهذا الماء؟ به الكثير من الأتربة.

- فوّاز: فلتحمد الله انك وجدته في المقام الأول.

- الحمدُ لله... قالها الغريب وجلس على صخرة بارزة في صدر الصحراء، الجو لطيف هذه الليلة.

- مع أن الصباح كان شديد الحرارة، ما كنت تستطيع مسَّ الرمال منذ بضع ساعات.

هز الغريب رأسه موافقاً وتطلع إلى فوّاز يريد ثبر غوره:

- إلى أين يا أيها الفارس؟

كان فوّاز يريد الالتحاق بالجيش الأيوبي، لكنه خاف التحدث مع الغريب في شأن من شئونه ألا يكون بصاصاً أو أحد رجال الخليفة أو رسول من رسله فيفضح أمره، فأشاح بوجهه:

- وما شأنك أنت، هي ليلة نمضيها، وغداً يستقل كلاً منا في طريقه.

أحس الغريب بالتردد والقلق البادِيين على وجه فوّاز ، فأحب أن يطمأنه خاصة وقد استراح الغريب إليه وأحب هيئته القوية ومظهره النبيل، فودَّ لو أنه صاحبه حتى حين، لذا شرع يطمأنه من جهة شخصه فقرر أن يحكي له قصته أولاً...

- أسمي حسين، وكنت أعيش في بغداد ومات أبي أمام عيني بيدٍ آثمه منذ بضع سنوات، ولم أستطيع آنذاك أن أصد العدوان عنه، فقد نشبت يد الغدر مخالبها في جسده من قبل أن أصل إليه بخطوات قليلة.

انتبه فوّاز إلى حكي الغريب ونظر إليه متعاطفاً، فأكمل الغريب:

- لا تخلني جباناً فقد أردت الانقضاض على قاتل أبي والفتك به، لكن هذا المجرم الآثم لم ينله مني إلا بضع لكمات، بعدها جاء جيراننا في الأرض ليفصلا بيني وبينه، فلم أستطع شفاء غليلي من هذا الحقير.

فوّاز وقد تكلم أخيراً:

- وما سبب أن أقدم القاتل على قتل أبيك.

- الغريب: هو صراع على سقيا الأرض، كان أبي فيه مغبوناً ، وعندما أراد أن يستوفي حقه كان جزاؤه الموت.

- فوّاز: وما حدث بعدها؟

الغريب وقد صدرت منه هنة استهزاء...

- بالطبع لم استطع استيفاء حقي فأبي شيعي وقاتله سني، وقد تعاطف القضاة مع القاتل فاعتبروه في حكم من يدافع عن أبيه، وأنه فعل ما يلزم حتى يرد العدوان عن نفس والده.

- ولماذا قررت فجأه الرحيل وترك بغداد وقد مرت سنوات طوال على مقتل أبيك.

- كنت ساذجاً، لدي أمل في العدالة الناجزة... لكن أولئك لا يعرفون معنى للعدالة، قاتلهم الله وقبح وجُههم، هم شركاء في دم أبي وسوف اختصمهم أمام رب العالمين يوم الفصل.

- وإلى أين وجهتك الآن ؟.

- الغريب مُبتسماً: سوف أخبرك بوجهتي رغم أنك لم ترد إخباري بوجهتك، ورغم أن علمك بوجهتي فيه خطر على حياتي، أسمي حسين بن المهدي وأنا متجه إلى قلعة آلموت صوب فارس لأكون مع إخواني من الحشاشين، فبعد كل تلك الأعوام أدركت أنهم الفئة المُصيبة وأنهم على حق.

فوّاز وقد بدت عل وجهه إمارات الإنزعاج:

- ليس بالاغتيالات والقتل يتحقق العدل يا حسين.

- قد صدق أبي أن التعايش السلمي مع السنة ممكناً لكنه مات مأسوفاً عليه جراء ما لاقاه من ظلمٍ منهم، فعساي أن لا أقع في نفس الخطأ، وكل تلك السنوات الماضيةً منذ مقتل أبي وحتى الآن أعطيت فرصة لأولي الأمر أن يقتصوا لمقتل أبي ويجددوا ثقتي في عدالة قضاة بغداد، لكني أيقنت الآن كم كنت واهماً.

****

شعر فوّاز أن حسيناً مخطئ برغبته الانضمام إلى الحشاشين لكنه لم يكن يملك تصويبه، فالمُستنصر خطأه أفدح، فقد تعلم من أخيه أن العدل أحق أن يُتَّبَع بغير تفرقة بين سني وشيعي... مسلم ومسيحي... أبيض وأسود.

- حسين: وأنت إلى أين وجهتك أيها الفارس الشجاع؟

- اعتزم الانضمام إلى المماليك في مصر، فأكون جندياً في الجيوش الأيوبية، فقد مللت دعه خلفاء بني العباس وسلبيتهم، ولربما انضممت إلى فلول الخوارزميين واستطعت مواجهة التتار وأنا معهم.

- نجم الدين أيوب طالب للسلطة ولا يقاتل إلا لتثبيت نفسه عليها، أما الخوارزميون فقد آفل مجدهم القديم وباتوا يأكلون من نصال سيوفهم فلا خير في التحيز لهذه الفئة أو تلك، فلتأتِ معي إلى قلعة آلموت.

- ابتسم فوّاز ابتسامة شاحبة من أثر الإعياء: وهل الخير أن أنضم إلى جماعة من الاغتياليين فأمارس القتل على رموز الدولة التي أنتمي إليها، ثمَّ كيف لهم أن يقبلونني وأنا سُنّي.

- حسين: يمكنك أن تتشيع أو حتى تظهر ذلك، فلسوف تطيب لك الإقامة في آلموت.

- لن أتشيع ولن أظهر ذلك، فصراحة لا أحب مبدأ التقية التي تطبقونها أنتم يا رفيق الضرب... واستطرد قائلاً، لكن ذلك لا يحول دون احترامي الكامل لما تعتقدون.

- التقية شئ أجبرنا الظلم عليه فأباحه لنا أئمتنا، فالضرورات تبيح المحظورات.

- لا ضير يا حسين... لا ضير، فلنمضي معاً حتى تفرق بيننا السبل، ويسير كل منا إلى وجهته التي يريد.

فكر حسين فيما يقوله فوّاز واستصاغه بشئ من القبول، فقد أحب فوّاز ورغب أن يرافقه، فليستمتع برفقته حتى يقضي الأمر كان مفعولاً.

- حسين: الله غالب، فليشد بعضنا بأس بعض حتى تكن مشيئة الله، والآن دعنا ننام قبل أن تطلع علينا شمس النهار فنعاني غداً بغير أن نستطيع النوم من شدة الحر.

****

ناول قاسم كتاب آخر قام بتجليده إلى علي صديقه في المطبعة، أخذ علي يتحسس حوافه وينظر إليه في حرص من زوايا مختلفة:

- لم أر أحداً مولعاً بالكتب ولعك أنت.

- هو أمر كامن في أعماقي لعلي ورثته عن أبي.

- وهل كان أبوك يحب القراءة.

- أخاله كان يحبها، فلم تخبرني أمي عن الكثير من شيم أبي وخلاله الكريمة، أخالها تخشى غضبة تمام عليها إن تحدثت في منزله عن أبي.

- ما أظنك ورثت حب القراءة من أبيك فهو لم يفطرك عليها، فقد مات وأنت بعد جنين في بطن أمك، أنت يا قاسم من تعلق بالقراءة والكتب لسبب أو لآخر، أنت تجلدها وكأنك تحفظ درر نفيسة.

- قاسم: طالما كنت أميل إلى القراءة والكتب والعلم، ولولا حاجتي إلى المال ورغبتي في الاستقلال ما كنت لأترك دراستي قط، لكن هي الحاجة والاضطرار، ولعل بُعد أمي عني وانصرافها عن شأني لمُراضاة زوجها هو الأمر الذي شجعني على القراءة وحب الكتب، فما وجدت لي غيرها من أنيس ولا جليس.

- قد نفعتك الكتب يا قاسم فكلما قرأت شعرت أنك تزداد رضاً عن الحياة ويقيناً بالله.

- هو كذلك يا أخي، فضل الله عليَّ عظيم، ولولا العلم والقراءة لكفرت بالحياة ولاهتزت ثقتي بالله، فقد مررت ولا زلت... بأزمات حياتية قاسية.

- نعم الصديق أنت يا قسام، قد تعلمت منك الكثير، ورغم أن ظروفي الأسرية مستقرة، فقد عجزت أن أكون مثلك.

- ما تقوله من لطفك، فأنت من أفاضل الناس.

لملم قاسم حاجياته لانتهاء نوبة عمله استعداداً للعودة إلى منزله، وللحق فقد كان هذا الوقت غير محببٍ إليه، فقد ازدادت الأمور تعقيداً بينه وبين زوج امه وإن تغيرت طبيعة الخلافات بينهما.

لم تتغير مشاعر تمّام ناحيته حتى بعد أن حملت أمه منه بعد مرور سنوات عده، وكأن تمَّام كان يفكر أن حمل ريحانة منه مدعاة أن تُطلق صراح قاسم فلا تفكر فيه، وقد كان تمام يعيد على زوجته القول بأن قاسم ما عاد في حاجة إليها، وكان ذلك يُقال على مسمع مِن قاسم حتى يؤكد له أنه غير مرغوب فيه بالمنزل، فلم يكن تمَّام يعبأ أن قاسم الآن يعمل ويتحمل أعباء نفسه، فما كانت متطلبات قاسم المالية سبب نقمته عليه.

وما كانت ريحانة تعترض عندما يتم القاء مثل هذه العبارات على مسامعها، فقد باتت الآن أكثر تقبلاً لفكرة أن يستقل عنها قاسم بعض الشئ، خاصة وقد كبر بالفعل فهو الآن في الرابعة عشر من عمره ويُمكنه الاستقلال بمعيشته عن طريق زواج أو غيره بحيث يستطيع زيارتها على نحو معتاد كلما شعرت بحاجة إلى رؤيته، كانت ريحانة على قناعة بهذا لكنها لم تصرح به لإبنها حتى كان اليوم الموعود...

عاد قاسم من عمله متأخراً ليقلص من وقت تواجده بالبيت حتى لا يحتك بزوج أمه، لكن تمام كان جالساً عندما عاد قاسم من الخارج.

- السلام عليكم ورحمة الله.

قالها قاسم وهو يتحاشى النظر إلى تمَّام ويحاول أن يعبر المساحة حول تمّام بقدرٍ من السرعة.

- ما هذه الغطرسة التي تتعامل بها معي في بيتي.

- كفاك يا تمَّام فما حدث لتصفني بالمُتغطرس.

- عندما تُحيي من هو في مقام أبيك فيجب أن تنظر إليه وأنت تحييه، فلا معنىٍ لِلتحية إن أديتها بامتهان.

- بدءاً أنت لست في مقام أبي فالبون بينكم شاسعاً، ثانياً قد حيَّيْتُكَ وكفى فلا داعي لتصيُد الأخطاء.

استشاط تمَّام غضباً من كلمات قاسم عندما واجهه بالفارق بينه وبين والده فكر هاجماً عليه محاولاً صفعه، لكن قاسم وقف بثبات وأمسك بيد زوج أمه، وفي لحظة التقت أعين الغريمين، فنظرا إلى بعضهما البعض في تحدي، لكن تمام عرف من عين قاسم أنه لن يتردد في أن يرد له الصاع صاعين إن هو صمم على تأديبه، انكسرت عين تمام وشرع يسحب يده التي أمسكها قاسم... فأفلتها الأخير بعنف، عندها بدأ تمام يصرخ:

- أما وإنك ترى البون بيني وبين أبيك واسعاً وأنني لا أرقى لأكون في مقامه! فلما تقبل الإقامة ببيتي.

- أنا قادرعلى الاستقلال يا تمام وأنت تعلم أني لا آكل من طعامك ولا أشرب من شرابك، وإني ماكث هنا لأكون جوار أمي.

- أمك.. "قالها بتهكم"، أمازلت في حاجة إلى أمك؟!

- أجاب قاسم في ضيق: هي من في حاجة إليَّ فلا أخالها سعيدة معك مع كل ما تبديه من استكانة.

- استبد الانفعال بتمام فأخذ ينادي على زوجته: ريحانة ريحانة... هل حقاً ما يقول هذا المأفون، أأنت تعيسة معي إلى هذا الحد الذي تحتاجين فيه لهذا التافه أن يكون جانبك.

شرعت ريحانة بالبكاء الصامت بغير أن تجيب وهي تنقل عينيها بينهما في حيرة.

- تمام: أجيبيني يا امرأة أأنت تعيسة معي بعد كل ما بذلته من أجل إسعادك؟.

- ريحانة وهي تصرخ: كفى أكاد أجن من كثرة ما تتشاحنان.

نظر إليها زوجها بغضب وابنها بلومٍ، أفاقت ريحانة من اندفاعها فخففت من نبرة صوتها وأكملت:

- كفى يا تمام، دعني أتحدث إليه وحدنا على انفرادٍ ولينتهي كل ذلك الآن.

سكت تمَّام لِما رآه من انفعال بادٍ على زوجته، فهي قلما تنفعل، وإن حدث وانفعلت فهي لم تنفعل إلى هذا الحد في السابق قط، وقاسم أيضاً من جانبه شعر بمدى الألم الذي سببه لأمه بغير قصدٍ فآثر السكوت حتى يتحدث إلى أمه وحدهما، استدار تمَّام وترك الغرفة لتنفرد الأم بابنها.

- أعلم أني طالما كنت عبئاً ثقيلاً عليكي يا أمي.

- بل يبدو أني من ظلمتك عندما تزوجت تمَّام.

وما كنت تملكين غير ذلك، فقد كنتِ في ريعان الشباب بغير بعل ولا دخل. سكتت ريحانة وأخذت تبكي في صمت...

- اسمحي لي يا أمي أن اترك المنزل.

جزعت ريحانة لما سمعته من قاسم:

- وأين تنتوي الرحيل؟ وأنت لم تفارقني من يوم ولادتك ليلة.

- قد استقللت عن تمَّام منذ فترة يا أمي، فما عدت أكل ولا أشرب من ماله، فما بقى لي إلا أن أنام تحت سقف غير سقفه، ولسوف أكون إلى جانبك طوال الوقت.

- ولمَّ الآن يا قاسم، لعل ما بينك وبينه يزول بمرور الأيام.

- كان زال من زمن إن كان له من زوال يا أمي، فتمَّام لم يحبني قط، وما بقيت ببيته إلا كرامة لك.

- وعند من سوف تمكث يا قاسم؟.

- عند عليّ... زميلي الذي يعمل معي بالمطبعة، هو يَسكُن مع والده وجدته المُسنة وكلهم يحبونني وعلاقتي بهم كأفضل ما يكون.

احتضنت ريحانة ابنها بقوة وبكت على كتفيه لدقائق طويله حتى سكتت، وكأن هذه المُعانقة بمثابة موافقتها على انتقال ابنها إلى منزل صاحبه، فاتحضنها قاسم وجزء من داخله يلومها على تخليها عنه.

استفاق قاسم من نومته سعيداً راضياً، فقد بعد مرور أيام قليلة من انتقاله إلى منزل عليّ بالبحبوحة وراحة البال، وطفق هذا الشعور يتسرب إلى أعماقه ويتأكد بمرور الزمن، فما خال نفسه سوف يشعر بكل هذا القدر من السلام الداخلي إن ترك منزل زوج أمه، خاصة وأنه كان يعتقد أن تعلقه بأمه سوف يقضي على أدنى أمل لديه في السعادة إن هو تركها و استقل.

وللحق فإن عليّ كان يبذل قصار جهده طوال الوقت ليشعره أنه في منزله وبيته، وكان والد علي رجلاً بسيطاً لطيف المعشر، وقد كان قاسم يتحرج منه في بادئ الأمر عندما يصطدم به في المنزل ولكن والد علي تداخل معه واهتم بشأنه وتباسط معه، حتى أن قاسم لم يَعُدْ يشعر بالحرج في حضرته، وبدت الدنيا وكأنها تبتسم له للمرة الأولى منذ وطأ أرضها.

قلت المرات التي تزور فيها ريحانة ابنها، وما كان قاسم يشعر بالبؤس من جراء ذلك، وكانت هي ممتنة لابنها أنه ما كان يشعرها بالحاجة إليها فقد أراحها من تأنيب الضمير، فقد كان تمام غير راض عن زياراتها لقاسم، فقد كان وجهه يتبدل عندما يأتي ذكر الزيارة إليه، وكان يرفض رفضاً تاماً أن تصطحب ريحانة ابنهما ليراه قاسم، ولولا المحبة التي لازالت مُستقرة في أعماق تمَّام لريحانة لمنعها من زيارة قاسم نهائياً، لكنه اكتفى أن يبدي لها الضيق والتبرم علها تقلل من مرات الزيارة.

فهي تذكر جيداً كيف جفاها تمَّام مدة أربعة أيام عندما علم أنها قابلت قاسم في منزل عليّ في وجود والده، مُعللاً ذلك أنه لا يرضى أن تتواجد زوجته حضرة رجل غريب.. حتى ولو كان ذلك في وجود ابنها، لأنه لا يثق في قاسم كما يقول.

شعر قاسم أن السبب في تباعد زيارات أمه المضطرد راجعاً إلى زوجها تمَّام الذي يناهض تلك الزيارات، وقد تأكد من مدى جفوة زوج أمه عندما سأل ذات مرة عن أخيه من أمه فلمح على وجهها ملامح الاضطراب والحزن، فعرف أن زوج أمه وراء حجب أخيه عنه، فسكت عن ذلك ولم يسأل عنه ثانية الا يؤلمها.

أقبل قاسم على عليّ في فراشه وطفق يهزه حتى يفيق...

- قم أيها الكسول كفاك نوماً، قد آن وقت ذهابنا إلى المطبعة.

- أكل الأيام عمل؟ قد مللت العمل والمطبعة وصاحب المطبعة.

نصحتك كثيراً أن تنام مبكراً حتى لا تعاني وأنت تنهض في الصباح. قالها قاسم ضاحكاً...

لم يرد علي، فسكت قاسم عن محاولات إيقاظ صديقه حتى لا يضايقه، عساه هو أن يتجهز للخروج حتى يفيق صديقه.

سار الصديقان في الطريق إلى المطبعة فقال علي لقاسم وفي صوته نبرة لوم :

- فلتنظر أمامك، كفاك قراءة لست مسئولاً عن تنبيهك إلى جميع العثرات في الطريق وأنت مُثبتاً مقلتيك في الكتاب ماشياً.

- أسف يا عليّ، أريد أن انتهي من هذا الفصل قبل الوصول إلى المطبعة عساني أن انتهي من هذا الكتاب في المساء.

- المارة في الطريق ينظرون إليك كأنك مجنون، فما رأوا قط شخص يسير ويقرأ في آن واحد، ثم ما عساني أن أفعل مدة الطريق بغير صديق

أتحدث إليه، هل أنا ممل لهذه الدرجة حتى تُفضلَ كتابك علي؟؟

أغلق قاسم الكتاب ووضعه في جعبته ونظر إلى علي في عينيه:

- بل أنت أخي وصديقي وموضع سري وثقتي، أنت أهلي ومستقري من بعد ما تركت حياتي الأولى في منزل تمَّام.

- أنت لا تعني ما تقول يا قاسم فقلما أوجدت وقت كي تحدثني فيه ونتسامر معاً.

- كيف ذلك ونحن لا نفارق بعضنا البعض أبداً، فنحن معاً في المطبعة وفي المنزل.

- يا قاسم قد نكون معاً طوال الوقت لكنك مُنشغلاً في معظمه، إما إنك تعمل في المطبعة أو تقرأ في المنزل بل وفي الطريق ما بين المنزل والمطبعة تشغل نفسك بأشياء شتى وكأنك لا تريد التحدث معي.

- عليّ... أنت تعلم أن ما تقوله ليس حقيقي، فأنت أحب الناس إلى قلبي من بعد أمي، وأنا طالما شعرت أن بك رغبة في الحديث تركت كل ما بيدي حتى اسمعك.

- هذا أمر آخر يا قاسم، فأنت دوماً تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، تكاد لا تتحدث عن نفسك إلا القليل، وإن تحدثت يكون حديثك وكأنه عظة او خواطر عامة غير مُتعلقة بشخصك، والحق أقول لك: حديثك على هذه الصفة لا يثير اهتمامي.

كان قاسم يفهم علي جيداً لكنه كان عاجزاً أن يُفْهمه ما يشعر هو به، فقد كان يعلم ان اهتماماته في الحياة وتأملاته فيها غير قادرة على استثارة اهتمام صديقه البتة، لذلك كان يحجم عن تداول أفكاره معه، فصار أكثر انغلاقاً على نفسه وسار لا يبوح لصديقه بما عنَّ لهُ من أفكار إلا أقل القليل منها، بل وقد يتخير منها ما كان يتوقع أنه سيثير اهتمامه به.

- أنظر إلى يدك يا علي... فأصابعها لسيت على شاكلة واحدة، كذلك انا وأنت... كل منا له ميوله ومزاجه الخاص، لكن جميع ذلك غير قادر على تغيير الحقيقة وأننا ننتمي إلى كف واحدة.

قالها قاسم وقد مدَّ زراعه ليحتضن كتف صديقه في مودة ظاهرة، وكأنَّ الملامسة بثت ما عجزت عنه الكلمات، بشَّ عليّ لما قاله قاسم وابتسم في رضاء.

قال قاسم وهو يدلف إلى المطبعة ويربت على كتف صديقه:

- نكمل حديثنا إياباً من المطبعة وأعدك أن لا اقرأ خلال أوبتنا.

كان الحشاشون يتخذون لأنفسهم مخادع في باطن الجبل، بحيث تستأثر كل مجموعة منهم بمغارة ليهجعوا إليها، وكان حرب مُستلقياً على فراشه وقد تهيأ إلى النوم وهو مغمض العينين، وقد طوى زراعيه فوق صدره منتظراً سلطان النوم أن يأتيه، وكان يزعجه صوت رفاقه من الجند حوله وهم يتجاذبون أطراف الحديث، وود لو انهم صمتوا قليلاً حتى يستطيع أن ينام وليُكملوا حديثهم بعد نومه.

سمع حرب صوت أقدام تغزو مغارة نومه، فأجفل يتربص القادم وسكت المجاهدين عن السمر حتى يتبينوا القادم فإذا به شاهر. واصل الفتية حديثهم وأغمض حرب عينيه في ملل وضيق راثياً حاله أنه لن يستطيع النوم الليلة وقد أتى شاهر.

توجه شاهر إلى حرب مباشرة وهزه هزة خفيفة ليفيق... ظناً منه أن نائم :

- انهض يا حرب، فالأكبر يريد رؤيتك.

أخذ قلب حرب يرجف بقوة لا يكاد يصدق ما يسمع ففتح عينيه بقوة ليعلم شاهر أنه ما كان نائماً فيكمل:

- هلم فقد أرسلوا في طلبك وهم ناظروك.

- من هم؟

- سيد القلعة صحبة الشيخ حيدر.

- أهما معاً الآن؟

- ما بك يا حرب؟... هلم يا رجل، فهما الآن في انتظارك في منزل الأكبر.

هبَّ حرب من فوق سريره وقد أخذ الحشاشون المُتسامرون في النظر إليه مندهشين حاله وحال شاهر، فقد عجزوا أن يسمعوا ما كان بينهم من حديث هامس، ولو أنهم سمعوا ما قيل لخف عنهم العجب ولتاقوا لمعرفة بقية الخبر فيعرفوا سبب استدعاء حرب.

دخل حرب وشاهر في منزل سيد القلعة ليجدوه جالساً وجواره الشيخ حيدر قائماً فانحنوا باحترام...

- قد أثنى عليك الشيخ حيدر يا حرب وشهد لك بالاستقامة والفناء في سبيل الدين.

قالها سيد القلعة لحرب وهو ينظر إليه ويتفحصه، وحرب يحاول ألا ينظر مباشرة إليه منازعاً شعور داخلي لديه، فهو لم يكن قد رأى سيد القلعة منذ

بضعة سنوات ... فهو كأسلافه مُعتكفاً في بيته لا يظهر بين رجال القلعة إلا فيما ندر.

- حرب: بارك الله لنا فيكم أيها الأكبر وأثاب الحيدر عنا كل خير.

- هل لديك أدنى فكرة لم أنت هنا اليوم؟

- هو خير أنا لست بأهله أيها الأكبر.

نظر سيد القلعة إلى حيدر نظرة ذات مغزى وكأنه سعيد بحال حرب وفصاحة لسانه، والتقط حيدر نظرة سيد القلعة فنفخ أوداجه وعدل من ملابسه فخراً.

- سيد القعلة: أنت تعلم بعد عن المرض الذي أصاب شيخون قائد تدريب القلعة القديم، فحالته الصحية الآن باتت مُزرية وهو لا يستطيع النهوض بالمهام التدريبية الخاصة بالمجاهدين، فهل أنت قادر على التحمل بمثل هذه المسئولية العظيمة.

- حرب: أنا جندي مُخلص من جنود الأكبر، أينما وكلني نفذت واجتهدت.

ابتسم الأكبر وقال:

- على بركة الله، سيرافقك شيخون لبعض الوقت حتى تعلم منه تفاصيل قيامك بالمهام الجديدة.

- سمعاً وطاعة أيها الأكبر. قالها حرب وقد نظر إلى حيدر نظرة امتنان قبل أن يأذن لهم سيد القلعة بالانصراف.

كان شاهر وحرب يسيران جنباً إلى جنب وبمجرد مجاوزتهما منزل سيد القلعة قال شاهر لحرب:

- مبارك عليك منصبك الجديد.

- لو أنك فقط تفهمني يا شاهر، أنا لا أعبأ بالمناصب يا صديقي، وإنما أرى فيها أحمالاً زائدة تُلقى على كاهلي، فما عناني شئ قط، غير أن أقوم بواجبي على الوجه الأكمل وأن لا أخذل القلعة ورجالها ما حييت.

- لذلك اختاروك أنت، فطالما أخلصت النية، لذلك هاداك الله بهذا المنصب الرفيع.

- اللهم إن كان في أمر منصبي هذا خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي، وإن كان شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان ثم ارضني به.

قالها حرب ساهماً وهو ينظر إلى السماء الصافية وما تحمله من مزن. وقد جاشت نفسه بمشاعر مُتضاربة من الفخر والإشفاق والزهد.

كان حسين ممدداً تحت ظل شجرة وافرة الظلال وقد شحب وجهه، وكان فوّاز جالساً بجانبه يحتمون بفروع الشجرة الضخمة من قيظ النهار، فنظر فوّاز لصاحبه قائلاً:

- هل لازلت تشعر بالرغبة في القئ؟

- حسين: حمداً لله، أشعر بتحسن الآن.

- قد نفعني عدم استصاغتي لنكهة الثمر الذي أكلت منه، يبدو أن فيه شيئاً من السم.

- يبدو ذلك يا صديقي، وقد عطلت مسيرتك بسبب ما اعتراني من علة.

- لا عليك، فهي فرصة لنا أن نستريح من وعثاء السفر ونستأنس ببعضنا البعض، فغداً سوف يستقل كل منا إلى وجهته، ألا تفكر أنت في مُصاحبتي إلى القاهرة والانضمام إلى جيش الأيوبيين.

- لا يا صديقي، أخاف أن يتم اضطهادي فلا أشعر بالمساواة مع من هم مثلك، دعني أذهب لمن أنا منهم، فليس كل الناس على قدر سماحتك يا فوّاز.

سكت فوّاز لبرهة وتمنى أنه ما قابل حسين قط، فقد آنس به طوال الأيام الماضية، وما أشد أن يعتاد الإنسان على آخر ويسكن إليه... ثم يغيب عنه ويتركه للوحدة والخوف. لم يتحدث فوّاز مع حسين كثيراً في ليلتهما الأخيرة، بل ظل صامتاً أغلب الوقت وكأنه يروض نفسه على الوحدة التي سيلاقيها بعد أن ينفصل عن صديقه في الغد، وما زاد حديث الصديقين يومئذٍ عن بضع كلمات يطمأن بها فوّاز على حال حسين، وقد لاحظ فوّاز أن عدد المرات التي يذهب فيها حسين إلى الخلاء قد قلت فاطمأن على حاله.

- إن كنت تريد أن نمكث هنا غداً لبعض الوقت حتى نطمأن على حالك فلا ضير.

اتكأ حسين من نومته وقال ممسكاً ببطنه:

- لا داعي يا أخي، أشعر بتحسن كبير اليوم، وربما غداً فارقني السقم ، ثم أني أخاف أن ينفذ عنا الماء والزاد مما جمعنا خلال رحلتنا، فلنقتسم ما لدينا غداً وليتخذ كل منا وجهته.

- نظر فوّاز إلى الفراغ أمامه في يأس وقال: سأذهب لأريق الماء.

فلما انتُضيَ[38] نَصلُ الصباحِ، وبرزَ جيشُ المصباح[39] حيا الصديقان أحدهما الآخر وودعا بعضهما البعض بضمة طويلة ثم افترقا كلٌ في طريقه، ما كان يتصور فوّاز أن يتعلق بحسين كل هذا التعلق، ورغم قصر المدة التي عاشره فيها... فقد كان يشعر أن بينهما أخوة وودٍ وإخلاص، ولعل الله يجمع بينهما مرة أخرى على خير، فهو على ثقة أن حسين لن يخذله ما احتاج إليه... وهو كذلك.

في الأيام التالية عاود فوّاز الإحساس بالوحشه وعاوده إحساسه بتفاهة الحياة وانعدام جدواها، وتمنى وقتها أن يخرج عليه وحش من وحوش الفلاة فيخلصه من حياته البائسة، حتى الصلاة باتت ثقيلة على نفسه ينفذها وكأنه يقوم بحركات محفوظة بغير أي خشوع حقيقي، بل وكثير ما كان ينسى مواعيدها، وزاد من شعوره بالوحشة والكآبة عدم قدرته على الاستحمام طوال تلك الأيام الطوال فأخذت الحكة تتمكن من جسده وشعره.

كان فوّاز يتمنى الخلاص[40] بكلِ إخلاص.

****

لعنة الخمر

قراقورم 635 – 638هـ

جلس عسكر التتار يحتفلون داخل خيمة كبيرة... فرحون بتلك الفتوحات المتواصلة التي حققوها تحت قيادة أجوطاي، وتمَّ توزيع الخمر على الجميع، وتطوع أحد الحضور لآداء طقوس الشرب، فقام برش قطرات الخمر جهة الجنوب ثلاث مرات وهو راكع على ركبته وذلك احتراماً للنيران ثم إلى الشرق احتراماً للرياح، ثم إلى الغرب احتراماً للماء، ثم إلى الشمال لتحية أسلافهم من الموتى، بعد أداء طقوس الشرب صاح الجميع في بهجة... وبدأوا في احتساء الخمر.

أثناء اجتراع الشراب، قام أحد قادة الألف بشد تولوي من أذنه، يريد أن يتحداه في الشرب[41]، فصخب الجميع وأخذوا ينظرون إلى تولوي في حماسة وترقب... وهم يقرعون المناضد أمامهم بأكواب الشراب، اقترب هولاكو من أبيه وأخذ يقرب إليه كوب الشراب ويبعده عدة مرات لإثارة شهيته على الشرب حتى سلمه إليه في النهاية، أخذ تولوي يعب من الخمر بغير انقطاع فيقع بعضه في جوفه وأكثره على صدره... حتى هزم خصمه هزيمة مُبينة وسط صيحات التهنئة والتشجيع من الحضور.

بعد مرور عدة ساعات قضاها الجميع في الشرب، قام تولوي يترنح بعد نهاية الاحتفال صحبة ابنه هولاكو ليوصله إلى خيمته، وعندما وصلا إلى مدخل خيمة تولوي وجد هولاكو دوقوز زوجة أبيه تنتظره بقلق على باب الخيمة، فنظر إليها هولاكو بتوتر وهي غير عابئة به تتفرس ملامح زوجها الذي انهكته الخمر وغيَّبَت وعيه تماماً، قامت دوقوز بإسناد زوجها من الجانب المُقابل لهولاكو حتى قاما بإيصاله إلى فراشه، واضجعه هولاكو على الجانب الغربي من الفراش، فقد كان من عادة المغول أن يتضجع الرجال على الجانب الغربي من الفراش والنساء على الجانب الشرقي، اختلس هولاكو نظرة أخرى لزوجة أبيه فوجدها مُنشغلة بزوجها فانصرف بغير أن ينبس بكلمة.

- لقد أكثرت الشراب يا تولوي.

قالتها دوقوز بلومٍ لزوجها.

- هل تخافين عليَّ يا صغيرتي.

رد تولوي عليها بعين زائغة.

- ومن لي غيرك أخاف عليه يا أميري، إنك تفرط في الشراب، كعادة جميع قومك.

- أخيراً قد منَّ التنجيري عليَّ بزوجة حقيقية تحبني وتحتضن آلامي.

غاصت دوقوز برأسها أكثر داخل صدر تولوي واحتضنته بقوة مشتمة رائحة الخمر العالقة بملابس زوجها:

- عمري فداك يا أميري وحبيبي.

- بل أنا عبدك يا دوقوز، قد ملكتيني بحبك ورعايتك، لكم افتقدت أن اسمع كلمة إطراء واحدة من سرقوقتاني بيكي أم أولادي.

- دعك منها الآن، فهي لم تقدرك حق قدرك فأنت أمير شريف قوي من الداخل والخارج لا مثيل لشجاعتك.

- ما قصدك؟

قالها تولوي راغباً في سماع المزيد من كلمات الإطراء، وفهمت دوقوز مراد زوجها فابتسمت وأكملت:

- أنت لست صاحب بأس في القتال فقط يا حبيبي... بل أنت صاحب حكمة ومبدأ، فقد رضيت بما قضاه والدك من أن يكون أخاك أجوطاي خاناً من بعده.

- ما كان لي أن أخالف أبي في أمر، فرغم أنه عزلني عن قيادة الجيش وكلفني بحماية النساء والأطفال بغير ذنب اقترفته، لكني رضيت بقضاءه وما كرهته قط.

- وهذا عين ما أقول، فقرارك بعدم مُعاداة أخيك كان يحتاج إلى قدر كبير من كبت شهوة السلطان والملك، وقد كنت أنت على القدر الكافي من القوة لتكبت الشهوة داخل نفسك، فليس القوي من يستسلم لغضبه ورغباته، بل هو من يجاهد شهوته وقد فعلت.

- وما كان بوسعي عمله غير هذا يا دوقوز، فأبي قد دفع الثمن غالياً وجاهد حتى يوحد بين قبائل المغول والتتار، وعانى حتى يلتزم الجميع بشريعة الياسا، فقد كنا في حاجة إلى التوحد وكنا في حاجة إلى عقيدة وقانون يحكموننا، أبعد البناء أشرع في الهدم!.

- قد كان الجيش يدين لك بالولاء بعد وفاة أبيك ولمدة سنتين وكان أخوك أجوطاي خان لا يملك إلا وصية أبيك له، فكنت تملك أن تحاربه لكنك

أمسكت، ودافعت عن شرعيته وساعدته في فتوحاته طوال كل تلك السنوات، بل وحتى أبناؤك قد وظفتهم لخدمة الإمبراطورية التتارية.

دفن تولوي أنفه في رأس دوقوز ليشتم عبير شعرها الدافئ وقد نقلت إليه شعور مريح بالرضا عن النفس والمآل، وهو الذي طالما سائل نفسه، هل ما قام به هو الصواب؟.

دارت الدنيا بتولوي وهو على هذا الحال وبدا وقتها كل شئ تافهاً، فهو يسامح سرقوقتاني بيكي على إساءتها الدائمة إليه وإغفالها لشأنه، وهو كذا غير ناقم من أبيه أن ولى أجوطاي من بعده، وهو أيضاً على يقين أن معاضدته لإخيه بعد موت أبيه كانت عين الصواب، أغمض تولوي عينيه وهو لازال حاضناً لزوجته مستنشقاً من عبير شعرها.

ولكن فجأه اجتاحته ذكريات سيئة، وكأنها وحوش ضارية ترمح في مخيلته... فهو لم يكن عظيماً إلى هذا الحد عندما استسلم لشهوة السُلطة عندما فتح خراسان وعبث بقبر هارون الرشيد الخليفة المُسلم، وكيف أمر بفصل الرجال والنساء والأطفال من الأسرى، فقام باستحياء النساء والأطفال وقتل الرجال كالنعاج أمام ذويهم، لا شك أن ما فعله آنذاك كان غير عظيم بالمرة، تاه تولوي في أفكاره مُرتعباً غير عالمٍ أنه لن يفتح عينيه مرة أخرى.

****

لم تمر سوى أيام قليلة على موت تولوي والد هولاكو وها هو الابن ينظر إلى دوقوز امرآة أبيه باشتهاء. "ما بالي اشتهي زوجات آبائي في كل مرة!!"، قالها هولاكو لنفسهِ مُتعجباً، لكنه كان يعرف الرد فالسر يكمن في قولان زوجة جده... تلك المرأة التي غمرته بحبها.

فقد حزن عليها حُزناً شديداً لم ولن يحزنه على حي، حتى أنه بكى وشق ملابسه يوم علم بخبر وفاتها، وقد أعزى جده جنكيز خان ذلك إلى شديد تعلقه بها كأمٍ له، وكان فيما اعتقده جنكيز خان جزءاً من الحقيقة، لكن لم يخطر بباله أنَ حفيدة كان يحب زوجته حب رجل لامرآة.

وقد كانت دوقوز نُسخة أخرى من قولان في الشكلِ والروح، فقد كانت تملك شعر قصير أسود كلون الليل كما قولان، وكانت رقيقة مُتسامحة كما قولان ولون بشرتها أبيض خمري كما قولان، حتى نهديها كانا صغيرين كأختها، فلم تكن لديها تلك الصدور الضخمة المتدلية الخاصة ببني جلدته، لكنه لم يفكر بها كزوجة إلا من بعد وفاة أبيه.

كان هولاكو يعلم أن أمه سرقوقتاني بيكي سوف تعترض على هذا الزواج، فهي لا تحب دوقوز... بل تحتقرها وتحتقر تولوي أنه اختارها وبدَّاها عليها، والآن الأمر يزداد صعوبة، فـ "سرقوقتاني بيكي" ترى دوقوز صارت لعنة تحصد من حولها من الرجال لتسيطر عليهم وتقصيهم عنها.

- أتنتوي بالفعلِ الزواج من تلك الماكرة دوقوز؟.

قالتها أمه بغيظٍ شديد، رد هولاكو باقتضاب بغير أن ينظر إليها:

- نعم.

- وما يعجبك فيها، يمكنك أن تتزوج بعذراءٍ تُسعدك ولم يمسسْها رجل قبلك.

هولاكو ببرود:

- لو شئت لفعلت، لكني أريد دوقوز تحديداً.

- أنت لا تعرف مصلحتك، سوف تسيطر هذه المرأة على مُقدراتك وتُميتك مثلما أماتت أباك صغيراً[42].

- كفى تخريفاً واغربي عن وجهي، فأنتي من أماتَت أبي صغيراً بتجاهُلك المستمر لهُ وانشغالك الدائم عنهُ.

اصفرَّت أعين سرقوقتاني بيكي من الغضب ونظرت إلى هولاكو بتصميم:

- لن يتم لك ما تريد، لسوف أمنعك.

ضحك هولاكو:

- وما سبيلك إلى ذلك يا أمي العزيزة، فأنا بالغ الآن وأملك زمام أمر نفسي.

- سوف أخبر أخاك منكو ولسوف يمنعك ابتغاء مرضاتي.

- لا أنت ولا منكو ولا أي بشر يستطيع منع ذلك الزواج ولا حتى دوقوز نفسها.

أنصرفت سرقوقتاني بيكي عن هولاكو وذهبت لتكيد له عند أجوطاي لما استيأست منه، وقد اخذت على عاتقها قضية منع ذلك الزواج كأنها مسألة حياة أو موت، فهي لن تسمح لتلك الحقيرة أن تتزوج زوجها وابنها فقررت مقابلة أجوطاي خان ليساعدها.

- أجوطاي: أهلاً سرقوقتاني بيكي زوجة أخي تولوي ووالدة قوادي العظام.

- سرقوقتاني بيكي: دمت لنا يا خاننا العظيم.

- أي رياح طيبة ألقت بك هنا.

- هو هولاكو ابني يريد أن يتزوج تلك المأفونة دوقوز.

رغم أن أجوطاي كان سكيراً شأنه في ذلك شأن الكثير من رجال المغول فقد كان معروفاً بالحزم والذكاء الشديدين، وكان جانب الحكمة هو الغالب على شخصه دائماً وقد مَرَت سنوات كثيرة لهُ في المُلك فصقلته على موهبته، فرد عليها باستعجاب:

- وما شأني أنا بزواج هولاكو يا زوجة أخي؟

- أليس أبنائي هم من عاضدوك في ملكك؟ وساندوك بكل ما أوتوا من قوة؟

- وهل أرد لهم الجميل بأن أتدخل في حياتهم الشخصية!

- هي ذات تأثير طاغٍ على كل من تقترب منه، قد تؤلبه عليك.

ضحك أجوطاي ملء شدقيه:

- أوااه من كيدكن أيها النساء، أنت تتحدثين مع خان التتار يا سرقوقتاني بيكي، وتردين عليه مثل هذا الرد الخالي من المنطق.

سكتت سرقوقتاني بيكي في انتظار المزيد من البيان، فطفق أجوطاي يكمل:

- أنسيت أن دوقوز كانت تحت أخي تولوي ردحاً من الزمن وكان من أخلص جنودي، فما فكر في خيانتي قط... حتى بوجود الجيش التتاري كله في قبضته لمدة طويلة من بعد موت أبانا جنكيز خان.

سكتت سرقوقتاني جراء منطقية رد أجوطاي، فأكمل:

- وما كنت أظن الغيرة تبلغ منك هذا الحد، أتورطين ابنك مع خان التتار في سبيل أن تمنعيه من زواج لا ترضين عنه.

- كنت فقط أريدك أن تعقّله، فهي غير مناسبة له.

- هو من يقرر يا سرقوقتاني بيكي، لتدعي هولاكو وشأنه، فلا تسمح لنا الياسا باجبار أحد على الزواج، ولو كان الأمر كذلك لأرغمتك على الزواج من ابننا كيوك، لكنك رفضت وانحزت إلى أسرتك واحترمت أنا رغبتك "كان صوت أجوطاي لا يخلو من الشماته وهو يتفوه بعبارته الأخيرة".

ردت سرقوقتاني بيكي على مهلٍ بنبرة غاضبة:

- أسفة على ما بددته من وقت خاننا العظيم.

استأذنت سرقوقتاني بيكي أجوطاي في الانصراف ثم غادرت مجلسه غير راضية.

****

كانت دوقوز هي الوحيدة التي عاصرت سكرات موت زوجها تولوي، لذا لم يكن مسموح لها أن تجالس الآخرين مدة من الزمن، وذلك تطيراً أن يُصيبُ من تجالسه مثلما أصاب زوجها، لكن ذلك لم يمنع هولاكو أن يذهب إليها في عزلتها يحاول استمالتها...

- صدقيني يا دوقوز لن تندمي على اختيارك لي زوجاً.

- لكنك لست على ديني يا هولاكو، وديني يمنعني أن اتزوج غير مسيحي.

- لكنك تزوجت من أبي تولوي، فما يمسكك إن تتزوجيني أنا هذه المرة.

- قد تزوجته وقد تنيح، ولا يوجد ما يجبرني أن أتزوج من هو على غير ديني مرة ثانية.

- أهذا هو الأمر الوحيد الذي يمنعك من أن تتزوجيني.

- هو من أكبر الموانع يا هولاكو، ثم حتى وإن تحولت إلى المسيحية، فما أفعل في حرمتك المؤبدة علي وأنت ابن زوجي الراحل.

- لكن الياسا لا تمنع المرء أن يتزوج من حليلة أبيه.

- لكن شريعتنا تمنع.

- أفٍ عليكِ وعلى شريعتك يا دوقوز، ألم تتزوج قولان اختك المسيحية من جدناً جنكيز خان فأكرمها وشرفها بتلك الزيجة وقد كانت أسيرة ذليلة، وأنت ألم تتزوجي من قائد جيوش التتار العظيم أبي تولوي وقد لمستِ فيه من حُسن المَعشر وكمال الرجولة ما لم تلمسيه لدى غيره من الرجال.

- الحق أقول إن أباك كان نعم الزوج، وقد تلاقت روحانا وأحسست بالأمان والاستقرار في كنفه، ولم أجد منه إلا كل ما هو طيب.

- فلم تترددين الآن، وأنا امتداده في هذه الدنيا، وسوف أغمرك بالحنان والعطف مثلما غمرك هو ولن تجدي مني السوء أبداً.

- أنت مُحرم علي حرمة مُضاعفة لاختلاف الدين ولسابقة زواجي بأبيك.

- ما أرى لي في الدنيا غنى عنك، ولن أتخلى عن زواجنا مهما كلفني الأمر من ثمن.

أجفلت دوقوز من استماتة هولاكو على مبدأه وتمسكه بزواجهما رغم إعراضها عنه، فأحست لوهلة بميلٍ إليه وانفرجت ملامح وجهها للحظة عابرة. لكنها ارادت الاستوثاق من صلابة الأرض التي ستطأها فقالت:

- يعجبني تمسُكك بي يا هولاكو، لكن ما سبب هذا الميل المفاجئ إليَّ من بعد وفاة أبيك.

أمسك هولاكو عن الكلام عاجزاً عن الرد، فأكملت دوقوز:

- أترى للشبه الكائن بيني وبين اختي المتنيحة[43] قولان دخل في الأمر، أعرف أنك كنت هائماً بها، وهي أيضاً كانت تحبك وترعاك رعاية الأم للولد.

الشبه الكائن بينك وبين قولان سبب من الأسباب التي تحرك رغبتي في الزواج منك. اعترف هولاكو مُستسلماً.

- أهو سبب من الأسباب أم أنه كل الأسباب؟

سألته ساهمة، وقد أمسك عن الرد وكأنه طفل صغير في حضرة أمه تعنفه عن سوء فعاله، لكنه صاح في النهاية:

- ألا يكفي أني راغب فيكي يا دوقوز، فلما كل هذا الدلال والتمنع.

- الأمر ليس كذلك يا هولاكو وإنما هو ديني الذي يمنعني، دعني أسافر إلى قس اعترافي فاستفتيه في زواجنا، واعدك من بعدها بالرجوع إلى قوراقورم لأكون زوجة مخلصة لك وللأبد.

- لك ما تريدين يا دوقوز، "قالها كارهاً" ثم أكمل: ولسوف أرسل معكِ جماعة من أفضل الرجال لتقوم على خدمتك وحراستك طوال الطريق وحتى رجوعك سالمة إليّ لننعم بزواجنا إلى الأبد.

- لتكن مشيئة الرب يا هولاكو.

وقف رجل من فقراء اليهود يترقب مرور موكب أجوطاي الخان التتاري العظيم، فهو يعلم أنه يمر من هنا يوم الثلاثاء من كل أسبوع ليتفقد أحوال شعبه ويطمئن على أحوال رعيته، وكان الفقير اليهودي قد جَهَزَ ثمانية من العصي في طرف كل واحد منهم شكل لبومة مصنوعة من النحاس وأراد عرضهم على الخان لعله يشتريهم منه ويخلصه من الفقر، جرت الدماء في أوردة اليهودي الفقير... فها هو موكب الخان يقترب، لكنه الآن يتردد ويده المُمسكة بالعصا ترتجف خوفاً، لكنه تجرأ عندما تذكر أبناؤه وزوجته وأنه لا

يملك ما يسد رمقهم طوال الأيام الماضية، فليقترب من الموكب وليكن ما يكون...

- ماذا تريد أيها الرجل؟

قالها أحد الأمراء المحيطين بأجوطاي مُسائلاً اليهودي.

- أريد أن أعرض على الخان بضاعة لي... قد يكون له فيها حاجة.

- دعني أرى ما تريد عرضه.

رفع اليهودي يده الممسكة بالعصي ليراهم الأمير، فتناول الأمير إحداها وأخذ يتفحصها في دقه، وأخذ اليهودي يترقب أسارير وجه الأمير في قلق، فقد كان من الواضح أنه غير راضٍ عن دقة صناعتها، فالبومة الموضوعة فوق العصا غير دقيقة التفاصيل والعصا نفسها لا تليق بأن تعرض على أجوطاي خان التتار، فما له بها حاجة.

- العصا لا تليق بخاننا العظيم، فلتذهب وتبيعها لغيره من التجار الموجودين في السوق.

أطرق اليهودي برأسه وهم بأخذ العصا من يد الأمير ففوجئ بصوت أجوطاي خان يتسائل:

- ما الأمر؟

- هذا التاجر اليهودي قد أتى ببضاعة لا تليق ويريد عرضها عليكم.

- وما طبيعة البضاعة؟

- مجموعة من العُصي مثبت فيها مجسم لبومة أعلاها، لكن تلك العصي غير دقيقة الصنع.

- أجوطاي لليهودي: در ناحيتي ودعني أرى صنعتك.

توتر اليهودي وخاف أن يزجره الخان بعقوبة ما... كونه تجرأ وعرض عليه بضاعة لا تليق، لكن ما باليدِ حيلة ... فانصاع اليهودي لأمر أجوطاي ودار ناحيته يعرض عليه العصي ذات المُجسمات، وأخذ أجوطاي يقلب العصي في يده:

- ليست بهذا السوء، يُمكننا شراؤها من الرجل ليتم توزيعها على بعض الرعاة حتى يستخدمونها لرعي أغنامهم، سوف يحبون شكلها.

ظهرت على اليهودي إمارات الفرحة بما يقوله أجوطاي لكنه ظل صامتاً، فأكمل أجوطاي:

- بكم تلك العصي أيها التاجر.

- جميعهم هدية لك يا خاننا العظيم.

- أكره التملق يا هذا، وهم ليسوا لي، وإنما سوف اشتريهم منك ليتم توزيعهم على الرعاة، ويمكنك أن تصنع مثلهم لتبيعهم إلى من يمتهنون مهنة الرعي فسيكونون في حاجة لها وسيحبون شكلها.

- سمعاً وطاعة لجلالة الخان.

أمر أجوطاي أميره بدفع مبلغ مناسب من المال إلى اليهودي ثم تقدم بركابه ليتفحص باقي السوق، نظر الأمير إلى أجوطاي متسائلاً:

- لم اشتريت هذه العصي ومالك بها حاجة، كان يمكن أن توجهه لبيعها إلى الرعاة بغير أن تشتريها منه.

- هو فقير في حاجة إلى المال لذلك حاول بيع تلك العصي لي وكأنه يشحذ.

- فلمَّ لم تعطه المال وتترك له العصي يبيعها إلى غيرك فيستفيد من الجانبين.

- لا أريد أن أدعم سلوك الشحاذة في بلادنا، لكني أشجع العمل، لذلك أردت للرجل أن يعلم أنه يجب أن يعمل حتى يحصل على مقابل، ثم أن صنعة العصي ليست بهذا السوء، فقط هي تحتاج إلى قدر أكبر من الإتقان في الصنعة، فوجب تشجيع الرجل عله يستطيع انتاج ما هو أفضل.

أقبل ساقي الإمبراطور من خلف أجوطاي بكأس من الخمر ليضعه في يده ثم تراجع بجزعه إلى الخلف منحنياً في احترام، تناول أجوطاي الكأس من الساقي ليقع بعضه على ملابسه من أثر اهتزاز العربة، تجرع أجوطاي من الكأس جرعة كبيرة حتى لا يقع المزيد على ملابسه.

- الأمير: سامحني يا خاننا العظيم، أنت تسرف في الشراب ليل نهار وهو الأمر الذي حذرك الأطباء منه، ففي الإفراط في الشراب خطر على صحة جلالتك.

- مالك يا رجل، ألا تشعر بشدة الحر الذي نعانيه الآن.

- بلى يا مولاي، لكن يمكن أن تستبدل الخمر بأي من المشروبات المُثلجة الأخرى، فسوف تقوم بنفس العمل وتخفف من غلواء الحر على جلالتكم بغير أن تمس بصحتكم الغالية، وأذكر جلالتك بتوجيه أباك العظيم جنكيز خان أن تتقي الخمر ما استطعت، ألم يأتي في الياسا أن "إياك وشرب الخمر فوق ثلاث مرات في الشهر، ومن الخير لك ألا تشربها أبداً، فإن مثل السكران كمثل من أصابته ضربة على أم رأسه ففقد وعيه".

- أجوطاي مُتأثراَ: قد عينوا لي مُراقبين على الشراب من أقاربي حتى لا أفرط في احتساء الخمر، فهم يخافون أن يصيبني منها مثلما أصاب أخي تولوي.

- الحق كل الحق معهم يا مولاي، فحياة جلالتكم يتوقف عليها سداد خطى الملايين من شعب المغول والتتار.

تجرع أجوطاي ما بقي من الكأس غير عابئ ثم أمر الركاب بالالتفاف والرجوع إلى البلاط، فاستجاب الركاب بالفعل وأخذ يسلك طريقه عائداً إلى القصر.

جلس أجوطاي على كرسي العرش مُحدقاً في الفراغ وقد أصابته لطشة السُكر يبحث في رأسه المنملة عن أفكار بعيدة لا يستطيع الامساك بها، حاولت إيباقا بيكي أخت سرقوقتاني زوجة تولوي السابقة أن تُثنيه عن شرب الخمر لكنها كانت دوماً ما كانت تفشل في ذلك، جلست إيباقا ساهمة ترقب أجوطاي عن بعد... حتى اقترب منها منكو شقيق هولاكو:

- ما بك يا خالة؟.

- ألا ترى تراه!! (مشيرة لأجوطاي بطرف عينها وهو يجلس ساهماً) إنه لا يكف عن مُعاقرة الخمر رغم تيقنه أنها من أفنت أباك تولوي.

- إن تلك الخمر للعنة أصابتنا جميعاً.

قالها منكو بأسى.

- إيباقا بيكي: واني لأشفق على نفسي من تلك المسئولية الجسيمة التي تم إلقاءها على كاهلي، فكيف لي أن أمنع الخان عمَّا يريد.

- قد اختار المُقربين من أجوطاي إحدى قريباته حتى تستطيع منعه عن الخمر بحرية بغير أن تكون هناك حساسية زائدة في التعامل مع هذا الأمر من قبله.

- أعرف لكن أجوطاي لا يستجيب، وبعد أن توصلت معه لحل وسط، وهو أن يقلل عدد كئوس الخمر التي يتجرعها يومياً، عاد واختار كؤوساً أكبر حجماً من سابقتها، ليحافظ على نفس كمية الخمر المحتساه يومياً.

وبينما هم على حالهم ذاك ناظرين إلى أجوطاي بإشفاق يستأذن أحد الحراس في دخول أحد رجال القبشاك على الخان:

- أجوطاي: وما يريد رجل القبشاك.

- الحارس: يقول أنه يريد جلالتكم لأمر هام.

لا يجيب أجوطاي لكنه يشير بيده سامحاً للرجل بالدخولِ، فيدخل رجل القبشاك منحنياً... مُظهراً إمارات الخضوع التام.

- ماذا تريد يا رجل؟

- هو أمر جلل يا جلالة الخان، فقد انتهكت شريعة الياسا في السوق اليوم بعد انصراف جلالتك عنه.

- تكلم يا رجل.

- قد اشترى أحد المسلمين شاة من السوق اليوم، وقد اتبعته في شوارع السوق حتى دخل منزله، والتففت حول المنزل حتى استطعت أن أقف على شقٍ أشاهد منه ما يفعل في الداخل فوجدت الرجل وقد ذبح الشاة من رقبتها مخالفاً شريعة الياسا التي تقضي بضرورة أن يكون قتل الشاة بواسطة شق صدرها أو أن يتم ضربها على أحد أكتافها، فهممت إليك سيدي لأخبرك بتلك الفجيعة.

سكت أجوطاي لوهلة وقال: ما دليلك على ما تقول؟

- رأس الشاة لازالت في صحن بيت هذا المسلم يا مولاي وإن عاينت تلك الرأس لعرفت أن تلك الشاة مذبوحة.

- لكنك كذلك قد انتهكت شريعة الياسا...

نظر الرجل إلى أجوطاي في رعب: وكيف ذلك يا مولاي.

- ألم تتجسس على ذلك الرجل المسلم لتعلم ما يفعل في الخفاء.

أسقط في يد الرجل وصمت وكأن على رأسه الطير ثم أجاب بصوت خفيض:

- ما انتبهت إلى ذلك يا مولاي، فقد أردت إثبات تلك الجريمة الشنعاء في حق ذلك المسلم فلم أفكر في غير ذلك.

ضحك أجوطاي:

- لكن القانون هو القانون يا أيها الرجل، وأنت تعلم عقوبة التجسس على الناس في الياسا.

ثم أشار بيده إلى أحد حراس بلاطه فلم يتم إمهال الواشي، فانطلق الحارس بسرعة البرق ليحرر حسامه من غمده ويضرب عنق الواشي ضربة واحدة لتطير رقبته في الهواء وتتدحرج على الأرض فقام أجوطاي مترنحاً لينظر إلى أعين الرأس المفصولة مباشرة ويتأمل فيهما بفضول... ليرى الهلع بادياً على صاحبها، وظل يحدق في تلك العيون لوهلة محاولاً تلمس الحدود

الفاصلة بين الموت والحياة وهو يرى روح الرجل الطازجة تغادر رأسه المبتورة، فيخبو بريق الحياة من تلك الأعين للأبد.

****

مرتْ الأيام ولازال أجوطاي يُعاقرُ الشراب لا يستطيع أحد منعه ولا حتى إيباقا بيكي المعينة من قبل الأسرة المالكة لتسيطر على ميل الخاقان إلى الشراب، وبينما كان أجوطاي ساهماً في عرشه من أثر الشراب سمع حاجبه يستأذنه في دخول رسول الأمير باتو ابن جوتشي ، فأشار أجوطاي بيده أن دعوه يدخل، وما أن دخل الرسول حتى بادره أجوطاي:

- أسمعنا ما في جعبتك أيها الرسول.

- خير يا مولاي، يبلغ الأمير باتو (ابن أخيكم) جلالتكم أنه استطاع احتلال روسيا بالكامل.

- انه بالفعل خبر سعيد، باتو قائد قوي صنديد لا عجب أن استطاع احتلال أوروبا كلها في عامين فقط.

- بل واستطاع فتح كييف وأوكرانيا قبيل تحركي بقليل وكان على وشك الوصول إلى بولندا.

أجوطاي شبه هازياً:

- المجد للمغول والتتار، المجد للمغول والتتار، ثم تحركت شفتاه وكأنه يحدث نفسه، أترى يا أبتي ما حققته من نصر، أتدرك كم الأراضي التي دخلت في سلطانك، باركك التنجيري أيها الأب الصالح والقائد الهُمام.

لم يستطع الرسول تبين كلمات أجوطاي لكنه عرف أنه سعيد بما سمع:

- أدام الله السعادة على مولاي وأكثر من فتوحاته.

وما لبث أن سمع أجوطاي حاجب البلاط يعلن عن مقدم رسول آخر:

- ما بال الرُسُل اليوم؟ لعله خبر سعيد آخر.

دخل الرسول وانحنى في احترام:

- عمت مساء يا مولاي الإمبراطور.

نظر إليه أجوطاي في ملل يريد معرفة ما لديه، فقد كان ملولاً لا يطيق المقدمات.

فقال الرسول الثاني:

- أطال الله عمر مولاي فقد توفى مولاي الأمير شاجاتاي[44] اليوم.

هبَّ أجوطاي من مجلسه وكأنه أفاق بغتة:

- ما بال الموت يحصد في ذريتك يا جنكيز خان، أهي لعنة جماجم أعدائنا التي طالما احتسينا فيها الخمر، أم هي دعوات نسائهم اللاتي ترملن مبكراً؟.

سكت أجوطاي ثم نظر لمن حوله مبهوتاً وقد طأطأ الجميع رؤسهم في الأرض ورجع الرسول الثاني خطوات للخلف خائفاً من ردة فعل أجوطاي ورائحة الخمر تفوح من فمه، فقراراته الآن غير مأمونة وقد جن جنونه.

أكمل أجوطاي:

- ثم أين أنت أيها التنيجيري، لماذا لا تحمي ذرية جنكيز خان العظيم من عواصف الموت الجائحة، ألم يمجد جنكيز اسمك، ألم يَصُغ الياسا من أجلك، ألم نعبدك ونقدسك من بعده، لم سمحت للموت أن يقتل تولوي وهو لايزال شاباً، وكأنك لم تكتفي مما أخذت من ذرية عبدك الوفي جنكيز خان فقبضت ابنه الآخر ... أخي شاجاتاااااااي.

نطق أجوطاي باسم أخيه في قوة وهو يمد رأسه للأمام فبدت عروق رقبته ظاهره وحبات العرق مصفوفة على جبينه في ترتيب منضبط.

- ها أنا ذا أيها التنيجيري فلتقبض روحي إن شئت، فلتستجب إلى أولئك الضعفاء المقهورين أعدائنا، فلتصغي جيداً لصرخات نسائهم ولتلبيها، فلتقبضني أيها التنيجيري فما عادت بداخلي رغبة للحياة.

وكأن التنيجيري كان حاضراً وقت ما كان أجوطاي يدعو ثبوراً، فمات بعد هذه الواقعة بعدة شهور من بعد ما ساهم في اتساع رقعة مملكته إلى أقصى حدودها، فلم تفلح محاولات ذويه في إثناءه عن معاقرة الخمر فانطلق بأقصى سرعة نحو الهاوية ليموت ميتة كميتة أخيه تولوي وقد دام حكمه 13 عاماً.

****

إعصار الشرق يهدأ

قراقورم 638هـ

من ضمن الخطوات الإصلاحية التي أنجزها جنكيز خان أنه أنشأ القوريلتاي، وهو بمثابة دار الندوة أو مجلس الشورى بالنسبة للمغول والتتار، فلا يتم القطع في أمر يخص السياسة والتوجهات العامة للأمة التتارية إلا بعد انعقاد القوريلتاي وإقراره لما سوف يتم اتخاذه من قرارات، وكان منكو بن تولوي من الأمراء القادة الذين لا تُرد لهم كلمة في المجلس، وكان غير مُتحمس لانتخاب كيوك كخاقان للتتار، لكنه اضطر للموافقة... فقد هيئت أمه تورجيني الإماره، ومع ذلك استدعاه كيوك ليشكره أن دعمه أمام القوريلتاي.

- أشكرك يا ابن العم وأقدر فضلك أن دعمتني لأخلف أبي أجوطاي لقيادة المغول والتتار.

- هو أمر تستحقه يا كيوك، فطالما كنت مُقاتلاً صنديداً وقد ركبت من المخاطر ما تجنبه غيرك في سبيل سمو هذه الأمه.

- كان يمكن أن تفكر في نفسك وأنك الأحق بالخلافة مني خاصة وأنت منكو ابن تولوي القائد العظيم.

- دعنا لا نفكر بتلك الطريقة البائسة، فليس من الهام من منا الإمبراطور ومن الأمير ومن الجندي، فكلنا تروس في الماكينة التتارية العملاقة، وكل منا فعال في مكانه لتحقيق الهدف الأسمى وتحقيق المجد لأمتنا العظيمة.

- بسبب تضحياتك أنت ومَن هُم مثلك من آل جنكيز خان وصلنا إلى ما نحن عليه، فأبوك تولوي قد زهدَ في المُلك وكان قادراً على انتزاعه من أبي أجوطاي من بعد ما استأثر بقيادة الجيش لعامين كاملين، وها أنت ... وأنت من أنت، تدعمني وتوحد الكلمة من حولي حتى لا يحدث الشقاق بين الشعب المغولي.

- والدك المأسوف عليه كان أحق اخوته بالملك فقد جمع بين شجاعة الجندي وعدالة الملك، فقد اختاره جدي جنكيز خان كونه ألين أولاده عريكه واسمحهم نفساً وأكرمهم خلقاً وأنقاهم سريرة، وكما ذكرت لك ليس من الهام أن نحقق مجد شخصي، لكن الهام أن نحقق مجد الأمة.

- بل قد تحقق مجدك وعلا اسمك وسوف تتردد أصداؤه في جنبات الأبدية، فمن السهل أن يقاتل المرء اخوته ليصبح خاقاناً لكن من الصعب عليه أن يقاتل نفسه ليكبح شهوة الملك فيها، وهي لله شهوة عظيمة.

- باركك التنيجيري أيها الخاقان العظيم وأعانك على شئون الملك.

- بل أنت المبارك أيها القائد المغوار، ما حرمت من دعمك ما حييت يا منكو.

- الآن وقد استقرت الأمور دعني أتفرغ الأيام القادمة لأعيد شحذ الجحافل وأعاود التحرك لمُلاقاة العدو، فأنا الآن مطمئن أن قراقورم في يد أمينة.

- لكني في حاجة إليك هنا بجانبي يا ابن العم.

- بجانبك الكثيرون من رجال السياسة الذين يستطيعون إعانتك على ما تحب.

- أخشى أن أغضبك لكن ما أظن الحال سوف يستمر على ما هو عليه في الأيام القادمة فيما خصَّ الحروب والفتوحات.

- ماذا تعني يا كيوك؟، قالها منكو وقد بدى على وجهه إمارات القلق والاضطراب.

كيوك متوتراً:

- نحن الآن قد فتحنا أصقاعاً شاسعة من الأرض، فلا ضير أن نتأنى قليلاً لنوطد لمُلكنا في تلك البلاد التي قمنا بفتحها.

منكو وفي صوته مسحة من غضبٍ:

- ما كنت أظنك تتوانى عن مواصلة الفتوحات التي بدأها أسلافنا يا كيوك، ولو علمت عنك هذا من البداية لفكرت أكثر من مرة قبل أن أدعمك في القوريلتاي.

- ما انتهيت إلى ما أقوله لك إلا بعد تفكير دام لأيام، فما أريده هو الصالح لأمتنا، فيجب أن نُثَّبت أقدامنا في بلادنا المفتوحة، بدلاً من إضافة بلاد جديدة قد لا نقوى على حفظ النظام فيها.

منكو مُتهكماً:

- أمِّن صالح أمتنا أن نركن إلى الدعة، نحن قوم حرب يا كيوك، أم أراك قد وهنّت عزيمتك وأنت بعد لازلت في أول أيام حكمك.

كيوك مُغاضباً:

- ما وهنت يا ابن العم، وأنت أول العالمين ببأسي في المعامع، وما انتهيت إلى وقف الزحف عن ضعف أو تخازل وإنما عن حكمة وتفكير، فقد آن لنا الآن أن نهتم بالحاجات الاقتصادية لأمتنا، ونولي نظرنا صوب الزراعة والصناعة وغيرها.

هم منكو بالقيام من مجلسه:

- أفعل ما شئت يا كيوك، ولسوف أنفذ أنا ما تقرره أنت، فلن أخالفك الرأي ولن أسحب دعمي إياك في القوريلتاي رغم عدم موافقتي إياك فيما أنت مُقدمٌ عليه.

أخذ كيوك ينظر إلى منكو وهو ينصرف عن خيمته وقد أحدثت خطواته على الحصر المفروشة حسيساً مسموع.

كان كيوك يحدث نفسه شارداً... هل حقاً سينفذ منكو التعليمات الصادرة إليه أم أنه سيعصاه؟، وهل سيحاول تقليب الأمراء وقواد الجيش عليه لأنه سيوقف الزحف؟؟، عندما جال هذا الخاطر بباله مكَثَ فيه وأخذ يتضخم، فهو الخاقان الأول الذي يأخذ قرار بوقف الزحف والحرب، فلم يتوقف أباه ولا جده عن القتال والزحف طوال حياتهما، فحق لأمراءه وقواده أن يثوروا ضده لخروجه عن دائرة المألوف، لكنه عاد وحدَّث نفسه أنه ما فكر في ذلك جبناً ولا استسلاماً وإنما فكر فيه لما يرجوه من مصلحة تعود على الأمة التتارية كلها، وسوف يأتي اليوم الذي يدرك فيه منكو والجميع الحكمة من تلكم القرارات، ويوماً ما سوف يقتنع قواده بصدق نيته في نهضة الأمة وعندئذ سيتغنى الجميع بحكمة كيوك الإمبراطور الثالث لدولة المغول والتتار.

وبينما هو غارق في أفكاره دخل عليه طومان ليسأله عن لوائه المنعقد في صقع بعيد.

- بارك التنجيري في عمر إمبراطورنا العظيم وصرف عنه كل سوء، قالها طومان مُنحنياً ومُظهراً أقصى آيات الخضوع.

- مَرحباً بقائد الجند، إنما أرسلت إليك لشأن هام أيها الطومان.

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

- سوف تتغير سياستنا التوسعية بعض الشئ، ولسوف تلتزم بما فتحته من أراضي الآن وتوطد أقدامك بها.

- سمعاً وطاعة يا مولاي، لكن وددت لو الفت نظر جلالتكم إلى أن ذلك قد يجر علينا بعض المتاعب في قيادة الجيش.

كيوك في غضب ممزوج بالقلق وقد تجددت عليه خواطره السابقة بشأن عصيان الجيش:

- وأي المتاعب تقصد.

- لا يخفى على مولاي أن جنود جيشنا مُتألفين من عدة قبائل مغولية وتتارية تختلف في طباعها عن بعضها البعض، وقد يترتب على قعودنا عن القتال تفرغ أولئك الجنود إلى الاحتكاك بعضهم البعض وإثارة المشاكل.

- لك كل الحق فيما تقول.

تشجع الطومان وأكمل:

- وإن احتك الجنود بعضهم البعض قد يعتدي جندي من قبيلة ما مع آخر من قبيلة اخرى فتتحارب القبيلتان وتقع الفرقة.

كيوك وقد قرر التسلح بالحكمة لتنفيذ ما يراه من سياسة جديدة:

- بالفعل ما تقول جد خطير، لكن الحل قد أرساه جدنا جنكيز خان عندما وضع الياسا، ألم تنص الياسا على ضرورة عدم ترك الجنود في الشتاء قابعين في خيامهم حول مدافئهم يقطعون الوقت الطويل في حديث تافه، سرعان ما يجرهم إلى التنابذ والتنافر والتشاحن، بل يجب الخروج في موسم الشتاء إلى القنص هنا وهناك في طرادٍ مُستمر وراء التياتل والظباء والغزلان والحُمر الوحشية.

- الطومان: نعم يا جلالة الخاقان، لكن قد فرضت الياسا القنص على الجنود في الشتاء لينتهي ذلك مع خروج العشب، فلا أدري ما الحال إن استمر القنص وامتنعنا عن القتال.

كيوك وقد أغضبه استمرار مجادلة الطومان:

- تجاوزت حدودك أيها الطومان، ألم يأت في الياسا أن "القتال بين المغول بعضهم بعضاً محرم"، وأنا لا استشيرك في الأمر وإنما آمرك به، فاغرب عن وجهي ونفذ ما تؤمر وإلا عزلتك.

انحنى الطومان في سرعة وتوتر وانسحب سريعاً من أمام كيوك من قبل أن يُنفذ وعيده.

كانت العادات والتقاليد المغولية تقضي بعدم زواج الأرامل أبداً، وذلك لاعتقادهم أن كل ما كان يخدم الميت في حياته سوف يخدمه في مماته، لكن زواج دوقوز من هولاكو لم يمثل استثناء على القواعد المقدسه، فوفقاً لذات القواعد يكون من الجائز للأبن أن يرث زوجات أبيه فيما عدا أمه، وعندما سمح

الرهبان المسيحيون لدوقوز بزواجها من هولاكو التتاري.... زالت كل العوائق الدينية التي تَحول دون تلك الزيجة.

استعدت دوقوز لخطبتها من هولاكو، ورغم أصولها الغير تتارية... فقد أرادت أن تتَّبع تقاليد الزواج التتارية... فاختفت في بعض الأراضي التي كانت لزوجها، وشرع هولاكو صُحبة إثنان من خلصائه يبحثون عنها في جميع أنحاء الصحراء، ووجد أحد خلصاء هولاكو دوقوز... فنادى على هولاكو بصوتٍ هادر ليأتي ليأخذها كما تقضي الطقوس، وبالفعل حضر هولاكو عدواً حتى وصل إليها وأزال ما تختفي وراءه من صخور في قوة وهمه، حتى قبض عليها وحملها في عنف على كتفه حتى وصل بها إلى خيمة عُرسهما وألقى بها على الفراش وجثم فوقها، سكت الإثنان للحظة ونظرا في أعين بعضهما البعض وقد اختلطت أنفاسه اللاهثة بأنفاسها المُستثارة، قام هولاكو من فوقها في سرعة وتركها لتتجهز، فلسوف يحدث المُراد لاحقاً.

قصَّت دوقوز شعرها من الأمام في النصف الأول رأسها، ودخل عليها النساء يجهزونها للعرس... وذلك حينما انفرد هولاكو بأصدقائه يعاقرون الشراب بغير توقف حتى يأتي المساء فيدخل على زوجة أبيه دوقوز.

****

موت المستنصر بالله

بغداد 640هـ

دخل أحمد على مالك في غرفته وفوجئ به يوقظه من النوم، لكنه سُرَّ ليرى صديقه أول ما استيقظ.

قال مالك وهو يضحك ويغالب النعاس:

- ما الخطب وكيف دخلت إلى غرفتي.

أحمد في حماسة:

- قد حدث أمر جلل، مات الخليفة المُستنصر اليوم[45].

جلس مالك على فراشه وهو لايزال متدثراً بالأغطية وقال:

- أحقاً ما تقول؟!.

- ومالك مُتعجباً ألا يجري على السلاطين الموت.

- بلى ولكن ما حال الناس الآن.

- جئتك لنستطلع الأمر سوياً، فبُرهان والرفاق في انتظارنا خارج عتبة الدار، لنذهب ونحاول تَلَمُس الأخبار من السوق علنا نعرف مَن الخليفة القادم ونحضر دفن الخليفة المستنصر (رحمه الله).

هبَّ مالك من فوق سريره وأزاح ما كان عليه من غطاء وغسل وجهه ثم رجع إلى الغرفة مرة أخرى واستبدل ملابسه، وقام الصديقين بمُقابلة بقية الرفاق خارج المنزل من ثمَّ التوجه صوب قصر الخلافة الواقع خلف المدرسة المستنصرية التي يدرسون بها

- بُرهان: رحم الله الخليفة، قد اجتهد في أمور الحكم ما وَسَعَهُ.

- أحمد: أبي كان يحكي لي عن يوم توليته الخلافة بعد وفاة أبيه الملك الناصر، فقد كان من أحسن الناس شكلاً وأبهاهم منظراً، وهو كما قال القائل...

كأن الثُريا عُلِقَت بجبينه * وفي خدهِ الشِعرى وفي وجههِ القَمَرُ

- أحمد: رحمة الله عليه، كفاه عدله وتقواه وإصلاحه وحسن قضاءه بين الناس.

- بُرهان: ولا تنسوا جهاده، فقد قاتل التتار وأرسل إليهم أخاه الخفاجى فأذاقهم مرارة الهزيمة.

- أحمد: علَّ الخفاجى يخلف أخاه فيكون خير خلف لخير سلف.

- بُرهان: الناس تتداول أخبار في السوق وأن هناك اتجاه لتولية عبد الله الأبن الأكبر للخليفة المُستنصر.

- أحمد: عبد الله!! هو أمير طيب القلب لين العريكة، لكن هل يصلح مثله لتولي أمر الخلافة... لو الأمر بيدي لفضلت عليه عمه الخفاجى، فهو قوي ذو بأس مُحنَّك.

- بُرهان: أتفق معك تماماً ... فالخفاجى رجل مُخلص وهو سياسي قدير ومقاتل صنديد، لكن ما سمعته أن كبار رجال الدولة يتآمرون أن يتم تولية عبد الله بن المستنصر.

- مالك: لكن سُمعة عبد الله بن المستنصر لا تؤهله لما هو مقبل عليه من منصب رفيع.

- بُرهان: هم يرون أن الخفاجى حازم عابس وقد حلف بالله أن يقاتل التتار إن آل إليه أمر الخلافة. وهم لا يريدون أن يسوسهم من هو قوي العريكة... فسوف يجرهم إلى مخاطر وأهوال لا يريدون خوضها.

- أحمد: مم، فما يجبرهم على مساندة من سوف يُضيقُ عليهم الخناق في المستقبل ويجرهم إلى حربٍ لا يريدون خوضها، هم يرون أنهم في نعيم فلا داعي لحروب لن تجر ورائها غير الويلات.

- مالك بتهكُم: وهل يأتون بمَن يُراقبهم ويسألهم عن أموالهم ويحثهم على العمل والبذل!! بالطبع سيختارون من يستطيعون السيطرة عليه.

- أحمد: لكن هل سيترك لهم الخفاجى الأمر حتى يتم تعيين عبد الله بن المستعصم وتجاهله؟ ما أظنه بفاعلٍ.

- أحمد: يقول الرجال في السوق أن شيعته ليست كبيره، لأن الكل يعلم حزمه وشدته في إدارة الأمور، فالجميع يؤثر الطيب الوديع.

ظهرت حركة متوترة قرب القصر... فقد بدأ جثمان الخليفة المستنصر في التحرك من القصر ليرقد في مثواه الأخير.

- أحمد: دعونا نتبعهم عسانا ندعو لهذا الخليفة الصالح ونصلي عليه فيكتبُ لنا الله الثواب ويُسخر لنا من يصلي علينا ويدعو لنا.

- مالك: لكن ما أظننا قادرين على مشاهدة مراسم الجنازة.

بُرهان: دعونا نحاول الاقتراب بقدر ما يسمح لنا الحراس، فيُكتَبُ لنا الثواب أن قد بذلنا وسعنا. تحرك الأصدقاء في أثر الحراس والعامة تابعين الجنازة وأخذوا يتحدثون في الطريق...

- مالك: أعجب لولاة الأمصار، من أجبرهم أن يكونوا ولاة على الناس وهم لا يريدون العمل لصالح الرعية.

قالها مالك وقد رأى الولاة ممن عرفوا بالفسادِ وقد ترك كل ولايته ليشارك في تشييع الخليفة المتوفي وحتى يكون قريباً من الخليفة الجديد.

- بُرهان: ما رغبوا في الولاية إلا ليتربحوا منها، فما أرادوا منها خدمة الرعية والقيام على أمور الناس.

- أحمد: نعم... لكنهم يذهبون إلى مقر عملهم كل صباح وينشغلون بأمور الحكم طوال اليوم، فكيف لا يعملون، هل يقضون أوقاتهم في اللهو.

كان بُرهان يبذل جهداً مضاعفاً ليسير في حذاء أصدقائه... فحثهم على التهدئة لاهثاً:

- خففوا من سرعة مشيكم ... لا استطيع اللحاق بكم.

- مالك: نريد أن نلحق مكاناً بين الأوائل عسانا أن ننظر إلى الخليفة فنستطيع الدعاء له وقت نزوله إلى القبر.

أحمد لبُرهان:

- عليك أن تفقد بعض الوزن يا صديقي، كم نصحتك وأنت لا تستجيب.

- وهل تراني آكل الكثير يا أحمد، فأنا آكل مثلك تماماً فتظل أنت ممشوق القوام وأكتسب أنا المزيد من الشحوم التي تحاصر جسدي.

خفف الجميع من سرعتهم بعض الشئ حتى يستطيع بُرهان مجاراتهم في المشي، فاسترد الأخير أنفاسه وشرعَ يستكملُ ما كان بينه وبين مالك وأحمد من نقاش:

- يذهب الولاة وكبار رجال الدولة إلى مقر عملهم في كل يوم في مواعيدهم الرسمية، وهم لا يلعبون بالطبع خلال تلك الأوقات، لكنهم كذلك لا يعملون.

مالك ضاحكاً:

- أيجلسون هكذا في صمت ينظر بعضهم إلى بعض؟.

- كلا أيها المُتحذلق، إنما يتظاهرون بالعمل وهم في الحقيقة لا يعملون، فلا يجد أياً من أولئك الولاة حرج في أن يتهرب من مسئولياته طالما كان ذلك في الإمكان، فتواجدهم صوري وأثرهم الحقيقي معدوم.

- والخليفة؟

- هم يوهمونه أنهم يعملون في الحين الذي ينشغلون فيه بجمع المال لأنفسهم والتنازع على شئون المُلك والتحزب ضد كل من لا يجدون مصلحتهم معه.

- كما ظننت... لذا هم يريدون عبد الله بن المستنصر خليفة... عسى أن لا يفيق فلا يُحاسبهم على تفريطهم في أمور العباد.

- هو كذلك.

وقف الجميع عندما وصل الحراس إلى المثوى الأخير للخليفة المُستنصر فلم يستطع الأصدقاء مُشاهدة أياً من الأمراء ولا حتى حراس القصر، فاصطفوا مع الباقين أمام باب الجبَّانة جهة القبلة وهم منتعلين بغير ركوع ولا سجود، وما مرت فترة حتى ظهر الحراس يحاولون خلق طريق ينفذُ منه الأمراء وسط العامة حتى يعودوا إلى قصورهم ويحسموا ما بينهم من أمرٍ جلل.

- هل ستتوقف الدراسة طوال الأيام القادمة، قالها أحمد مُتسائلاً.

- بُرهان: لم يقل أحد بذلك، ثُم أنه ليس من الحكمة إبقاء طلبة العلم بغير شاغل يشغلهم خلال هذه الفترة العصيبة، فهم يريدون حسم أمر الخليفة الجديد بعيداً عن مناواشات العامة.

أحمد بصوت يفعمه الإحباط:

- ومتى تدخلنا نحن في أمر اختيار الخليفة.

- بُرهان: تدخلنا أم لم نتدخل سواء علينا، فسيقرر كبار رجال الدولة ما يريدون، وهم لن يريدوا ولن يدعموا إلا هذا الذي يساعدهم على دعتهم وجشعهم.

- مالك: فرصة الخفاجى ضعيفة أن يأول إليه الأمر، ففضلاً عمَّا تقول، فالمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً، وقد سبق المُستنصر رحمة الله عليه اربعة عشرة من أباءه كانوا خلفاء من قبله فتوارثوا الحكم بينهم،

فما يمنع أن يكون عبد الله بن المستنصر هو الخليفة العباسي الخامس والثلاثون وأن يكون السادس عشر من جهة ميراثه للخلافة عن أباءه مباشرة.

- بُرهان: ما خلق الأمل داخلي أن الخفاجى ليس بالرجل السهل[46]، وسوف يحاول أن يكون له الأمر من بعد أخيه، خاصة وأن عبد الله لين لا يفقه شيئاً من أمور السياسة، لكني كففت عن التفاؤل منذ زمن مضى.

بدا الأسى واضحاً في صوت بُرهان، وانصرف الثلاثة كل إلى داره يتجاذبون أطراف الحديث وإن بدا الإحباط مهيمناً على الجميع.

****

الملك الصالح وشجر الدر

مصر 641هـ

علم الناصر داود عم نجم الدين أيوب أنه وقع في أسر بدر الدين لؤلؤ... فقرر تحريره هو وزوجته شجر الدر، فأرسل سرية إليه لهذا الغرض، وبالفعل استطاعت سرية داود تحرير نجم الدين أيوب وزوجه من الأسر وهرب بدر الدين لؤلؤ صحبة خاصته بغير أن يمسه سوء، ولم يمر كثير من الوقت حتى عرف نجم الدين أيوب أن الناصر داود نفسه أراد أسره لنفسه حتى يرسله إلى أخيه سيف الدين مُكبل في قفص من حديد، على أن يكون الثمن توليته على دمشق.

استطاعت شجر الدر التواصل مع زوجة الناصر داود فجالستها واستطاعت مناقشتها في شأن وضعها وزوجها، وأقنعتها أن سيف الدين لن يُسلم دمشق إلى زوجها الناصر داود مهما حدث، فدمشق الآن تحت يد أحد خاصة سيف الدين، وإن كان حسن النية في تسليمها إلى الناصر داود... فليعزل من عليها الآن.

أخذت الشكوك تنمو في صدر زوجة الناصر داود، فصدقت شجرة الدر وباتت تقنع زوجها بأن سيف الدين لا ينتوي حقيقة تسليم دمشق إليه، وأنه الآن يملك تحرير نجم الدين أيوب والتعاون معه حتى يملك مصر ولسوف يبر هو بوعده ويُقطعه دمشق، اقتنع الزوج بتدبير زوجته وقرر الاستجابة لتدبيرها، فحرر الأمير الأسير وزوجه، وتوجه معهما صوب مصر للاستيلاء عليها وهو ما تم بالفعل، فجلس نجم الدين على ملك مصر جواره شجر الدر وقد خلع على نفسه لقب الملك الصالح[47].

****

دخل الملك الصالح نجم الدين أيوب على زوجته شجر الدر في غرفتهم فهبت قائمة لاستقباله:

- أفتقدتك يا ملكي العزيز.

أقبل عليها نجم الدين وقد احتضنها بزراعيه:

- وهل أصبحت ملكاً إلا بتدبيرك يا أم الخليل[48].

- هو اجتهادك وبأسك يا مولاي.

- لا تتواضعي يا درتي، فلولا أن هداك التفكير إلى التفاوض مع زوجة الناصر داود ما كان لنا من سبيل للفكاك، وهذا الحقير بدر الدين لؤلؤ، والله لإن كنت نلت منه لبررت بقسمي وانتقمت منه.

أحسَت شجر الدر بالغضبة في صوت زوجها فأرادت تهدئته:

- هو أمر قد مر عليه سنوات يا مولاي، ومازلت تذكره، وأنت تُحزّني عندما أجد داخلك كل هذا الغضب جهة بدر الدين لؤلؤ، وكأنك حاقد عليَّ مما كان بيننا بغير ذنب ارتكبته أنا.

- أخر شئ أريده في الدنيا أن أحزنك يا أم الخليل، وإنما أشعر بالغضب من هذا الكلب الجبان الذي أساء إليك وإليَّ، وما تذكرت الأيام الغابرة إلا لامتدح حسن صنيعك معي، فقد كنتي نعمَّ النصير.

- بل هي مشيئة الله التي كانت في جانب مولاي الملك الصالح، فقد تلكأ سيف الدين في الاستجابة لطلب عمه الناصر أن يُسلمه دمشق، فأحسنت أنا استغلال تلك السقطة.

- حقيقة لم تكن لسيف الدين سقطة واحدة، لكن كانت له سقطات عدة عجلت بنهايته، فقد حاول التخلص من كل من ظهر ولاؤه لي بمنتهى السرعة والشدة، الأمر الذي أوغل الصدور ضده وجعلهم يستنجدون بي لتتحرك الأمور في صالحهم مرة أخرى بمعونتي.

شجر الدر بتهكم:

- هو ليس رجل سياسة.

- لا أعلم لماذا فضله أبي عليّ على سذاجته وضيق أفقه، فهو ضعيف الهِمَة لاهث وراء اللذات.

- لن تدرك السبب ما حييت، فالسبب مات ودُفِنَ مع أبيك، ولا فائدة من ذلك الآن وقد آلت الأمور إلى سيدي ومولاي ملك مصر خليفة الناصر صلاح الدين... الملك الصالح نجم الدين أيوب.

مرت سنوات حكم الملك الصالح في سلام اللهم إلا من بعد القلاقل التي استدعت حملات مُصغره لبعض الأصقاع القريبة وبعض الاعتقالات اللازمة التي خصَّ بها الملك الصالح المماليك الأشرفية (المماليك المنسوبون إلى عمه الأشرف) فقد كانوا يكنون له العداء ويرغبون في الانقلاب عليه، إلا أن الملك الصالح استطاع السيطرة على حركات التمرد وقبض على قادتها بمعاونة مماليك أبيه (المماليك الكاملية) الذين كان ولاؤهم له.

وذلك كله حتى حدثت الفجيعة الكبرى ومات الخليل ابنه من شجر الدر، وكان وقع وفاة الولد عليهما شديدة إلا إن وقعها على شجر الدر كان أشد وأعظم، فقد كانت تأمل أن يكون ابنها الخليل هو ملك مصر القادم خلفاً لأبيه، وخافت إن مات الملك الصالح أن يذهب عنها السلطان، وكأن ألمها صار ألمين... ألم بسبب ثكل الولد، وألم بسبب ثكل المُلك.

دخل الملك الصالح على زوجته وهي بعدٍ لازالت مطرقة في ذهولٍ، فلم ترفع نظرها إليه عندما دخل ولم تعره انتباهاً، نظر إليها الملك الصالح مُتأملاً حائراً لا يدري ما يفعل بها، فهو يتعاطف معها بل ويشعر بمثل شعورها، فقد مات ابنه الذي كان يعدهُ ليكون الملك القادم لمصر، لكن ما يضاعف ألمه أن زوجته التي أحبها صارت كالمجاذيب بعد وفاة ابنهما، وكأن بها مس من الجنون، فما عادت تهتم به أو تعبأ بوجوده وصارت طوال الوقت مصدومة لا يؤنسها مؤنس ولا يملأ وحشتها جليس.

- إلى متى يا شجر الدر.

- إلى أن يقبض الله روحي كما قبض روح ابني الخليل.

- بل قولي الحمد لله، لله ما أعطى ولله ما أخذ.

- لا أشعر بالرغبة في ذلك، قد كان طفلاً، ما الذي اقترفه ليستأهل الموت.

- فقد الولد مُصيبة، لكن الصبر عند الصدمة الأولى فتماسكي ولا تجزعي.

- وما تعرف أنت عن فقد الولد، قالتها شجر الدر بتهكم.

- ما تقولين أنت، أجننت؟ ألم يكن الخليل لي أبناً كما هو لك؟!.

- لكنك لم تحبه وكنت دائماً ما تفضل توران عليه.

- لا أدري ما أقول أمام كل هذا الكم من الجنون، تماسكي يا امرأة فالجرح واحد والمفقود عزيز، فقد كان الخليل قطعة من قلبي وأنت تعلمين، ألم أعهد إليه بالملك من بعدي؟

- أنا لم أعد أعلم شيئاً، ولا تقل لي أن الجرح واحد، فقد فقدت أنا أبني الوحيد، أما أنت فلك غيره تستطيع الاعتماد عليه، يا لسعادة "العالمة" زوجتك الأولى، أراها الآن تقيم الأفراح والجميع يهنئونها باستعادة المجد القديم.

- أي مجد قديم هذا الذي سوف يُقام على جثة ابني، وكيف تجرؤين على التفكير أن أي شخص كان يستطيع الاحتفال بموت ابن الملك الصالح.

- هو كل ما يهمك ... السلطة والإمارة وغرورك الشخصي، أنت الآن لا تفكر في موت ابنك وأنه توارى في التراب وإنما تفكر في أنه لا أحد يتجرأ عليك.

قالتها وضحكت متهكمة ثم سكتت.

أندفع الملك الصالح إلى شجرة الدر وجذبها من ذراعها بقوة فوقعت من مجلسها على أرض الغرفة، واستمر الملك الصالح في سحبها ثم ركلها في بطنها وهو يصيح بصوت هادر:

- أراك قد نسيت فضلي عليك أيتها الجارية الحقيرة، ألم انتشلك من ذلك الأسر وكرمتك وتزوجتك واصطفيتك على العالمين.

نظرت شجر الدر إلى الملك الصالح مبهوتة مما يحدث وقد تفاجئت بردة الفعل، أكمل زوجها غضبته:

- والله لئن لم تنته عما أنتِ عليه لأنفينك وأرجعنك إلى ذُلَّكِ القديم، فكفاني موت ابني، ولا ينقصني النظر إلى وجهك الشؤم.

قالها الصالح أيوب ثم غادر الغرفة تاركاً شجر الدر ملقاة على الأرض تعض على أناملها من الغيظ لا تستطيع التفكير من شدة الحزن والكمد.

****

كانت شجر الدر امرأة محزونة مكلومة مصابة في أعز ما تملك، لكنها كذلك كانت ذكية نابهة، وقد علمت من لهجة الملك الصالح أنه سوف يفل منها إن هي داومت على حزنها ومهاجمتها إياه فقررت التراجع.

كفت شجر الدر عن اتهام الملك الصالح أنه غير محزون على وفاة الخليل وأن لدية خطة بديلة بتولية العرش إلى ابنه توران شاه، كفت شجر الدر عن ذلك كله وكتمته في قلبها وقررت التصرف بذكاء شديد، فليس أمامها فرصة أخرى غير معاشرتها زوجها ومحاولتها إسعاده... فربما أنجبت منه ذكراً جديداً يأول إليه الأمر من بعده ويعيد لها مكانتها الآفلة.

سارت شجر الدر تلقي النكات مرة أخرى على زوجها وتتزين له وتتصنع الخضوع له والانبهار بأفعاله وحكمته في إدارته شئون البلاد، وما كان لها من مطلب إلا معاشرته في كل ليلة عسى أن تظفر منه بالولد، وكانت شجر الدر تنام على ظهرها بعد كل جماع ولفترة طويلة عسى أن يستطيع ماء زوجها الوصول إلى أعماقها ويحدثُ الحمل، بل وكانت ترفع أقدامها على ساري

السرير عسى أن تنزلق المياه الملكية داخلها بشكل أسرع فيحيا بها المُلك البائد.

وبالطبع لم تكن شجر الدر تستطيع مواربة زوجها في رغبتها في ولد آخر منه، فعندما كان زوجها يحاول ضمها إلى صدره من بعد الانتهاء... كانت تتهرب منه، وتتخذ تلك الأوضاع البهلوانية العجيبة حتى تُسرع بأمر حملها منه.

أما الملك الصالح فلم يكن بالغرِ الساذج، فقد كان يعلم أن تأدب شجر الدر المُفاجئ هو نتيجة للوعيد الذي توعده إياها عندما زاد حزنها عن الحد وأدى بها إلى التطاول عليه، لكنه فكر أن لا بأس أن يكون خوفها سبب اعتدالها، كما أنه كان عالماً برغبتها في الولد، وإلا فما سبب تصميمها أن يتضاجعا في كل وقت وحين؟!، هي تقول أنها تحبه ولا تقوى على بعده، لكن لماذا زادت حدة الحب فجأة بعد وفاة ابنهما الخليل؟ فسارت تطلب المزيد منه في كل ليلة، وهي لا تحاول مواراة رغبتها في ولد جديد، فهي تستلقي ليصل منيه إليها في كل مرة يُمارسا فيها الحب وهو كذا لم ينكر عليها رغبتها تلك، لكنه ود أن يعترف لها أن تلك الرغبة الحثيثة في أن يكون لهما ولد تفسد روعة الجنس وتطفئ من انجذابه إليها، وكأنها سارت جسداً بلا روح.

فهو يشعر في الآونة الأخيرة أن شجر الدر لم تعد تبالي بلذتها الجنسية الشخصية، فكل ما تبالي به أن تحصل على منيه داخلها في أسرع وقت ممكن، حتى وإن لم تصب هي نصيبها من المتعة، وكان هذا هو عين الشئ الذي يفسدُ العلاقة الجنسية بأكملها، فقد كان يشعر أنها لا تريده إلا لكي تحمل، فكان ذلك الشعور بمثابة الصفعة لكبرياءه، فصار كل مرة يقذف بشكلٍ أسرع وسار في كل مرة أكثر تأكداً من عدم اشتياق شجر الدر الحقيقي إليه، فهو يعرفها ويعرف ما كان يُسعرها أثناء الجماع، وكانت هي توجه يده إلى مشغلات المتعة في جسدها، لكنها الآن لا تفعل... وكانت هي تتلمس جسده وصدره في متعة وانبهار لكنها الآن لا تفعل... وكانت تسعى إلى تقبيله والنظر بشهوة إلى جسده، لكنها الآن لا تفعل...

- ألن تأوى للفراش معي الآن.

قالتها شجر الدر بدلال وهي تتثنى وتلبس ثوب رقيق يفضح من جسدها أضعاف ما يستر، فأفاقه نداؤها عن تفكيره فيها، رد الملك الصالح مُتشاغلاً وهو ينظر إلى أوراق يطالعها:

- ليس بعد عليَّ أن أقرأ ما أرسله إليَّ عمالي في الأمصار وأرد عل بعض تلك المكاتبات.

- ألا يمكن تأجيل تلك المُكاتبات إلى حين.

الملك الصالح بضيق راغباً في صرفها من أمامه ليستكمل تفكيره في أحوالها:

- كلا لا أستطيع أسبقيني أنت إلى الفراش وسوف أوافيك بعد قليل.

صار جزئاً داخله يكرهها، صار يفكرُ فيها كأنثى فرس النبي التي لا هم لها إلا أن تُنكح من ذكرها... فعندما يعتلي الذكر أنثى تلك الحشرة العجيبة يظل يواطئها حتى تحين اللحظة المنتظرة التي تتفجر فيها شهوته... وعندئذٍ وفي هذه اللحظة بالذات تلتفت الأنثى برأسها إلى الذكر الذي يعتليها ثم تقوم بقضم رأسه كلها فتتغذى عليها أثناء لحظة المتعة الكبرى، والعجيب في الأمر أن هذا الذكر منزوع الرأس يظل يتحرك بكفاءة تامة فوق أنثاه وتستمر رقصة الجنس المحمومة... وكأن شهوته قد انفجرت مرة ثانية أضعاف قوة المرة الأولى عندما اجتثت رأسه من فوق جسده، وذلك حتى يفرغ جميع ما بداخله من سوائل توهب الحياة لكائن جديد.

كان الملك الصالح عاجزاً تماماً عن متابعة ما يقرأ وهو يقارن حاله بتلك الحشرة العجيبة، ثم ضحك بتهكم عندما فكر في السبب الذي دعا الناس إلى تسمية تلك الحشرة النفعية الخائنة بفرس النبي، هل لأنها تظهر خاضعة مُطأطأة الرأس لأسفل ... عالية الأجنحة والظهر فتبدوا كأنها تركع أو تبتهل إلى الله؟!، يا لهم من سُذج! أبالمظاهر يحكم على الأشياء، ولو أنهم عاينوا سلوك تلك الحشرة الدموية القاتلة ما جرأوا على تسميتها بذاك الاسم.

ومال شجر الدر أمته التي أعتقها تتحول إلى مثل هذه الحشرة التي لا هم لها إلا استحلاب ماؤه وإن هلك بعد حين، أهو الانتقام من شخصه أنه هددها بأنه سوف ينفيها ويرجعها إلي مكانتها القديمة، هل انتوت شجر الدر الانتقام منه بهذه الطريقة المُبتكرة، أفاقه من تفكيره صوت زوجته وهي تهتف باسمه من الداخل بميوعة تستعجل قدومه إليها لإنهاء مهمته المقدسة، عسى أن تقضم رأسه بعدها وتريحه من هموم الحياه.

****

مرت الأشهر ثقيلة على الملك الصالح، وهو يشعر بتلك الاهتزازات العنفية تكاد تعصف بعلاقته وشجر الدر وقد فشل أن يملأها بحملٍ جديد، وكما يقال فإن المصائب لا تأتي فُرادى، فقد تصارع الناصر داود الصديق اللدود للملك الصالح مع سلطان آخر وهو الصالح إسماعيل، ونتيجة اشتداد العداوة بينهما استعان الصالح إسماعيل بالصليبيين فأدخلهم كطرفٍ جديد في الصراع، فقام بالاتفاق معهم اتفاق شبيه بهذا التام بينهم والملك الكامل[49]، الأمر الذي أثار الرأي العام عليه، فقد أفتى الإمام عز بن عبد السلام بحرمانية بيع

الأسلحة للصليبيين وأوقف الدعاء للصالح إسماعيل في المساجد، الأمر الذي أثار حفيظة الصالح إسماعيل ضد الشيخ العز بن عبد السلام فنفاه فاتجه إلى مصر، وقد أحسن الملك الصالح أيوب استقباله وعينه خطيباً على مسجد عمرو بن العاص.

ما أيقظك في هذه الساعة المبكرة من الصباح، لماذا لم تنم من بعد ما أديت صلاة الفجر؟ قالتها شجر الدر لزوجها وهي مُغمضة العينين متحشرجة الصوت من أثر النوم.

- هي مشاغل الحكم، فقد أنقلب الصالح إسماعيل على الناصر داود واستعان إسماعيل بالصليبيين لمواجهة داود وأسلمهم الكثير من الإمارات الإسلامية حتى يُناصروه.

- أعلم أنه خطب جلل، لكن قد مر بمولاي أهوال من قبل وتغلب عليها.

- أشعر أن الهموم تتكتل عليّ، أشعر مثل سيزيف... كلما حملت الصخرة إلى القمة وظننت أنني انتهيت انحدرت مرة أخرى إلى القاع لأكون ملزماً بفرعها ثانية، فما مر غير القليل من الوقت على وفاة ابني الخليل حتى حدثت كل هذه التصدعات في عالمي.

- تجلد ... فأنت أهل لكل النوازل فما عهدتك غير قوي صنديد.

تحولت ملامح الملك الصالح إلى الجدية:

- قد أرسلت إلى الخوارزميين عسى أن يكونوا لي سنداً في هذه المواجهة الصعبة.

- نعم الرأي يا مولاي، ولسوف يكون النصر حليفك بإذن الله، فالخوارزميون جند ذوي بأس لا يرضون عن النصر بديلاً.

- هم أهلك وذووك، فمن يشهد لهم غيرك؟

- إنما أثق في النصر كونك تحارب في جانب الحق يا مولاي، فمن الخيانة أن يستعين الصالح إسماعيل بالصليبيين لمواجهة اخوته من المسلمين.

- قد فعلها أبي من قبل يا شجر الدر، وعاهد الصليبيين حتى يعينوه على مواجهة أخيه، هي السياسة يا شجر الدر.

- أمازلت تدافع عن مواقف أبيك الذي آثر أخيك بالمُلك عليك، قد أخطأ أبوك على طول الخط، أخطأ عندما سلم القدس للصليبيين وأخطأ عندما ولى أخاك الضعيف الصغير... وجنَّبَك أنت السلطان.

- قد مات يا شجر الدر وواراه التراب، فأمره الآن بين يد رب العباد، عسى أن يكون به رحيماً.

قالت شجر الدر وهي تزفر في ضيق:

- رحمه الله، والآن دعنا مما كان فعلينا الآن أن نتحفز للخطر المحدق بنا، فاسرع بمخطابة الخوارزميين.

- هي أفكارك أجترها مرة بعد الأخرى.

- ما أنا وأنت إلا نفس واحدة يا مولاي.

- كنت ظننت ان الأمور فسدت بيننا وكنت ظننتها لا تنصلح.

- موت الخليل كان فاجعة أصابتنا، فما حدث ليس بالأمر الهين، وحمداً لله على نعمة النسيان... ولو أنني أعتقد أن الخليل لا يُنسى.

- عسى الله أن يُخلفنا غيره.

قالها نجم الدين بإخلاص حقيقي... وسكت لبرهة ثم أكمل:

- ما ظننت أن تحمل طبول الحرب التي تتردد أصداؤها في أرجاء بلادنا الخير، لكن يكفني خير من هذه الحرب القادمة أن وحدت بيننا مرة أخرى وصرنا متحابين.

استجاب الخوارزميون لدعوة الملك الصالح أيوب أن يقاتلوا الصليبيين والملك الصالح إسماعيل، وتم للملك الصالح النصر على أعداؤه وتم تحرير العديد من الإمارات التي كان الصالح إسماعيل تنازل عنها للصليبيين وقد تم تحرير القدس نفسها بعد معركة لافوربي[50] عام 642هـ، وقد زينت القاهرة احتفالاً بالنصر المبين.

****

دخل الصالح أيوب يخلفه فخر الدين يوسف قائد الجيوش إلى القاهرة دخول المنتصرين في موكبٍ عظيم، وقد استقبله جموع الشعب مُصطَفين على قوارع الطرق، فأخذ الصالح أيوب وقادته من خلفه يتبخترون على خيلهم لحين دخولهم إلى قصر السلطنة، وبمجرد دخول الصالح أيوب قصره وحين توارى عن أعين الناس نزع لباسه القصبي وتخفف من زينته وجلس على كرسي العرش ووضع خوذة الحرب على فخذه ناظراً إلى فخر الدين يوسف:

- قد أحسنت صنعاً يا فخر الدين.

- عبدك وطوع أمرك يا مولاي.

- ما شككت في إخلاصك فأنت من القلة التي ثبتت في وجه أخي ... وقد نصرتني عندما عز النصير.

- رغم ما أذاقني إياه أخوك يا مولانا من ذل وبؤس وهوان ما فكرت يوماً في خلع بيعتك عن رقبتي.

- أعرف يا فخر الدين، لكني غير راضٍ عن القسمة التي قضى بها معين الدين[51]، بين الصالح إسماعيل والخوارزمية.

- معين الدين قد استأذنك يا مولاي في التفاوض مع الصالح إسماعيل حتى يتم له دخول دمشق، وقد وافقت جلالتكم على تلك المفاوضات.

- نعم لقد وافقت على التفاوض، لكني لا أرضى بتلك القسمة التي قضى بها بين الخوارزميين والصالح إسماعيل، فكيف له أن يمنع الخوارزميين دخول دمشق بعدما كانوا سبباً في فتحها.

- خاف على دمشق أن ينتشر فيها الفساد بسبب دخول أولئك المرتزقة إليها يا مولاي، فمنحهم الساحل عوضاً عنها.

- وهي القسمة التي أغضبتهم يا فخر الدين، وهم حلفاؤنا منذ زمن وأنت تعلم كم من مرة اعتمدنا عليهم فلم يخذلونا.

- وما العمل الآن يا مولاي وقد شقوا عصا الطاعة، وأبوا إلا الشقاق.

- يمكن التفاهم مع الخوارزميين دائماً بلغة المال والمصالح.

- لكن هذه المرة المصلحة التي يبغونها تصطدم مع مصالح أخرى لحلفاء أقوياء، فدمشق التي يطمعون فيها هي تحت إمرة الملك المنصور، وإن نزعناها من تحت يده فسوف يتمرد علينا هو الآخر ونظهر نحن أمام جميع الأطراف بمظهر المُترددين مُرتعشي الأيدي.

- وما ترى أنت يا فخر الدين.

- أرى التحالف هذه المرة مع الملك المنصور لمُحاربة الخوارزميين فقد تخطوا حدودهم بعصيان مولاي الملك الصالح أيوب واعتدائهم على داريا[52] وتخريبها، وأغلب ظني أن الملك المنصور لن يتردد في التحالف مع جلالتكم للمحافظة على مُكتسباته في دمشق، ولتكن نهاية الخوارزمين الآن وإلى الأبد.

****

الخليفة المؤمن

بغداد 644هـ

انتشرت الزينات في الأسواق وأخذ جنود الخليفة يوزعون حلوى اللوزينج[53] على أهالي بغداد، والتي أخذ الطهاة يُعدونها مُدة ثلاثة أسابيع سابقة على يوم الاحتفال، ففي مثل هذا اليوم... نُصِّبَ عبد الله بن المستنصر خليفة على المسلمين، وقد خلع على نفسه لقب المُستعصم.

كان الناس سعداء بهذا الاحتفال، فقد قدم الخليفة المُستعصم نفسه إليهم بصورة الزاهد المُسالم الراعي للسلام، فحمدوا الله على هذا الخليفة لين العريكة رقيق القلب، وقد كان الخليفة حافظاً لكتاب الله تالياً له فدعا له الأئمة في المساجد واعترفت بخلافته جميع الأمصار الإسلامية.

تناول مالك قطعة من اللوزينج والتهمها في فمه دفعة واحدة فترك العسل والدهن أثر على فمه وهو لازال يلوك ما أكل فقال له بُرهان:

- أعجب لأمرك يا مالك، كيف تأكل كل هذا الطعام ولا تسمن؟!.

- عندما عرفت أنهم يُعدون اللوزينج ليوزّع احتفالاً ببيعة المُستعصم لم أصدق في بادئ الأمر، وحتى عندما رأيتهم يوزعونه في الشوارع ظننت أن جودته ستكون متواضعة لكن للحق فهو لذيذ مُتقن الصنع.

- بُرهان: كل هذه التكلفة والزينات للاحتفال بالمُستعصم!، ماذا فعل خلال سنوات خلافته الأربعة حتى يستحق كل هذه الحفاوة؟.

مالك مُتهكماً

- هو الذي يحتفلُ بنفسه يا بُرهان، فكل هذا اللوزينج الذي يوزّع كلفته من أمواله وهو الذي أنفق على كل تلك الزينات من لدنهُ.

- هي أموالنا نحن يا مالك، حتى وإن ورثها عن أسلافه، فما اكتسبوها عن جهد وعرق وإنما من الضرائب التي يُحاصروننا بها على مر السنين.

- يظهرُ من كلامك يا بُرهان إنك غير راضياً عنه مثلما كنت غير راضياً عن أبيه.

- إن كنت لا أرضى عن أبيه قيراطاً فإني لا أرضى عنه أربعة وعشرين قيراطاً، على الأقل بذل والده عناية في قيامه على شئون رعيته، وقد

أرسل أخاه الخفاجى لمُجاهدة التتار ما استطاع، ونحن ندرس في المدرسةِ المستنصرية التي بناها، لكن هذا المستعصم ماذا فعل لنا طوال سنوات خلافته غير اهتمامه بمُلاعبة الحمام ورقص الجواري، فهو لم يُقدم الجديد ويعتمد على ميراث الأجداد.

- معك حق، لكن اخفض من صوتك ليسمعنك أحد رجال العلقمي[54] فيقدمونك للمحاكمة.

- مؤيد الدين العلقمي هذا الداهية... كيف عنَّ للمستعصم أن يثق في ثعبان مثله!.

- أتقول ذلك كونه شيعي؟

- ليس للأمر صلة بانتماءاته الطائفية، فليكن شيعي أو مسيحي أو مجوسي، الأمر له صلة بالعلقمي نفسه فهو رجل مُحنَّك يُجيدُ التعامل مع الرجال وبارع في إدارة الأمور لصالحه، وهو يتسم بالنفعية المطلقة، فلا يشغله أمر بغداد ولا ما جاورها من بلاد المسلمين، فهو يهتم لمصلحته الشخصية فقط.

تُشعرني أنك أباه وتعلم ما يجول بنفسه أكثر منه شخصياً. قالها مالك بتهكم وإن كان يريد معرفة مرجعية بُرهان فيما يقول...

- بُرهان: هو استقراء للأحداث وتحليل لما يتسرب من أحاديث هنا وهناك عن الرجل يا صديقي.

عاد أحمد ضاحكاً بعدما نجح في استخلاص نصيبه من اللوزينج الذي يوزَّع بمناسبة الاحتفال بالمستعصم، فقال لبرهان:

- قد فاتك الكثير، لماذا لم تأتي معنا لتأخذ نصيبك من حلوى الخليفة.

- أعرف أن الحلوى لذيذة لكن لا أطيق التزاحم.

اقتطع أحمد من حلواه ليُذيق بُرهان منها فتناول بُرهان عطية أحمد شاكراً وأخذ يلوكها متلذذاً بطعمها وقال:

- معك حق يا مالك، هي لذيذة فعلاً، يبدو أن الخليفة قد أنفق أموال كثيرة لإعداد هذا الشئ الرائع.

- قد قالها أحمد... قد فاتك الكثير.

قال أحمد بعد أن انتهى من التهام حلوته وقد أخذ يفرك يده للتخلص من أثر الدهن:

- عمّا كنتما تتحدثان.

- مولانا كان يتحدث عن عدم رضاءه عن الخليفة المستعصم ووزيره العلقمي وأن الخلف أسوأ من السلف.

قالها مالك ضاحكاً قاصداً بُرهان باللقب الجديد، فضحك الجميع من اللقب الذي منحه مالك لبُرهان وقد شاركهم بُرهان الضحك وإن ابدى بعض التبرم.

- ولم أنت ناقم على خليفتنا يا مولانا، فمن المعروفِ عن الخليفة أنه رجل صالح طيب القلب تقي يُحافظ على حدود الله مُقيم للصلاة، ثم أن الجميع قد أثنى على طلاوة صوته أثناء تلاوة القرآن.

- ومالنا وطلاوة صوت الخليفة، ما نحتاج إليه فعلياً هو عقل الخليفة وإدارة الخليفة لشئون الرعية وتفكيره الاستباقي للأحداث... هذا ما سيعود علينا بالنفع، أما صوت الخليفة وصلاة الخليفة فهي لله.

- مالك: للأمر دلالة يا مولانا فمن كان لله أقرب كان لرعيته أرحم وأعدل.

- بُرهان: ليس صحيحاً، فليس للتدين أي دلالة على نبوغ الإنسان وقدرته على القيادة، بل وحتى الإخلاص والأمانة والعدل كصفات يحضُ عليها الدين ليست متلازمة مع التدين نفسه، فكم من الطواغيت والجبابرة قدموا أنفسهم لشعوبهم أنهم متدينون لكسب تأيدهم ودعمهم مع أنهم لا يَمُتون للدين بصلة، وأن يـــ....

- أحمد مُقطاعاً: يا بُرهان، المُستعصم مؤمناً إيماناً حقيقياً يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويقيم حدود الله.

- بُرهان: لم أنكر ما تقول وما قلته عن عدم تلازم الدين مع الأخلاق الحميدة لهو حقيقة، ولكن لو تركتني أكمل كلامي لأوضحت لك، أنه يمكن أن يكون الإنسان مخلصاً في دينه مؤمناً إيماناً حقيقياً لكنه غير قادر على القيام بأعباء عمله على الوجه الأمثل، فقد يكون غير موهوباً أو كسولاً أو لا يملك القدرات الفكرية التي تعينه على ذلك، وأعتقد أن هذا التوصيف ينطبق على المُستعصم تمام الانطباق.

- أحمد: لكن هل تقول أن الخليفة لا يلزمه التدين والقيام على حدود الله؟!.

- بُرهان: لا تُحَمْلني بما لم أنبس به يا صديقي، فمن الهام أن يكون الخليفة مؤمناً قائماً على حدود الله، لكن يلزمه كذا أن يكون عارف بأمور السياسة قادراً على توجيه الأمة لما فيه صالحها، أترى؟ هذا التطرف الفكري البادي من تساؤلك السابق... لهو من اللعنات التي أصابت ثقافتنا، فلو اشترطت في الخليفة القدرة وأوضحت عدم التلازم بينها وبين الدين لَفُهِمَ حديثي أني لا أحبذ ذا الدين ليكون خليفة.

- هو ما بدا لي من حديثك...

- ليس صحيحاً، فأنا فقط أُبَدِّي القدرة... على التدين، فالدين علاقة بين الرب والعبد، أما القدرة فهي الخصلة التي تعود بالخير على الرعية.

- مالك: لكن إن كان هناك حاكماً يتسمُ بصلاح الدين ولا يتسم بالقدرةِ وآخر قادر وفاجر فمن تختار منهما؟

- بُرهان: ها أنت تعود للتطرف الفكري مرة أخرى، وكأن الدنيا ليس بها إلا قُطبين وما بينهما نسياً منسياً، أبيض وأسود، أخيار وأشرار، أمناء وخونه، وكأن كل ما بين القطبين نسياً منسياً، يا صديقي كل منا في داخله الأضداد جميعها. فالخير والشر مُتأصلان في نفسي ونفسك ونفس الجميع.

سكت مالك وقد بدت على وجهه إمارات الارتباك، فهو لم يفقه الكثير من حديث بُرهان، وعرف منه بُرهان ذلك فطفق يُكمل:

- ما أريد قوله أنه يجب الموازنة بين الصفات جميها في الإنسان فلن تجد الحاكم الرائع في كل الصفات، لذلك وجب اختيار حاكم متوازن أخلاقياً على أن تهتم بوجود صفات معينة فيه... هي التي ستعود بالنفع على الرعية، فمما لا شك فيه أن التدين هام له دلالة على أمانة وعدل الحاكم، لكن هذه الدلالة ليست مؤكدة، فقد يكون هناك حاكم أمين لكنه ليس حريصاً على الشعائر بشكلٍ مطلق، لذلك من الممكن اختيار حاكم قادر على إدارة شئون رعيته وإنً كان لا يتلوا القرآن آناء الليل وأطراف النهار.

فهم مالك بعض مما قاله بُرهان فرد ضاحكاً محاولاً التخفف من هذا الحديث الجَّدْي:

- ألم أقل لكم هو مولانا فلم تصدقوني.

ضحك الجميع وطفقوا يتحدثون على قارعة الطريق حتى مالت الشمس إلى المغيب، ورغم أن بُرهان كان دائماً محاط بأصدقاءه الأوفياء وزوجته التي طالما تمنى الارتباط بها...

كان بداخله شئ من الحزن الدفين، فقد كان بحق يفتقد أخاه فوّاز...

****

جلس العلقمي مع التاجر السُني البغدادي الكبير في قصر الأول... يستمتعان بتناول الفاكهة وما لذّ وطاب من صنوف الطعام والشراب في استرخاء واستمتاع تام... وكانت جواري العلقمي يترقصن على الحان

الموسيقى في تناغم مذهل... فيبدو من أدائهن أنهن بذلن الكثير من الجهد والمران للوصول إلى هذا المستوى الراقي من الآداء، وتناسب أدائهن المتميز مع وجُهَهُن الجميلة الساحرة وأجسادهن الغضة المتمايلة وكأنهن الأزهار تتمايل بتأثير ريح مباركة.

سعل العلقمي من أثر حبة فاكهة يلوكها في فمه ثم صفق بيديه المُكتظة ليصرف الجواري الراقصات حتى يتحدث مع ضيفه على انفراد، اعتدل التاجر السُني من متكئه على كراهة منه أن صرف العلقمي الجواري، ومع ذلك نظر إلى جليسه وبادئه الحديث:

- كانت فكرة عبقرية أن تقترح على الخليفة تمويل احتفالات هذا العام في ذكرى خلافته للمُسلمين من لدنك.

- لأول مرة أجد أحدهم سعيد أنه خسر كل تلك الأموال على أمر لا طائل منه.

التاجر بخبث:

- كيف ذلك؟ ففُربك من المستعصم دائماً ما كان عوناً لنا وقد سهل لنا الكثير من أمر تجارتنا.

- هو كذلك، لكن ألا يسؤك أن تدفع كل تلك الأموال والخليفة لا يعلم أنك صاحبها.

- يكفي أنك تعلم ذلك، فالخليفة يثقُ فيك ثقة عمياء وأنت من تدير الأمور لصالحي في الخفاء، وما أظن الخليفة يتذكرني حتى وإن ذكرتني عنده، فهو غافل عن كل ما حوله.

- قد صدّقني المستعصم وأن نقود الاحتفالات التي دفعت هي من حر مالي، دفعتها حباً وتقديراً له.

فلتت نظرة حقد دفين وحسرة على الأموال من أعين التاجر، لكنه حاول مواراة ذلك بتملق العلقمي:

- هو يصدقك في كل ما تقول ونفوذك عنده يزداد يوماً بعد يوم، فمن يصدق أنك تملك كل هذا القدر من السلطة ولم تتجاوز عامك الثاني كوزير للدولة.

أمسك العلقمي النظرة التي حاول التاجر إخفاءها فقرر مهاجمته:

- أتحسدني عمَّا أصبت من منصب تنتفع أنت منه.

قال التاجر مُبجلاً وفي عينيه نظرة خوف:

- حاشا لله، إنما أرجو لك المزيد، فنجاحك نجاح لي سيدي الوزير.

أحس التاجر بتغير مزاج العلقمي فخاف من مجالسته أكثر لئلا يثير غضبته فآثر الانصراف، فما لبث بعد ما قال إلا قليل واستأذن من العلقمي وانصرف.

أما العلقمي فجلس وحده بعد انصراف التاجر يفكر، فقد تغير مزاجه من بعد حديثه مع التاجر وما لمحه من نظرة حاقدة خاطفة في عين هذا الأخير، فأخذ يلوم نفسه أن أدناه إليه على هذه الشاكلة... فصحيح أنه تاجر ماهر احترف التجارة وبرع فيها منذ سنوات كثيرة مضت، وصحيح أنه طوال حياته من عليه القوم الأثرياء الذين ما كان ليطمح هو نفسه في مجالستهم في السابق... لكن الحال الآن قد تبدل، فهو وزير الخليفة... بل هو الخليفة نفسه... نعم هو الخليفة... أليس هو من يقرر السياسات العامة للبلاد، أليس هو من يأمر فيطاع، هل يَرُدُ المستعصم له قول، سيطرته على الخليفة مُحكَّمة وكاملة، الجميع يعلم مدى سطوته في بلاط الخليفة.

فهذا التاجر الآن ليس كُفئاً له بل هو تابع يدفع لينتفع، وليس له أن يعرف المزيد، فالمعرفة يجب أن تكون دائماً بقدر الحاجة، فقد أخطأ أن أدناه... وأخطأ عندما حدثه عن علاقته بالخليفة المستعصم، فما عليه إلا أن يدفع ما يُطلب منه ليتلقى بعض الخدماتِ من قصر الخلافة، أما الآن وقد لمح هذا الحقد الدفين في عين هذا الطامع... لسوف يُدني منه غيره من التُجار، عسى أن يعرف هذا الساذج قيمته، وأن ما يدفعه إليه لا يساوي البتة ما يتلَقاه من خدمات داعمة لتجارته ومعززة لسطوته بين الناس.

ولماذا يحقِدُ عليه هذا التاجر في الأساس؟!، ألا يُقدر حجم المخاطرة التي تعرض لها عندما قام على نحو خفي بتأييد المستعصم ضد عمه الخفاجى على ما كان يحمله هذا الأمر من خطر على مُستقبله الوظيفي بل وعلى حياته ذاتها.

فقد كان العلقمي يعملُ بالأدب عندما مات المُستنصر، وقتها تنافس الخفاجى والمستعصم على الخلافة، فاستطاع هو بدهاءه استمالة طائفته الشيعيه وغيرهم حتى يدعموا المُستعصم[55]، صحيح أن بعض الشيعة الواعيين رفضوا دعم المستعصم على الخفاجى إيماناً منهم أن الخفاجى أصلح للقيام بشئون البلاد، لكن الباقيين ممن آثروا الدنيا والفوا حياة الدعة استجابوا له في طلبه ودعموا من يستطيعون سياسته والسيطرة عليه.

ولم يكتفي المستعصم بالدعم الشيعي، بل سعى لدعم السنة كذلك من خلال تأثيره على زائره الحاقد ومن هُم مثله من عِلية القوم، ممنياً إياهم بتحقيق مآربهم إن هم عاونوه لتولية المستعصم، وأخذ يقنعهم أن المستعصم إلى الخلافة أقرب، وأن الخفاجى إن تولى الأمر لسوف يجمع منهم الضرائب

الباهظة حتى يجيش الجيوش لملاقاة التتار، وليس من المُستبعد أن يأمرهم الخفاجى بترك تجارتهم وأموالهم حتى يقاتلوا التتار بأنفسهم، ولازال هو على ذلك حتى عرف المستعصم أن العلقمي من شيعته وعرف الخفاجى أنه من عدوه.

وتمَّ الأمر وانتصر المُستعصم على الخفاجى وهرب الأخير إلى حيث لا يُسمع عنه أحد، ولم يحاول هو البروز من مكمنه ألا يُقتل، ألا يستحق الجائزة الكبرى على هذه المخاطرة العظمى، لماذا يستكثر الناس عليه أن سار من ذوي النفوذ، لعل التاجر الحاقد يؤمن بفاعلية دوره في دعم المستعصم هو الآخر، فهو بذلك لا يرى للعلقمي عليه تميزاً.

أياً ما كان... قرر العلقمي أن يقصي عنه هذا التاجر ويقرب إليه غيره حتى يعرف التاجر مقداره الحقيقي، ويتأكد ويوقن من سلطة العلقمي.

أما التاجر فقد انصرف عن منزل العلقمي ساهماً يلوم نفسه عن تلكم النظرة التي تبدت منه والتقطها العلقمي، يا له من ثعلب ماكر، كيف استطاع التقاط تلك الهفوة السريعة ويكون رد فعله سريعاً إلى هذا الحد، من الواضح أن العلقمي فذ بحق ولا مثيل لذكائه واتقاد ذهنه، فالأحرى به أن يكون أحرص في المرات القادمة التي يجالسه فيها.

عندما وصل التفكير بالتاجر إلى هذا الحد ظهرت ملامح الحصرة في عينيه وأخذ يضرب كفاً بكف، مُبكتاً نفسه: هذا إن كان في المستقبل جلسات قادمه، هل تصل شدة تقلبات الزمن إلى هذا الحد... اليس ذاك هو مؤيد الدين العلقمي الأديب المغمور الذي طالما سعى لمحادثته والتعرف عليه، أتنقلب الأمور لتجعل سادة القوم ذوي حاجة عند الرعاع، استبد الحزن بالتاجر وهو يتذكر حال أباءه وأجداده وهو يقارنهم بآباء وأجداد العلقمي، فقد كان أجداد العلقمي نكره عندما كان أسلافه هُم أسياد بغداد.

لكن ما باليد حيلة، وما عساه الآن أن يفعل إلا مُداهنة العلقمي ومن هُم على شاكلته حتى لا تبور تجارته، فهو يَعرفُ مقدار العلقمي عند المستعصم، وأن العلقمي يستطيع دعمه ليظل على صداره السوق ببغداد ويستطيع كذا أن يتسبب في إعدامه، فليس من العقل أن يناصب الرجل العداء.

****

اغتيال توران شاه

مصر 647هـ

رغم أن الأيوبيين استجلبوا المماليك بمالهم حتى يُقاتلوا معهم أعدائهم... فلم تكن العلاقة بين المماليك والأيوبيين علاقة العبيد بالسادة، بل كان الأيوبيون يُقربون المماليك إليهم ويعاملونهم معاملة الأقارب والأبناء، فأحسنوا تربيتهم وتدريبهم وتعليمهم، الأمر الذي ضمن ولاء المماليك واخلاصهم التام لسادتهم الأيوبيين.

كان تدريب الأيوبيين للمماليك يتم على مراحل ثلاثة، المرحلة الأولى تبدأ والمملوك لايزال صغيراً ولم يصل إلى سن البلوغ، ففي هذه المرحلة يتم تعليم المملوك علوم القرآن والحديث والقراءة والكتابة والحساب، وعندما يصل المملوك إلى سن البلوغ تبدأ المرحلة الثانية التي يتعلم فيها فن الحرب والقتال واستخدام السيف والنشاب وركوب الخيل والسباحة لمسافات طويله، أما المرحلة الثالثة فكانت هي مرحلة التمحيص والاختبار وفيها ينازل المماليك بعضهم البعض حتى يميزَ القوي من الضعيف وحتى يتم رفع بعضهم درجات بحسب المهارة القتالية والقدرة على القيادة.

جلس فوّاز يَرقبُ المتدربين في ساحة قلعة الروضة[56]، وكان يرقب باهتمام شديد ذلك الفتى الذي يَصولُ ويجولُ في الميدان مُتسلحاً بسيفٍ خشبي ضخم، فيلكز هذا بسيفه ويلطم ذاك بدرعه وقد تفصد العرق من جميع جسده حتى ابتلت كنزته على سماكتها، كان يجلس جوار فوّاز مملوك آخر اعتاد التدرب معه فطفق يسأله:

- من هذا الفتى الواعد؟

- المملوك: اسمه محمود بن ممدود وهو أحد أشهر مماليك عز الدين أيبك[57] ويُكنّى بقطز.

- فوّاز: وكم له الآن تحت إمرة عز الدين أيبك، وكيف استطاع الالتحاق بخدمته؟

- هي قصة طويلة... فهذا الفتى يقال أنه من بيت كريم من بيوت آل خوارزم وتم أسره ثم بيع إلى أحد أثرياء الشام والذي قام ببيعه إلى العز بن عبد السلام الشيخ والفقيه الشامي المعروف، وعندما تم نفي العز بن

عبد السلام من الشام من قبل الصالح إسماعيل عندما عارض الشيخ تحالف إسماعيل مع الصليبيين نُفي إلى مصر واصطحب معه قطز، وطلب قطز حيئذٍ من شيخه أن يسمح له بالاشتراك في القتال الدائر ضد الصالح إسماعيل وحلفاؤه من الصليبيين، وقد أبلى بلاءاً حسناً في هذا القتال، وبعدها طلب المملوك من شيخه أن يبيعه إلى الملك الصالح عسى أن يترقى في المناصب ويتأمر على الجند، فوافقه الشيخ على ذلك وباعه إلى الملك الصالح، فألحقه الأخير ليكون تحت إمرة مملوكه عز الدين أيبك.

- يا لها من رحلة طويلة مر بها الفتى على صغر سنه، لكنه مندمج تماماً في حياته الجديدة، ومنغمس في التدريب إلى أبعد الحدود، يبدو أنه يؤمن إيماناً شديداً بما يفعل، فهو يبذل قصارى جهده في التدريب ويعطي الأمر جل انتباهه.

لطم قطز غريمه بالدرع لطمة شديدة طار على أثرها إثنان من أسنانه وظهرت شجة طويلة في جانب وجهه الأيمن قد انساب منها الدم... حتى توارى وجهه وقد عانق التراب فلبث على الأرض هامداً بلا حراك، نظر قطز بعين راضية إلى زملائه الذين كان يُلاعبهم وقد سقطوا إعياءاً ... ورفع عينيه إلى جمهوره من المتدربين ليحتضن نظرات الإعجاب البادية والحسد البادية على وجههم ليحولها إلى طاقة إيجابية تعينه على بذلِ المزيد.

كان فوّاز واحدا من أولئك الذين رمَّقوا الفتى بإعجابٍ حقيقي، التقت عيني فوّاز وقُطز لوهلة ثم انصرفت أين البطل إلى استاذه عز الدين أيبك وهو بعد يَمسح العرق عن وجهه في رضاء.

قال المملوك الجالس بجانب فوّاز:

- هو فتى طموح ولديه رغبة شديدة في الإمارة والتسيد والمُلك، قد أطلق عليه التتار لقب قطز والذي يعني الكلب الشرس، وذلك لشدة ما لاقوه منه من مقاومة.

دخل فوّاز قاعة طعام المماليك وشعر تواً بالدفء يغمر أنحاءه من أثر سخونة الطعام وأبخرة الطهي المحتبسة، وقف فوّاز خلف زملائه من المُقتالين في الصف حتى يملأ صحيفته الخالية بصنوف الطعام الساخن.

ملأ فوّاز صحيفته بالأرز وقطعة من اللحم وبضعة قطع من الخضار الطازج وبات يجول بعينيه يبحث عن مجلس قطز عسى أن يحادثه ويقع بينهم التعارف، ويبدو أن حظ فوّاز كان حسن، فقد رأى قطز جالساً يتناول طعامه... وكانت التكة أمامه فارغة تنتظر من يملأ فراغها، فتوجه صوب المكان الخالي بلا تردد ونظر إلى قطز قائِلاً:

- قد أبليت اليوم بلاءاً حسناً.

توقف قطز عن المضغ لوهلة وهو يتأمل في ملامح فوّاز ببرود ثم رفع طبق الحساء إلى فمه بكلتا يديه ثم نهل منه بغير أن يَرُد...

كان صوت قرع الصُحف والأواني يكاد يَصمُ الآذان، لكن فوّاز كان يشعر أن الجميع قد انتبه لتجاهل قطز له على هذا النحو المخزي، فكر فوّاز في التراجع عن التعرف عن هذا المغرور من بعد ما لمسه منه من سَلف، لكنه عدل عن تفكيره وقرر يائساً أن يحاول المضي قُدُماً في محاولته مرة أخرى وأخيرة، فقال بصوتٍ متحشرج من أثر الخجل والتخبط:

- أسمي فوّاز ... ما اسمك؟.

نظر قطز إلى فوّاز بتمعن، ولمح هذه المرة في وجهه ملامح العز البائد الذي ذكره بالأيام الخوالي في قصر آباه ممدود، وشعر بشئ من الراحة والود جهة المتطفل الجديد فلانت ملامحه على غير إرادة منه:

- فنلبدأ بك، من أنت؟

- جئت من بغداد لأكون تحت إمرة الملك الصالح في قتاله ضد المشركين.

استراح قطز لحديث فوّاز وشعر من حديثه بالإخلاص والطيبة:

- يبدو عليك ملامح الترف، فيمَّ كنت قبل أن تأتي هنا؟

حكى فوّاز قصته باختصار لقطز وعرَّفَه على أفراد عائلته معرفة سريعة وقطز يستمع في صمت ليتعرف أكثر على المتطفل الجديد، وعندما سأله قطز عن سبب ترك كل ما كان فيه من ترف ونفوره للجهاد اضطرب فوّاز بعض الشئ وأجاب أنها الرغبة للجهاد في سبيل الله، ولم يبتلع قطز تبرير فوّاز الأخير لكنه في الجملة قرر أن يُدني المتطفل الجديد منه فقال:

- ظننتك حراً قادهُ الضرُ والزمنُ المُرُّ، ولم أتصور أن يقبل أحدهم الشقاء على نفسه طواعية.

لم يعلق فوّاز، وعندما وصلا الإثنان إلى مدخل المسجد لآداء صلاة العصر، سمح له قطز أن يأكل على مائدتهِ وسط خاصته... وهو الأمر الذي أسعد فوّاز وجعله ممتناً.

كان الملك لويس التاسع من أشد المتحمسين لقيام حملة صليبية تاسعة على مصر وذلك لشعور الصليبيين بالتهديد من جراء استيلاء المسلمين على ممالكهم الواحدة تلو الأخرى، فرغبوا حينئذٍ أن يعاجلوا المسلمين بحملة استباقية انتقامية على أثر هزيمتهم في معركة لافوربي فابحروا من بلادهم

ووصلوا إلى شواطئ دمياط واستطاعوا الاستيلاء على ثغر دمياط وحاولوا التقدم إلى القاهرة.

عندما علم الملك الصالح بتجرأ الفرنج على مقامه واستيلاءهم على ثغر دمياط هبَّ لقتالهم فارسل إليهم قائد جيوشه الأمير فخر الدين يوسف لكنه هُزم هنالك، فحزن الملك الصالح نجم الدين أيوب لتلك الهزيمة حزناً شديداً أمرضه والزمه الفراش، دخلت شجر الدر على زوجها الملك الصالح تواسيه في مصيبته:

- ما بالي آراك وهنت من جراء ما حدث، قد قرعت فوق رأسك من قبل الطبول فما وهنت لما أصابك.

ابتسم زوجها ابتسامة باهتة وقال متأملاً:

- أما كان يستطيع أبي أن يكفينا كلفة الصراع بيني وبين أخي، وكيف لا يدرك وهو الكامل مغبة اختياره، أيستخلف الضعيف حتى يفتك به القوي، أكانت رغبته أن أقتل أخي، أهو الآن مستريح في قبره وقد ترك ولداه يتصارعان حتى قتل أحدهما الآخر[58].

- حنانيك أيها الملك، هو أمر قد مضى، وإن لم تكن أنت قاتله لكان هو قاتلك.

الملك الصالح في ألم:

- لكن شبحه دوماً يحاصرني ، أراه في يقظتي وفي أحلامي، وكأني حضرت وقت خنقه في السجن، كأني أرى تعابير الألم على وجهه وأرى تحول لون وجهه حتى شحب تماماً، بل وكأني أحس بروحه تتسلل من بين أطرافه ليرجف رجفته الأخيرة، أراه ينظر إليَّ نظرة اللائم المُستضعف وكأنه يقول لي لإن قدرت عليك لم أكن لأفعل فعلتك التي فعلت.

- بل كان فاعلها ولكان هو قاتلك، السلطان أمر لا هوادة فيه، وهو أمر دونه الموت، وهو كان يعلم ذلك، فإن نصرك الله عليه فكن من الشاكرين وكف عن التندم على ما كان، ألم ترى كيف كان يسكر ويلهو ويتشاغل عن أمور الملك والعباد.

سكتت شجرة الدر هنيهة ثم قالت بجدية:

- دعك من أخيك الآن، ولتلتفت إلى الغزاة الصليبيين.

الملك الصالح بصوتٍ واهنٍ:

- لم أكن أتوقع تلك الهزيمة المُخزية على يد أولئك الشرازم، ولم أكن أتوقع أن يستسلم فخر الدين بهذه السهولة، لكني سوف أعاقب هذا المتخاذل جراء ما فرط في القتال، تالله لأقطعن رقبته هو وخمسين من قواده ممن ولوا يوم الزحف أدبارهم.

فتحت شجر الدر عينيها من الدهشة، فلم تكن تتوقع من زوجها رد فعل عنيف جراء ما حدث على ما هو عليه من وهن:

- وما ذنبِ فخر الدين فيما حدث وقد انسحب من حوله جميع قواده، هل كان لزاماً عليه مُقاتلة الصليبيين وحده!

نظر نجم الدين إلى زوجته نظرة ارتياب وقال:

- بل ذنبه أنه لم يمت على فرسه وفي يده سيفه.

ظلت شجر الدر تجادل زوجها في دم الأمير فخر الدين يوسف حتى وهبها إياه فعفَت عنه.

كانت حالة الملك الصالح تسوء مع كل يوم يمضي، ومع ذلك كان يتابع الحرب ويحاول تحريك المماليك لإيقاف تقدم الصليبيين، وكان في جملة من تحرك بيبرس مملوك أقطاي وقطز مملوك عز الدين أيبك، وكان صحبة قطز فوّاز.

لم تمر أيام أخر حتى أشتد المرض على الملك الصالح نجم الدين أيوب وتوفى في فراشه حصرة وكمداً[59]، فأرسلت شجر الدر إلى الأمير فخر الدين يوسف تستشيره في الأمر:

- أجرني في مصيبتي يا فخر الدين، قد مات السلطان في هذا الوقت الحاسم.

- البقاء والدوام لله، هي مُصيبة شديدة، يجب التعامل معها بحكمة وكياسة، فلو علم المماليك وكبار رجال الدولة بالأمر لأوهن ذلك من عزمهم وأصبحنا هباء منبثاً أمام الإعصار الصليبي.

وما العمل؟ وكيف أستطيع كتمان مثل هذا الأمر الجلل؟ فخر الدين بتأمل:

- لعل الله أبقاني من بطشِ الملك الصالح رحمه الله لأكون لك عوناً في هذه المنزلة، الرأي أن نخفي خبر موت الملك الصالح عن الجميع وأن يتم تغطية جثته بالحناء وتسييرها في النيل بحيث لا يستطيع أحد التعرف عليها، ولتُسيّري أنتي الجيوش وتأمري وتطاعي باسم السلطان عندما تقومين بختم الأوامر التي نتفق عليها بخاتمه.

- وماذا عن الخُدّام والحُجّاب؟

- قولي أن السلطان مريض ولا يسمح لأحد بالدخول عليه، وإن جاؤكِ بالطعام فليُأكل بعضه ويُرد باقيه من وراء الباب ولا يُشعرن بك أحداً.

فكرت شجر الدر في مقترح فخر الدين بتأمل وانتهت أن ما يقوله هو عين الصواب فشرعت تنفذ تعليماته بدقة شديدة، وسارت الأمور على ما يرام والجيش يكرُ ويفرُ في مواجهات مستمرة مع الصليبيين حتى فُضح الأمر وتسرب خبر موت الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى رجال القصر ومنه إلى العامه، فقد كان تردد الأمير فخر الدين يوسف على قصر الملك بغير إذن مدعاة للريبة.

عندما علم المماليك الصالحية بنبأ موت ملكهم الصالح لم يرضوا لخلافته بديلاً عن ابنه توران شاه، فقاموا بإرسال الرُسُل إليه في حصنه بكيفا[60] حتى عاد إلى مصر وتأمَّر عليها وقاد جيش أبيه لمواجهة الحملة الصليبية يعاضده في ذلك مماليك أبيه عز الدين أيبك وأقطاي وقلاوون[61]، وكان قطز وفوّاز ضمن المقاتلين الميدانيين المتواجدين على الأرض في دمياط يزودون عن البلاد بسيوفهم.

****

هدأت الأمور داخل ثكنات الجند المرابطة حول دمياط، وكان الليل لازال في أوله وقد تناول كلٌ طعامه، شعر قطز بالوحشة في خيمته فذهب إلى فوّاز قبل أن ينام وطلب منه أن يتسامرا لبعض الوقت بعيداً عن الثكنة، تحرك الإثنان كتفاً في كتف حتى جاوزا خيام المُقاتلين وسط نظرات الفضوليين، تخير قطز صخرة ناتئة أمامها أرض مفتوحة فجلس عليها وجلس فوّاز بجانبه بغير أن يجلسا وجهاً لوجه.

- قطز: أتعلم يا فوّاز... في يوم من الأيام سأصبح سلطان هذه البلاد وسوف أكون قائد لجيش يُكتب له هزيمة التتار.

نظر فوّاز إليه في شكٍ:

- حلم نبيل اسأل الله تعالى أن يحققه لك، وأعدك حينئذٍ أن يكون سيفي إلى جوار سيفك في هذه الحرب المباركة.

- ألا تصدقني، قد قابلت أكثر من عرّاف وتنبأ لي بنفس الأمر.

- كذب المُنّجمون ولو صدقوا يا قطز.

- ألا تجدُ غرابة في أن يتنبأ أكثر من منجم بذات المصير المجنون، وما قولك في تلك الرؤى التي باتت تتكرر عليَّ في منامي وتؤكد جميع ما أقوله لك.

- هو أمر محمود على جميع الأحوال ورؤية مباركة، تستحق أن يجتهد المرء من أجل تحقيقها.

- رغم موت الملك الصالح والأمير فخر الدين يوسف في خضم تلك الحرب الضروس، فأنا على يقين أن الله سوف يخلصنا من العدوان الصليبي الغاشم ومن بعدها سوف نتفرغ لقتال أولئك البرابرة الهمج البدائيين، وسوف أكون أنا من يستأصل شأفتهم من الأرض.

نظر فوّاز إلى قطز وعينيه ساهمة في عوالم بعيدة، وفي هذه المرة كان فوّاز على استعداد تام لتصديق ما يقوله قطز، بل تمنى وأقسم في نفسه أن يكون جوار ذلك المملوك الفز يوم تحين لحظة الحسم.

وكأن أبواب السماء كانت مُفتَّحة في تلك اللحظات التي ترنم فيها قطز بمشيئته إلى القوي الجبار، فهبت ريح قوية عصفت بالسفن الصليبية وانتصر الجيش المصري تحت القيادة الميدانية للمماليك بيبرس وقطز وأقطاي وقلاوون وعز الدين أيبك، لكن النصر السياسي نُسبَ إلى السلطان الجديد توران شاه ابن الملك الصالح.

لكن يبدو أن هذا النصر الزائف أدار رأس الفتى الصغير، خاصة وأن جيشه استطاع أن يأسر لويس التاسع قائد الحملة الصليبية فصار مكشوف الوجه يُداعب جواري أبيه بغير تمييز ويعاقر الخمر، وقام بإقصاء شجر الدر عن جميع شئون الحكم وطالبها بمجوهرات أبيه، وفي ذات الوقت سار يضطهد المماليك البحرية ويضيق عليهم فاتفق عليه أعداؤه فقرر الجميع التخلص منه.

أرسلت شجر الدر إلى فرسان المماليك لتستشيرهم في الأمر وتستعديهم على توران شاه الذي بات الآن عدواً مشتركاً للجميع.

كانت شجر الدر جالسة في قصرها تحادث أقطاي وقلاوون وعز الدين أيبك فرسان زوجها ومماليكه وقد سكت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير بعد الاقتراح الذي جهرت به شجر الدر.

- أقطاي: كيف لنا أن نقتل ملك مصر وخليفة الأيوبيين وابن الملك الصالح، ما تقترحيه أمر قد يردينا جميعاً، فلن يتقبل الأيوبيين الأمر ولسوف يغيرون علينا، وقد تحدث فتنة بين المماليك الصالحية والبحرية فيتقاتل الجميع وتمتلئ البلاد ببحور من الدم.

- شجر الدر مدافعة: إن تركناه على ما هو عليه لسوف يردينا جميعاَ بيده، وإن توحدنا ضده فستكون لنا فرصة في التَسَيُد مرة أخرى.

سكت الجميع أمام تصميم شجر الدر على رأيها الجرئ، وباتوا غير قادرين على جدالها وهم يعلمون سوء نية توران شاه نحوهم، فاتفق أغلب من كان في المجلس على قتل توران شاه، وقرر البعض البقاء على الحياد.

انصرف أيبك من مجلس السلطانة شجر الدر لا يدري ما يفعل بشأن توران شاه، لكنه كان يميل إلى الاشتراك في قتله حتى تكون له الحظوة مع شجر الدر عندما تأول إليها الأمور، أرسل أيبك إلى قطز مملوكه المفضل يعرض عليه الأمر ويستشيره فيما هم مُقبلين عليه مُرغباً إياه في الإقدام، ولم يستطع قطز رفض أمر سيده عز الدين أيبك بضرورة المُشاركة في اغتيال توران شاه، فرغم أنه كان يكره توران شاه ويكره تعاليه، إلا إن ذلك ليس مُبرر البتة أن يتم اغتياله، لكنه في الكفة الأخرى يعلم أنه إن خالف سيده أيبك في رأيه فلسوف يُقصّيه عنه ويزدريه، وتضيع جميع مكتسباته التي حققها طوال الفترة الماضية، خاصة وإن مات توران شاه، فسوف يعلوا أمر المماليك وسوف تكون كلمة كبرائهم مسموعة في البلاد، فليس من الذكاء أن يخسر أحد أهم أولئك السادة المماليك سيده أيبك.

دخل فوّاز على قُطز في غرفته وقد تبدَّت علامات الهم والغم على ملامح الأخير، فطفق فوّاز يسأله:

- ما بالك يا قطز؟ أراك مهموم مشغول البال.

- هو أمر لا أخالني استطيع الخوض فيه.

- ظننت نفسي استثناء على حالات التكتم التي تنتابك، وقد تقاربنا أنا وأنت على قلة المُدة التي تعارفنا فيها.

- هو كذلك... ويبدو أنه ليس لي خيار آخر، فلا استطيع التحدث مع أحد فيما اعتراني من أمر.

- تحدث وكن مطمئناً فما تقوله سيظل في طي الكتمان.

ضحك قطز ليظهر عدم ثقته فيما يقوله فوّاز:

- هو أمر خاص بتوران شاه ملك البلاد، اجتمع المماليك البحرية وشجر الدر على التخلص منه في أقرب وقت.

هب فوّاز من فوق مجلسه من هول ما سمع:

- أبعد انتصاره على الإفرنج وتحريره للأراضي التي دنسوها!

- قد انقلب علينا من بعد ما حققناه له من انتصار على الصليبيين، فلولا تدخلنا أمام قلعة المنصورة وحصارنا للصليبيين من بعد ما برزنا لهم من الأجناب فقاتلناهم وشددنا عليهم داخل المدينة لما كُتِبَ النصر لهذا المغرور.

- وما الجديد في ذلك فالنصر دائماً ينسب إلى الملوك والسلاطين، فلا عجب أن نسب توران شاه النصر إلى نفسه.

- لا أؤاخذه في ذلك، وإنما أؤاخذه أن دنى من مكانتنا من بعد ما رفعنا من مكانته، خاصة وكان أباه الملك الصالح يغدق علينا ويكرم مقامنا، وقد بلغ الكثير من قيادات المماليك أنه يريد التخلص منهم وإقصاءهم فأوغر ذلك في صدورهم وسار موته مطلباً عاماً للجميع.

- أهيبُ بك يا قطز ألا تشارك في تلك الجريمة، فإن لم تستطع إيقاف تلك الفعلة الشنعاء، فلا تمتد يدك لتبوء بإثمها، فلتُبقي يدك نظيفة ولتكن بعيداً عن الفتن ... غنياً عن الآثام.

- أنت تتحدث وكأن الأمر سهل، فلو عصيت سادات المماليك لهُدم جميع ما بنيت ولرجعت مرة أخرى إلى القاع، فالولاء يقاس بالطاعة.

- حاول أن تتحدث إلى عز الدين أيبك وتثنية عن تلك الجريمة، فلربما استمع إليك وعدل عن رأيه.

اقتنع قطز بحديث فوّاز إليه واستيقظ ضميره بعد طول نقاش، وقرر مفاتحه سيده في المسأله، وحدثت المعجزة واستجاب عز الدين أيبك لنصيحة قطز وقرر أن يبقى على الحياد في شأن اغتيال توران شاه، فقد كانت ثقة أيبك في قطز كبيرة، وكان كثيراً ما ينزل إلى رأيه، ومع ذلك فقد كان أيبك على دراية بجميع تفاصيل المؤامرة التي حيكت ضد توران شاه فوقف هو وفرسانه يرقبون ما سيحدث.

في صباح يوم الأثنين 28 محرم عام 648هـ وبينما يتناولُ توران شاه إفطاره تقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بالسيف ضربة تلقاها توران شاه بيده فقطعت بعض أصابعه، فأسرع توران شاه إلى بُرجٍ خشبي أقامه على النيل حتى يمضي فيه بعض وقته، وأخذ يصرخ ويتهم جميع المماليك أنهم تمالئوا على قتله بغير أن يستثني فئة منهم، فأغرى ذلك من كان على الحياد بالمشاركة في اغتياله، وقال أمراء المماليك "بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها"، فقد خافوا إن فر توران شاه من ميتته أن يقضي عليهم جميعاً من سكت ومن شارك، فدخل بيبرس وأقطاي وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج شاهرون سيوفهم، وفي هذا الوقت وعندما تسارعت الأحداث وأيقن جميع المماليك أنه لن ينجو منهم أحد إن تُرك توران شاه على

قيد الحياة تحرك قطز ومماليك أيبك بالجملة فمنهم من حاصر البرج من الخارج ومنهم من اندفع داخله، وكان قطز من أوائل من طارد توران شاه داخل البرج.

عندما رأى توران شاه قطز وبيبرس وأقطاي خلفه شاهري سيوفهم فرَّ أعلى البرج وأغلق بابه والدم يسيل من يده وقد تدلت أصابعه الدامية من كفه على هيئة أثارت الرعب في نفسه، وعندئذٍ بدأ المماليك المُحاصرين للبرج من الخارج برميه بالنشاب المشتعلة واضرموا النار فيه، وانسحب المماليك الذين يطاردون فريستهم من داخل البرج ليشاركوا زملائهم في الحصار من الخارج، أخذ الدخان المنبعث من حريق البرج يزحف من تحت أبواب الغرفة التي يختبئ فيها توران شاه، وشعر الأخير أن درجة الحرارة تزداد على نحو جنوني بحيث لم يعد في استطاعته لمس الحوائط أو الوقوف بثبات على الأرض الخشبية، فتح توران شاه نافذة البرج المطلة على النيل بصعوبة وقد تأذت يده السليمة مرات عدة من شدة حرارة النافذة... ليرمى بنفسه من أعلى البرج وقد طال بعض جسده آثار الحريق ليسقط في النيل.

ها هو قد ألقى بنفسه من البرج يحاول السباحة إلى البر الآخر. قالها بيبرس مُشيراً إلى توران شاه وهو يندفع نحوه...

سمع أقطاي ما يقوله بيبرس وكان لفريسته أقرب... فركض جهة توران شاه وقفز في الماء فطعنه بالسيف وذبحه، وكان بيبرس يجري وراء سيده حتى لحقه فوجده قد أجهز على ضحيته، تبادل الإثنان النظر وهما يلهثان وشرعا يسحبان السلطان المقتول إلى البر ليتركوا جثته على شاطئ النيل بغير أن يجرؤ أحد على دفنها مدة 3 أيام كاملة، حتى شفع في دفنه المُستعصم فوافق المماليك على دفنه[62].

****

الخاقان الجديد

قراقورم 648هـ

نظر القائد المغولي المعزول إلى السماءِ باشتياق بعد ما أخرجوه من الكوة التي احتجزوه فيها لأسابيع، ورغم أن الضوء كان صادم لعينيه إلا أنه ظل مُصمماً على النظر إلى الشمس مباشرة، عسى أن يتسبب ضوءها الطاغي في سكرته فلا يشعر بحد السيف وهو يقع على قفاه، ظل الرجل يحدق في السماءِ فاتحاً عيناه بأقصى ما يستطيع لكنه تعثر في أحد رجال مجموعته من الذين حُكم عليهم بالإعدام معه الأمر الذي عطل طابور الموت.

تنبه الحراس ولكزوا القائد المعزول فعاد بنظره إلى الأمام وإلى من حوله ففوجئ بكم الوجوه الناظرة إليه هو ومن معه، ومع أن العامة كان يبدو عليهم أنهم يهتفون فلم يكن يَسمع لهم صوتاً.

يا ترى أبنائي بين أولئك الغوغاء؟، هل ستطل رأس ابنتي علي لتشهد رأس أباها تتدحرج على الأرض ويعلقُ بها التراب؟، وعندما لاح له هذا الخاطر أفاق من سكرته وانفعل وكأنه يبحث عن خلاص في ركن ما لكنه لم يجد، قد أحتمل أي شئ غير أن تتألم ابنتي برؤية رأس أباها تتدحرج على الرمال ثم تُجمع وكأنها قمامة، لماذا يحكمون عليها بهذه اللعنة الأبدية، فليأخذوا حياتي ألف مرة وليبقوا لابنتي الذكرى الطيبة.

وصل الحراس إلى الساحة المُزمع تنفيذ الإعدام فيها فربت الحُراس على أكتاف الرجال حتى يركعون، وللعجب وجد من حوله يستجيبون ويقدمون رقابهم لقمة صائغة لجلاديهم، لكنه أخذ يقاوم وهو يحاول النظر إلى العامة ليتأكد أن زوجته وأبناؤه ليسوا ضمنهم، لكن الحارس لم يمهله، فضربه بمقبض سيفه ضربة شديدة سببت له دوار هائل... ظل يقاوم حتى وخزه الحارس بسن السيف في جنبه ليسكن من حركته... فمادت الأرض تحت أقدامه واضطر للركوع وقد خارت قواه، وكان يسمع أصوات السيوف من جنبه وهي تخترق الهواء وتصطدم بالرقاب فتطيح بها بدوي مكتوم، ولم يرد هو أن ينظر حوله، عسى أن لا يسبب لنفسه المزيد من الذعر، لكن رأس الجندي المُقيد قبله انفصلت عن جسده وتدحرجت لتستقر أمامه مُغمضة العينين وقد أخذ الدم يتدفق من شرايينها على بخات...

هو يعرف هذا الجندي... ما اسمه؟؟؟، ما عاد يذكر...وفي نفس اللحظة شعر بقبضة حارسة ترتخي من فوق كتفه فعرف أن سيفه الآن في ارتفاع، فاستجمع هو جميع الغضب والخوف من داخله وقام بشد عضلات رقبته لتنفر عروقه منها وترتجف بشكلٍ واضح في محاولة بائسة منه للنجاة وطفق يصرخ صرخة هائلة...

نزل السيف ليطيح برقبة الرجل لتتلامس الرأس المفصولة مع رأس الجندي سابقه وترتعش يداه مرتان أو ثلاث على مدار الثواني اللاحقة، حتى تهمد الحركة من جسده تماماً.

****

جَلَسَ هولاكو ومنكو ابنا تولوي مع كتبغا "أحد أشهر قواد الجيش المغولي وصديق هولاكو" في خيمة منكو الخاصة، كان كتبغا وسيم الوجه عريض المنكبين مفتول العضلات ذو ذقن خفيفة قد أحاطت بجميع وجهه على نحو جذاب، وكان شعر رأسه ناعماً طويلاً قد ربطه خلف رأسه في حزمة واحدة وكأنه ذيل حصان، كان ثلاثتهم مُطرقين داخل الخيمة وقد بدَت على الجميع إمارات التوتر...

- هولاكو: وحق التنجيري... كدت أركن إلى سيفي لأغرسه في قلب ذلك الجبان المتخاذل كيوك.

- منكو: تعقل يا أخي أتريدها حرباً أهلية بين قبائل المغول والتتار، لقد وضع جدنا الشرعة والقانون ونحن على هُداهما سائرون.

- هولاكو: قد خان هو قانون التتار ولم يلتزم بما هو وارد في الياسا، فالصيد واللهو كانا في فصل الشتاء والقتال والفتوحات لابد لها أن تبدأ مع خروج العشب، هكذا تحدثَت الياسا.

- كتبغا: ليس معنى تجاوز كيوك أحكام الياسا أن نتجاوزها نحن الآخرين، وإلا فقدنا شرعيتنا أمام الجميع.

- هولاكو: أمازلت تجد في نفسك القدرة على المجادلة بعد كل ما تسببت فيه بدعمك لهذا الأحمق خلفاً لجنكيز خان.

- كتبغا: رفقاً يا هولاكو، وأعلم أني ما دعمته إلا من بعد ما لمسته من اتفاق مجلس القوريلتاي على شخصه ولست أنا من فعل ذلك وحدي، فجميعكم قد اتفق على شخصه في النهاية.

- منكو محاولاً تهدئة الوضع: ما كان قد كان، ما ترون الآن وهذا الأخرق يُقوض كل ما بناه جدنا جنكيز خان.

- هولاكو: يجبُ أن يموت هذا الخائن، فقد خالف ما هو وارد في الياسا وقتل قواد جيشه مع أن كل الحق كان معهم ليتمردوا على قراره الجبان.

- كتبغا: قتل كيوك ليس بالأمر الرشيد فلو علم خاصته بمقتله فسوف يتخذون ذلك ذريعة للانفصال ومُقاتلة من يعارضهم.

- هولاكو: لن يثبت له أحد من بعد ما قتل قواد جيشه بيده، فالناقمون عليه كغثاء السيل ولن يجد لنفسه ولياً ولا نصيراً.

- منكو لهولاكو: كتبغا على حق، لسوف يجد بعض أتباع كيوك وخاصته في أمر مقتله وليجة للاستئثار بالحكم ومقاتلة من يعارضهم، وهو ذات ما حدث بعد مقتل عثمان خليفة المسلمين وما أعقبه من تصارع بين علي ومعاوية الذي أدعى أحقيته بدم الخليفة المقتول ليصل إلى الحكم وهو ما حدث بالفعل.

- هولاكو: إذن فليكن مقتل كيوك عن طريق الزرنيخ، على أن يتم دسه على دفعات وذلك حتى لا يشعر باختلاف مذاق الطعام والشراب في فمه فيموت مبطوناً بغير أن نثير الشكوك.

- منكو: رأي سديد وخطة مُحكمة، وقد استحق كيوك الموت ويا ليته كان هو وخلصائه مكان قواد جيشنا الشرفاء فتُقطَّع رقابهم ويُرمى بها إلى الكلاب، فهم من خالفوا الياسا وليس قواد الجيوش، ولو أنهم كانوا خائنين مثله لرضوا بأن يكونوا مع القاعدين فيستمتعوا بمُصاحبة النساء وشرب الخمر وأكل الطيب عوضاً عن شَظَفِ العيشِ وحرارة الشمسِ وفجاعة المُنازلة.

حملق كتبغا في الأخوين بقلق ثم قال:

- أما أنا فلا دخل لي بما تنتويان عليه، فإن اكتشف جموع الناس أمر ما تخططانه لوقع فساد عظيم.

لم ينتظر كتبغا الرد وقام منصرفاً عن مجلسهما وقد رمقه هولاكو بنظرة ارتياب في حين ما ثبَّتَ منكو عينيه في اللاشئ وهو يسمع خطوات الرجل تبتعد.

- هولاكو: بئس الصديق هو، أوقعنا في الهوة ويرفض مساعدتنا للخروج منها.

- منكو: فلتعذره يا هولاكو، فهو جندي مُخلص، يأبى الفرقة ويدعم الوحدة، وما تنتوي عليه قد يترتب عليه نتائج جد خطيرة.

- لا تخف يا أخي سيتم الأمر على ما تشاء وترضى فالأخرق كيوك اكتسب عداوات لا حصر لها بعد أحكام الإعدام التي نفذها في قواده الأسبوع الماضي.

أعانك التنجيري يا أخي وسدد خطاك حاول منكو تغيير دفة الحديث:

- عساك سعيداً مع زوجة أبيك دوقوز.

تغير مزاج هولاكو فجأة وضحك ملء فيه:

- لا أخفيك سراً... هي من حوريات الجنان، جسدها وكأنه من القوارير، معتدل بغير إفراط ولا تفريط، ورائحتها ملائكية دافئة تدغدغ أوصالي وتوقظ شهوتي.

- يا لك من ذئب عجوز، ألا تستحي يا رجل؟

- لازلت شاباً يا منكو، وسل من ضاجعتهن من النساء عن هولاكو وفحولته التي لا تُضاهى.

سكت هولاكو هنية وكأنه يستعيد ذكريات سعيدة وأكمل:

- هن من متاع الحياة، أفضل ملاعبتهن عن أي شئ آخر في الدنيا.

- دامت عليك السعادة يا أخي العزيز، فدوقوز زوجة طيبة مُطيعة لا تكاد تُخالفك في أمر.

- كانت مترددة من أمر زواجنا في بادئ الأمر، لكن يبدو أن قساوستها أقنعوها أن لن يطفئ نار شهوتها إلا هولاكو العظيم.

قالها وأخذ يضحك في خلاعة وأكمل:

- ومن وقتها وهي تحت قدمي تفعل ما أشاء وتفكر في كل ما يرضيني.

- هي على نفس السمو الأخلاقي الذي اتسمت به أختها الكبرى قولان زوجة جدنا العظيم جنكيز خان، فهي شبيهتها في الشكل والجوهر.

بهت هولاكو من مُلاحظة منكو، مع أن الشبه بين دوقوز واختها قولان لا تخطئه عين، فقد ذكرته ملحوظة أخاه بحبه القديم الكامن في أعماق قلبه... الكامن في أعماق سحيقة، فتجددت عليه الآلام، لكنه استعاد توازنه في سرعة وساعده في ذلك أن أخاه منكو لم يكن منتبهاً لما أصاب حاله من تبدل.

- هولاكو: دعنا من ذلك الآن، سأنصرف حتى أرتب بعض المقابلات التي ستسهل من مهمتنا.

- عليك بالاحتياط، ولا تحاول الاتفاق إلا مع من تثق به من الرجال، فإن اكتشف كيوك أمرك لأعدمك بلا ذرة شفقة، ولاندلعت نيران الحرب بين القبائل التتارية حتى نفنى جميعاً.

****

ابتسمَ هولاكو في ثقةٍ وهو يتحدثُ مع كتبغا قائلاً:

- هذا الأخرق كيوك يقتل أي أمل في أن يثور أنصاره ضدنا إن هو مات، فهو ينهي نفسه سياسياً في الوقت الذي يسري سُمي في جسده.

- الحق أنه تجاوز جميع الخطوط الحمراء وحصل على كمية رفض من جموع الشعب لا يمكن الحصول عليها إلا بسعي دءوب.

- دعه في يعمه[63] في سكرته، فالجميع يتمنى زوال ملكه اليوم قبل غد.

- الأمر الذي زاد الطين بلة تلك الضرائب التي وضعها على جميع العباد.

- ولم يكتفي جلالته بذلك، فقد شاء أن لا يتهرب أي شخصٍ من تلك الضرائب المُجحفة فقام بعمل تعداد سكاني ليضمن أن الجميع سوف يدفع، الأبله... خسر العامة والخاصة من الناس.

- حقاً لم يعد هناك من ينصره، لكن ما أخشاه حقيقة هو أن تتم المواجهة بين كيوك وأبناء جوتشي.

- رغم أن أمي قليلاً ما تتصرف على نحو سليم، فقد أحسنت عندما رفضت الزواج من كيوك عندما كان أجوطاي على قيد الحياه وحاول إقناعها بذلك، وأحسنت أيضاً مؤخراً عندما حظرت باتو بن جوتشي من كيوك عندما طلب مُقابلته من بعد ما أعدم جنرالات جيشه.

- أنا مثلها قد شممت رائحة الغدر فيما ينتويه كيوك حيال باتو، أولا تذكر كيف تشاجرا معاً على الغنائم إبان فتح روسيا.

- وكيف لي أن أنسى، قد كان كيوك طوال عمره غِراً مُتسرعاً، تحالف مع بوري ضد باتو بسبب الغنائم ووقتها نعت باتو بالعجوز المُرْتَعِدَة، وما أظن كلاهما ينسى مثل هذه الحادثة.

- وقتها أرسل أجوطاي يسحب ابنه كيوك وابن اخيه بوري من روسيا فحضرا إليه في قراقورم، وعنّف كيوك تعنيفاً شديداً.

- لكنه ما لبث أن أرسله إلى روسيا مرة أخرى.

- هما لا يتوافقانِ مع بعضهما البعض، والآن زادت الجفوة بينهما من بعد ما أعدم كيوك كبار رجال الجيش بتهمة الخيانة العظمى.

- كان باتو ولايزال رجل حرب يُقدس القتال ويحرص على حياة جنوده وقواده، ما أظنه سيغفر لكيوك ما فعل.

- كيوك يعلم منه ذلك وما أظن أنه يريد به حُسناً عندما استدعاه.

- باتو ليس ليناً يا كتبغا، فقد استعد بجيش قوي على أطراف المدنية يتلمس الأخبار عن كيوك الآن ويفكر في الخطوة التالية.

- كتبغا: هي الحرب بين أبناء المغول والتتار ولسوف يحدث ما كنت أخشاه، اللهم إلا إن حدثت المعجزة ومات كيوك من قبل التحام الجيشين وإراقة الدماء ومخالفة التعاليم الواردة في الياسا.

- هولاكو: فلتكن مشئية التنيجري، إن غداً لناظره قريب.

على أطراف قراقورم استقرت الستة وعشرون خيمة الخاصة بزوجات باتو بجوار بعضهما البعض وقد وضع هو خيمته وسط خيامهم تماماً، استمر المبعوث الخاص بسرقوقتاني بيكي زوجة تولوي الأولى في التقدم خلال الخيام وهو ينظر إلى الأرض مُتحاشياً النظر داخل الخيمات الملكية حتى لا يهتك ستر نساء القائد التتاري العظيم، نبه أحد حراس القبيلة الذهبية المبعوث أنه على أعتاب خيمة باتو، فعدَّل المبعوث من ملابسه وأخذ نفساً عميقاً ثم دخل على باتو.

نظر باتو إلى المبعوث ببلادة وهو يحك ذقنه... فاكتفى المبعوث بالانحناء وتقديم الرسالة إلى يد زعيم القبيلة الذهبية، سحب باتو الخطاب من يد المبعوث بشدة وأمره بالانصراف، عندما غادر المبعوث الخيمة... فضَّ باتو الرسالة وأخذ يقرأ ما فيها بتمعن، فوجدها تحمل تحذيراً آخر من مكر كيوك، وقد أخبرته سرقوقتاني بيكي أيضاً في ذات الخطاب عن حملة الاغتيالات التي قام بها كيوك ضد قادة الجيوش.

ألقى باتو الخاطب في غضب وقام من مجلسه وصاح يُنادي على قائد جيشه، وقد اتخذ قرار الحرب. أخذ باتو يُجهز جيشه القوي القوي لمواجهة جيش كيوك وقرر التحرك إليه حتى يُلاقيه ويقضي عليه لقاء ما فعله بقادة الجيوش التتارية الأوفياء الذين أعدمهم.

شاءت الأقدار أن يموت كيوك خان من أثر السُم الذي كان يدُسه له هولاكو على مهلٍ في طعامه قبل أن تتواجه جيوشه مع جيوش باتو فتحدث

مذبحة عظيمة بين أبناء الأمة التتارية، وللحقيقة فلم يكن الأمر مُصادفة فقد قام هولاكو بإعطاء توجيهاته إلى رجاله في بلاط الخان أن يزيدوا من جرعة السموم المدسوسة له حتى يموت الخان في أسرع وقت، وفي غضون ذلك تولت أجول قاميش سدانة الحكم نيابة عن ولديها "ناقو" و"خوجا"، لكن أبناء تولوي طالبوا بانعقاد القوريلتاي حتى يحدد المجلس من يتولى أمر التتار من بعد كيوك.

دخل ناقو وخوجا ولدي كيوك إلى مجلس القوريلتاي واجمين مُنشغلي البال، وتقدما حتى جلسا متجاورين، فقام "بالا" وغيره من رجال الدولة بالقيام احتراماً للأميرين الصغيرين حتى قعدا فجلس الجميع. افتتح رئيس مجلس القوريلتاي الجلسة قائلاً:

- قد كان أبرز المُرشحين لخلافة كيوك على عرش المغول والتتار باتو بن جوتشي ومنكو بن تولوي، ومن الثابت لدينا بالأوراقِ تنازل باتو بن جوتشي عن العرش لمكنو بن تولوي.

نظر الأخوين ناقو وخوجا إلى بعضهما البعض مُستعجبين، ألا يحق لهم حتى أن يكونا من بين المرشحين لخلافة أبيهم على عرش المغول والتتار، أضنَّ القوريلتاي عليهم حتى بالترشح، أكمل الرئيس كلمته:

- وبذلك لا أرى لمنكو بن تولوي بديلاً لخلافة كيوك على عرش المغول والتتار، فما رأيكم أيها السادة.

- بالا: بصفتي كاتب أوجول قاميش زوجة المأسوف عليهِ كيوك، أؤكد على اعتراضها على تولي منكو بن تولوي أمور الحكم خلفاً لزوجها، فلكيوك أولاد ذكور يمكن لمجلس القوريلتاي اختيار أياً منهم ليكون على عرش المغول والتتار.

يرمق الأخوة قبلاي وهولاكو وأريق بوجا "بالا" شذراً وقد كرهوا ما يقول.

- الرئيس: أنت مخطئ يا بالا، لم يَرد في شرعتنا أن عرشنا يكون بالوراثة ما بين الأب وابنه، فما قامت به والدة كيوك خاقاننا المأسوف عليه كان استثناء، ولا يجب أن يتحول إلى قاعدة، ثم أن جنكيز خان لم يُحدد طرق معينة يتم عن طريقها تداول الملك بين أبناء الشعب التتاري، وكانت توجيهات جنكيز خان صريحة أن يُترك الأمر كله بيد مجلس القوريلتاي، وها نحن نختار الخاقان الجديد.

سكت بالا على غيظٍ، فأكمل الرئيس مراسم الاختيار:

- أنا أرشح وأوافق على تتويج منكو بن تولوي خاقانا للتتار، فما كان له كفؤ إلا باتو بن جوتشي، وقد تنازل باتو عن العرش لمنكو، لذلك أرى أنه

أحق الأمراء بالملك الآن، فمن يتفق معي فليقم برفع يده.

رفع أغلب رجال القوريلتاي أيديهم، وعندما أدرك الأخوين ناقو وخوجا فداحة الموقف قاموا برفع أيديهم على استحياء على كراهة من الأمر، وعندما ظهرت الأغلبية المؤيدة لمنكو قام الجميع بتهنأته وتم إعلانه خاقاناً جديداً للمغول، بعدها انفكت أسارير الرجال وعُزفت الأغاني وكانت الأجواء احتفالية، وعندما انخرط الجميع في التهنئة والاحتفال واللهو انسحب ناقو وخوجا أبناء كيوك... تبعهم بالا كاتب أجول قاميش على استحياء صحبة بعض الأمراء والسادة الآخرين الذين ما رضوا بمنكو خاناً للتتار.

عندما رجع بالا إلى أجول قاميش ليخبرها بنتائج ما انتهى إليه القوريلتاي كانت تتميز من الغيظ، لا تكاد تصدق ما تسمعه، فقد نجحت والدة زوجها من قبل في تنصيبه ملكاً، فلماذا تفشل هي الآن في تمهيد أمر الحكم لأبناؤها، شعرت أنها مُقّصرة في حقهم إن هي لم تحارب من أجل حقهم في الإمارة، وكادت تُقّرع أولادها خوجا وناقو أنهم وافقوا على تنصيب منكو بن تولوي خاقاناً من بعد أبيهم، لكنها عادت وعذرتهم أنهم كانوا في موقف صعب، قد تهتز عريكة أشجع الرجال إن تعرض له، فعادت لتحدث بالا:

- كيف يا بالا يُقرر القوريلتاي الأمر كله وفقاً لهواه، من المفترض أن تكون هناك ضوابط في اختيار الخاقان الجديد فضلاً عن إرادة أولئك العجزة المُخرفين.

- للأسف يا مولاتي قد حاجوني في ذلك أن جنكيز خان العظيم ما أرسى أي قواعد خاصة تبين آليات اختيار الخاقان الجديد سوى أن يوافق عليه القوريلتاي، وقد وافقوا على تنصيب منكو بن تولوي.

- لكن ماذا عن العرف، فكل من تناقلوا مُلك التتار والمغول بينهم هم ذرية بعضها من بعض، ألم يكن أجوطاي هو الأبن الصُلبي لجنكيز خان، وكيوك هو الأبن الصُلبي لأجوتاي، فلماذا يرفضون الآن تولية أحد أبناء كيوك ويريد التولونيون[64] أن يأول الأمر إليهم.

- تتحدثين بمنطق شديد التماسك، لكن أبناء تولوي يأبون الآن إلا أن يكون المُلك بين أبنائهم.

- هو تخطيط سرقوقتاني الخبيثة، هي من أوعظت إلى ابنها منكو أن يذهب ويتفاوض مع باتو حتى لا ينافسه في الأمر، وهي التي ترشده إلى جميع ما يتوجب فعله حتى تستقر له الأمور.

- والعجيب أن باتو قد وافق على التنازل عن الملك لمنكو، ولا أدري ما الذي دفعه إلى ذلك.

- قد يكون قد وعده ببعض الإقطاعات إن هو وافق على تتويجه، لكن هيهات... هو أمر دونه الدم.

- وماتنتوين فعله وقد استقر القوريلتاي على تنصيبه إمبراطوراً على المغول والتتار.

- المجلس لم ينعقد بكامل هيأته حتى يكون له الحق في اختيار الامبراطور القادم، ثم إنه لم ينعقد في قراقورم، لذلك فهو مجلس غير شرعي، فاجعل رجالنا في القوريلتاي ممن لم يرفعوا أيديهم ببيعة منكو أن يشككوا في شريعة المجلس الذي انعقد ويطالبوا بمجلس جديد.

ظهر الإعجاب على وجه بالا بما لمسه من ذكاء أجول قاميش وقال:

- يا لها من فكرة يا مولاتي، بالفعل المجلس كان غير مكتمل النصاب ولم ينعقد في مكانه الشرعي، فلينعقد مجلس آخر ليكون لنا فيه شأن.

ردت أجول قاميش ساهمة وهي تنظر في الأفق البعيد:

- نعم، فليكن لنا فيه شأن.

****

الخنجر المقدس

قلعة آلموت 649هـ

أخذ حُسين يتذكر أيامه الأولى في قلعة الموت، وكيف تم استقباله بواسطة المُقاتلين في الداخل، فلم يثق فيه الرجال إلا من بعد ما اختبروا ولاءه لشهور طويله أظهر خلالها طاعة عمياء للأكبر وللقلعة ورجالها.

تعجب حسين من مرور أربعة عشر عاماً منذ دخوله إلى القلعة، وتذكر البدايات... وكيف كان لا يتصور العيش داخلها حبيساً وهو الذي نشأ بين السهول والمرابي الواسعة؟! علها كانت الرغبة في الانتقام... يذكر الآن كيف انقض هذا الشيطان الصغير على آباه من الخلف وفي يده شوكته الملعونة التي اخترقت جسد أباه وثقبت لحمه وقلبه بغير رحمة.

ورغم أن التدريبات القتالية التي كان يتلقاها قاسية... خاصة في الأيام الأولى إلا انه استطاع تحملها، فكلما وهن... تذكر الشوكة وهي تخترق جسد أباه وتذكر وجه الشيطان السُني الصغير، وما كان يثير نقمته أكثر وأكثر أنه ما استطاع استيفاء حقه... فقط لأن قاتل أباه سُنياً وهو شيعياً من الروافض.

الحق أن حسين بعد مرور أقل من عام عُرِفَ أنه في مكان متميز وأن هناك خطة مُحكمة لتمكين العقيدة الشيعية في جميع الأراضي العربية والإسلامية، فقد انشأ حسن الصباح صرحاً مُتميزاً عندما تخير هذه القلعة لتكون معقلاً له ولخلفائه من بعده، وهو الذي وضع تلك المناهج الصارمة التي يخضع لها جميع المقاتلين في القلعة، فهنا لا يتم التدريب فقط على اللياقة البدنية والقتال ورمي النشاب، بل يقوم المُتدربين بتعلم اللغة وأعراف الشعوب وثقافاتها ويتعلمون كذا كيف يتقنون فن التنكر، وعندما كان حسين يسأل عن الهدف من تَعلُم جميع تلك المهارات، كان حرب يجيبهُ أن كل شئ سيُعرفُ في حينه.

ولم يطل الوقت بحسين حتى علمَ الهدفَ الذي من أجله كان يتعلم مُقاتلي الحساسنة الآداب والألسنة وثقافات الشعوب، فالهدف كان إعداد مقاتل قابل للانخراط في أية بيئة كانت ولمدد طويلة من الزمن حتى يتسنى له الانقضاض على فريسته وتنفيذ أمر الاغتيال فيها عندما تحين اللحظة المناسبة.

ورغم أن حسين كانت وظيفته الأساسية في القلعة هي نقل الماء من أماكن اختزانه ليصل إلى الطهاة وإلى المقاتلين في أماكن تدريبهم ومناطق إعاشتهم، فلم يُهمَل أمر تدريبه، فقد تدرب على القتال حتى قوى ساعده وأصبح من أقدر المُتدربين على استخدام الحراب في القتال، وكان يُشتهر عن حسين في قتاله خفة حركته وسرعته التي لا تضاهى أثناء المُنازلات، فقد لا يكون حسين الأقوى لكنه دائماً ما كان الأسرع.

وقد تعلم حسين خلال العقد الماضي إتقان اللغة العربية بحيث لا يبدو أثر لغته الأردية في حديثه العربي، بل وقد تعلم بعض من اللغة التركية، وأجاد بعض فنون التنكر وقرأ وتابع ودرس الصراعات السياسية في المنطقة.

وفي خضم ذلك كله، كان حسين يسائل نفسه عن دوى اعتكافه هنا في قلعة آلموت طالما أنه لن يستطيع الانتقام من سُفيان وأبيه، كان قد فقد الأمل في ذلك منذ شهوره الأولى في القلعة، فالأكبر ورجال القلعة لا يسمحون للمقاتلين أن يقوموا بالخروج من القلعة إلا بالأوامر الصريحة وتحت رقابة دقيقة، وإنه حتى وإن خرج ... فمن غير المسموح به نهائياً أن يقوم بغير تلك الأعمال التي تم تكليفه بها، لكن جدوى اعتكافه في القلعة شرعت تتبدى له شئ فشئ كلما مكث فيها، فالهدف اسمى من انتقام فردي ارضاءاً لشهوة شخصية، فرجال القلعة لا ينظرون إلى أهل السنة بمقياس ضيق، لكنهم ينظرون إليهم بمقياس واسع ونظرة أشمل ورؤية أعم، فالهدف عندهم هو اجتثاث العقيدة السنية من الجذور ونشر العقيدة الشيعية ونصرتها حتى يُكتب لها أن تظهر وتسود.

وعندما أدرك حسين تلك الحقيقة رضى أن يكون ترساً في ماكينة الإسماعيلية الدقيقة، وكان يقنع نفسه أن كل قربة ماء يقوم بنقلها هي سهم خارق يطلقه على الكيان السُني الظالم الذي ترك أباه يُقتل بغير أن يُمّكن هو من الاقتصاص من قتلته، وزادت حماسة حسين عندما التقى بحرب وبدأ في تعليمه القتال، واستهوته العلوم النظرية الأخرى التي شعر بها تثقله وتجعله على دراية بجميع ما يدور من حوله من صراعات حتى وإن كانت تلك الصراعات دائرة في أصقاع بعيدة.

دخل حسين على مُعلمه حرب واحنى جزعه قليلاً علامة على الاحترام وقال:

- السلام عليك يا سيدي...

كان حسين مستبشراً بمقابلة مُعلمه حرب لكن آرقته نظرة حرب القلقة إليه، وظن أن في عين معلمه لمحة من الحزن والإشفاق عليه.

- وعليكم السلام، كيف حالك اليوم يا حسين، قالها حرب قاطباً.

- بخير ونعمة سيدي، أجاب حسين باقتضاب وقد أحس بجو من التوتر يخيم على المقابلة على غير العادة.

قال حرب في تردد:

- هي مهمة قرر الأكبر إسنادها إليك.

سكت حرب بعدما قال ليرصد أي تغير في ملامح حسين من جراء ما سمع، لكن حسين ظل صامتاً، فقد بدأ قلبه يرجف في عنف وشعر به يغوص حتى أخمص قدميه، فالرتابة والهدوء التي طالما عاش خلالهما كل تلك الأعوام يتبددا الآن ليُقبل على مغامرة غير مأمونة الجانب.

قال حرب وقد لمح تغير ملامح حسين:

- أراغبٌ أنت عن مهام الأكبر، أم تراك متحمساً لما أنت مُقبل عليه من أمر؟

كان حسين غير متأكد من حقيقة شعوره، فقد تمنى من سنوات مضت أن يختارهُ الأكبر ليكون بطل إحدى مهامهُ المُقدسه، فيتم نقش اسمه بجانب من سبقوه من أبطال ليتذكره رجال القلعة جيل من وراء جيل حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، لكنه الآن وبعد كل تلك السنوات التي قضاها في دعة ورتابة سار غير متأكداً مما يريده فعلاً، أبعد أن استطاب الحياة داخل القلعة وألف رجالها يُلفظ به خارجها، ولربما كانت تلك هي نهاية كل شئ، لربما كان ما ينتظره الآن هو الموت، فكان لا ينجو من المهام التي يكلف بها الأكبر مقاتليه إلا النذر اليسير، فهل سيكون من أولئك الذين كتب لهم النجاه، أم سيموت وستكتب له الشهادة، حاول حسين أن يخرج نفسه من مستنقع تأملاته لكيلا يظهر أمام حرب بمظهر الخائف، فنفض عن نفسه أفكاره وقال متنحنحاً:

- بل أنا رهن إشارتك وإشارة الأكبر.

- على بركة الله، هي عملية غاية الحساسية، قد أوكل الأكبر إليها إثنان من أمهر رجالنا أنت أولهما.

اتسعت عينا حسين من الدهشة، فقد كانت العمليات شديدة الأهمية فقط هي تلك التي يتم رصد أكثر من مقاتل لها، وإن كان الأمر كذلك، لِمَّ لم يقابله الأكبر بنفسه؟، قال حسين وهو يغالب أفكاره:

- ومن يكن المقاتل الآخر؟

- هو قاسم...

ازدادت دهشة حسين، لكن عيناه لم تعد قادرة على الاتساع على نحو أكثر، فقد تم قبول قاسم في القلعة وقِد تعدى عمره الثلاثون عاماً، مع أنِ

العرف الجاري في القلعة كان يقتضي بأن يتم استجلاب مُقاتلي القلعة صغاراً بحيث يتم تربيتهم داخلها وتطبيعهم بطباعها، لكن الأكبر قبل قاسم على سبيل الاستثناء، الأمر الذي فسره الكثيرون على سبيل العطف وسعة القلب، لكن الحقيقة أن الأكبر كان يريد قاسم في القلعة لأنه شعر أنه معلم فذ، فقد كان على دراية بالكثير من العلوم وعادات الشعوب والصراعات السياسية الكائنة على الساحة، ولسوف تفيد دروسه المقاتلين بكل تأكيد، وأوكل إليه الأكبر وقتها مهمة إضافية متمثلة في قيامه على أمر مكتبة القلعة وترميم ما بها من كتب ومخطوطات، لكن قاسم لم يُظهر يوماً أي مهارة قتالية، فكان الجميع يعلم أنه غير قادر على القتال وحمل السلاح، لذا تعجب حسين أن يثق حرب والأكبر في قاسم إلى حد أن يشركوه معه في مهمة على هذا النحو من الخطورة.

- حرب: المهمة مكانها بغداد، وزمن التنفيذ غير محدد على نحو دقيق، فلتنفذا تلك المهمة متى رأيتما أن نتائجها سوف تكون مضمونة.

- ومن في بغداد يطلب الأكبر التخلص منه.

- هو في الحقيقة شيخ يدعى بُرهان وهو سُني يحاول إقناع الطائفة الشيعية في بغداد بالخضوع إلى أهل السنة والرضاء بحكمهمم وتجبرهم، وقد زاد خطر هذا الشيخ السني فأقنع الكثير ممن تم الاعتداء عليهم من الشيعة بالتنازل عن حقوقهم والخضوع لجلاديهم وكأنه ساحر يتحكم في النفوس ويقلب القلوب حيث شاء.

****

تذكر حسين أباه وكيف كان خانعا مُنكسراً للظلم السني بغير أن يجسر يوماً على مقاومته، لكن مهلاً... فدماء أباه كانت أبيّه، وكان يفكر طوال الوقت في مقاومة الظلم والتصدي لهمّام، لكن أمه هي من باتت تقنعه بالعدول عن تلك الأفكار وإيثار السلامة والقبول بتلك المكانة الدانية في الدنيا، ربما كانت أمه هي إحدى ضحايا أولئك الزبانية أمثال بُرهان الذين يحاولون إيهام الناس بأوجه الرضاء المُستعارة حتى يسهل التحكم فيهم من قبل جلاديهم، أحس حسين بقلبه ينبض بشدة والدم يندفع في عروقه، وشعر وكأن حرب يستمع الآن إلى دقات قلبه واضحة جلية، حقاً إنهم مقاتلي القلعة الأبرار يوكل إليهم دائماً بمهام مصيرية مقدسة.

- حرب: يبدو أن المُستعصم يستخدم أولئك حتى يسيطر على جحافل من يظلمهم.

- حسين: وهل علِم قاسم أننا سوف نكون معاً لإنجاز تلك المهمة؟

- حرب: نعم ...

سكت حرب هنيهة ثم أكمل:

- قد التقى بالأكبر في وقتٍ مضى ليتجهز إلى ما هو مقبل عليه.

ازداد تعجب حسين وشعر ببعض الحقد على قاسم الوافد الجديد الذي فضله الأكبر عليه وقرر مُقابلته شخصياً وإعلامه بتفاصيل المهمة، لكنه لم يجرؤ على الاعتراض أمام حرب.

- سمعاً وطاعة أيها المعلم، ولسوف يتم الأمر بمشيئة الله على ما تشاء وترضى.

قالها حسين بنغمة غلفها الإحباط، وقد أدرك حرب سبب إحباط حسين لكنه أكمل:

- قد نظمت بينكما موعداً بعد مغرب شمس اليوم وذلك لتتعارفا أكثر وتتحدثا في تفاصيل المهمة.

عندما وصل الحديث بينهما إلى ذلك الحد أخرج حرب خنجر مميز الشكل وسلمه إلى حسين على نحو درامي يوحي بأهمية الخنجر، فهم حسين المعنى وتلقى الخنجر من حرب بحرصٍ بالغ وتمنطق به من بعد ما لثَّمه بشفتيه.

****

حضر قاسم إلى مكان المقابلة قبل حسين، وطفق ينتظره وهو يتفكر في ما هو مقبل عليه من أمر، فتلك الأشهر هي الأخيرة في حياته، فالجميع يعلم أن تنفيذ التكليف بالمهمام من قبل الأكبر هو حكم ضمني بالإعدام، فهل تراه مُستعداً للموت الآن.

جالت أمه ريحانة في باله وأخذ يفكر فيها، هي لن تفتقده، ولن تشعر به إن مات أو قتل، فهي الآن منشغلة مع زوجها تمَّام الذي استطاع أن يستأثر بها ويبعدها عنه، أما عليّ صديقه الذي مكث معه سنوات من بعد ما خرج طريداً من بيت تمَّام فلسوف يحزن إن علم بموته، لكن آنى له أن يعلم بموته، فقد انقطعت أخباره عن صديقه منذ زمن بعيد، منذ أن مات والد عليّ وتزوج هو في منزل أباه، وقتها شعر قاسم أن ليس له مكان في حياة عليّ بعد الآن، على كل لن يبكيه أحد، ولن يشعر بموته أحد.

ومع ذلك شعر قاسم بالخوف يغزو جميع أنحاء جسده، وأخذ ينظر إلى الرمال والسماء ويتأمل الحجارة والكثبان وقد انعكس ضوء القمر عليها، أحس وقتها أن الحياة رائعة وجميلة، فهل يجدر به أن ينهيها على هذا النحو.

نفض قاسم عن نفسه تلك الأفكار المخزية، وعزا ما يشعر به من جمال الطبيعة من حوله ورغبته الداخلية في الحياة إلى الشيطان... يريد أن يثنيه عمّا هو مقبل إليه من عمل مقدس، فقد أخلص النية لله وباع نفسه لتكون له الجنة، فلماذا يتردد الآن وهو قاب قوسين أو أدنى.

قام قاسم من جلسته وسار يتجول في المكان يحاول التخلص من تلك الأفكار وينفض عن نفسه ذاك الحزن الشديد الذي تمكن من نفسه وتمنى أن يظهر حسين الآن، عسى أن يشد الفتى من أذره ويعينه على ما هم مُقبلين عليه من أمر جلل، لكن يبدو أن حسين كان يتعمد التأخر حتى يدلل لقاسم على أهميته، خاصة وقد شعر بالغيرة الشديدة أن اختار الأكبر التقابل مع قاسم وإهماله، لكنه حضر في النهاية ولاح لقاسم من بعيد.

صافح الرجلان بعضهما البعض، وكان يعلو وجهيهما قلق واضح، لكن قاسم كان أكثر قلقاً وحزناً، وكان قلق حسين يشوبه الكثير من التوتر والنقمة.

- قاسم: تأخرت عن ميعادنا المحدد... لكن لا بأس.

حسين في استهتار مصطنع وتعالي:

- كنت أفكر في الخطوط الرئيسية التي نسير عليها حتى نصل إلى هدفنا من أقصر الطرق.

أدرك قاسم دفعة واحدة ما يجول بنفس حسين، وأنه ناقم عليه أن الأكبر قرر مقابلته هو وأهمل التقابل مع حسين:

- هو أمر نحن فيه شركاء، كان أجدر بك أن تأتي في ميعادك فنتناقش مع بعضنا البعض فيما تريد.

أحس حسين أن قاسم يحاول التسلط عليه فأجاب محتداً:

- وهل كنت تريدني أن أتي إليك بغير أفكار، فأتلقى ما تقول مثل التابع الأبله.

قرر قاسم عدم استفزاز حسين، فالأمر لن يجديه شيئاً، وعدم التفاهم بينهما سوف يؤثر على المهمة الموكلين بها:

يا رفيق، ما قصدت ذلك البتة، فأنت البطل الحقيقي في تلك المهمة، إجلس ودعني أفهمك. قالها قاسم وهو يأخذ بيد حسين ويجلسه على الأرض بجانبه.

- أنت من سُينفذ المهمة، أنا فقط هنا لأساعدك حتى تستطيع الانخراط في بغداد تحت غطاء جديد حتى نستطيع متابعة الهدف عن كثب فتنقض أنت عليه وتنفذ المهمة.

هدأ حسين من بعد ما سمع تلك الكلمات، وقال:

- متى علمت بشأن المهمة تحديداً.

- قبلك بأيامٍ معدوداتٍ، وذلك لحكمة ارتأها الأكبر، فعلي أن أجهز العدة وأختار الغطاء المناسب لنا حتى نختلط بأهل بغداد بغير أن نُثير الشكوك، فعلي أن أحدد المهن التي سوف ندعي أننا نمتهنها حتى نمكث في بغداد وعليَّ أن أعد جميع الحجج التي ستؤيد ما سوف ندعيه، وعليَّ أن اقرأ أكثر وأحكم القراءة عن بغداد وأهلها وعادات وتقاليد الأرض التي سوف ندعي أننا منها قادمون.

حسين وقد بدأ يهتم:

- وهل اخترت لنا الغطاء المناسب بعد؟

- خلال العقود الكثير الماضية استخدم رجال القلعة غطاء متكرر، فقد كانوا عادة ما يتنكرون في زي طلاب العلم والمتصوفة والتجار، أريد أن أخرج عن هذه العباءة حتى لا نثير الشكوك حولنا.

- وماذا تقترح؟

- أفكر هذه المرة أن نتخذ غطاءاً مختلفاً، فعادة ما كان يستصيغ رجال القلعة غطاء التجار وطلبة العلم، فذلك لن يتطلب منهم إبداء مهارات يدوية خاصة إن ادعوا أنهم أبناء أحد المهن، وكذلك فإن الادعاء أنهم تجار أو طلبة علم يفسر تنقلهم بين الأصقاع بغير أن يثير ذلك ريبة أحد.

قال حسين معترضاً على قاسم:

- وهو الأمر الذي أراه منطقي ومقبول بالمناسبة.

أحس قاسم بنبرة التذمر في صوت حسين لكنه تجاهلها وأكمل:

- كان ذلك أمر منطقي ومقبول أما الآن وقد تواتر رجال القلعة على استخدامه فقد سارت تلك الأغطية مدعاة للقلق والارتياب من قبل العامة.

قاسم في حيرة:

- لكنك تقول أن المهن الأخرى تتطلب دراية بفنون ومهارت يدوية خاصة قد لا نمتلكها.

- اخترت مهنة سهلة لي فيها بعض الدراية، تعرفت عليها من خلال القراءة والمطالعة، ثم أني لا أعدم الجانب العملي فيها، فهي تعتبر بمثابة هواية لي، لذا تعرفت على كثير ممن يمتهنونها وخبرت كثير من أسرارها.

- وما هي تلك المهنة؟

- صانعي عطور، وسوف ندعي أننا كنا في بخارى لكنا تركناها بسبب الكساد المُستمر بعد الغزو التتاري لها.

- ترتيب مُحكم ويفسر أيضاً سبب انتقالنا إلى بغداد للاستقرار فيها.

- لكن علينا في الأيام القليلة القادمة أن نعلم أكثر عن بخارى وعادات أهلها وأهم العائلات فيها وصناعة العطور بها، وذلك حتى يصبح غطاءنا مُحكم فلا يستطيع أحد اكتشاف حقيقتنا.

- وكم سيستغرقك الأمر حتى نصبح على استعداد للرحيل إلى بغداد وبدء المهمة؟

- أسبوع واحد أو ما يزيد قليلاً على أكثر تقدير.

****

ثورة التولونيين

قراقورم 649هـ

علم أبناء تولوي بكيد أوجول قاميش وتشكيكها في مجلس القوريلتاي المُنعقد، والذي تم انتخاب منكو خلاله، وقرروا خوض التحدي والجلوس في القوريلتاي الثاني، وفي هذه المرة قام أبناء تولوي باتفاقات وترتيبات مهمة مع شيوخ المجلس تحت رعاية الأمير العظيم باتو ابن جوتشي، وبالفعل نجح منكو للمرة الثانية أن يفوز بإجماع القورليتاي لانتخابه خاناً أعظم للتتار، وذلك رغم تلك الاعتراضات التي حاول أبناء كيوك أن يُبدونها، وحتى أبناء شاجاتاي الأبن الأكبر لجنكيز خان لم يجرأوا على الاعتراض.

لكن أوجول قاميش لم تتقبل الهزيمة، فقامت بعقد تحالفات مع أبناء شاجاتي، فأتى بعض الأمراء من ولايات بعيدة لمبايعة الخان الجديد في الظاهر، لكنهم في الحقيقة أعدوا صحبتهم جيش كبير في محاولة للانقلاب على منكو خان، لكن أبناء تولوي استطاعوا السيطرة على الجيش وتم القبض على أمراء الانقلاب وقادته تمهيداً لمحاكمتهم....

- أنت أكثر الخانات شبهاً بجدك العظيم جنكيز خان في تمسكه بتعليمات الياسا، ولا يخفى عليك أيها الخان العظيم أن الياسا قد حضّت على التسامح، فلتعفوا عمَّن اساءوا إليك.

قالها أحد الشمانات وهو يتشفع في أمراء الانقلاب.

- لكن الياسا قد رصدت عقوبة الموت لأولئك الذين يخونون خاقانهم، فما جزاء الخونة إلا الموت؟.

قالها منكو بصوتٍ يهتز من شدة الغضب، فسكت الشامان وقد أرخى رقبته إلى الأرض ولم يضف المزيد، أمر هولاكو جميع مستشاري الخان بالانصراف، فانصرف الجميع في سرعة من أمامهما لتخلو عليهما الخيمة، فقال هولاكو لأخيه بهدوء..

- هل لك أن تسمع رأيي؟

- هات ما عندك يا هولاكو، ما ترى في أمر أولئك الخونة؟

- أرى أن تعفو عن الأمراء وتعاقب قادة الجيش.

- وما الحكمة من ذلك؟ وما يضمن ألا ينقلب أولئك عليَّ مرة أخرى؟

- سوف يقول عنك العامة أنك تحترم الياسا، فقد عفوت عمَّن اساءوا إليك، وعاقبت من خانوك، وأولئك الأمراء هم أولاد عمومتنا فلا نقتلهم حتى نُعيَّر بدمائهم، وهم لن يستطيعوا الانقلاب عليك مرة أخرى بعدما قلمت أظافرهم بقتل قادة جيوشهم ومناصريهم.

جلس منكو خان على عرشه متفكراً، ثم قال:

- أرسل إلى أخينا قبلاي خان في الصين وسله عن رأيه في أولئك الخونة.

- وهل تريد رأي أخينا أريق بوجا في فارس؟

- فلترسل إليه ... لكني أهتم إلى رأي قبلاي أكثر ما يكون، فهو حكيم حقيقي وأنا أثق برأيه.

أيد قبلاي اقتراح هولاكو بالإبقاء على الأمراء وقتل قادة الجيوش، فتم ما أراد التولونيون وقُلمت أظافر أمراء الانقلاب في مشهدٍ مهيب أمام كبار رجال الدولة، فتم ذبح قادة جيوش الانقلاب ومُناصريهم أمام أعين الأمراء وهُم صاغرون.

أخذ منكو خان يَرقَبُ الرؤوس المتطايرة وهولاكو واقفاً إلى جواره يرقب ما يحدث في صمت وتجهم، فمال منكو على أذن أخيه:

- أجول قاميش هذه الشيطانة... يقع عليها وزر جميع تلك الأرواح التي أزهقت اليوم.

- لا تقلق سوف يأتي دورها بعد حين.

وما ترى في أمرها بعد انقضاء المحاكمة وتوقيع العقوبة بغير ادانتها؟ ضحك هولاكو من جانب فمه وقال هامساً:

- لن نعدم طريقة يا أخي العزيز، فهي تُمارس السحر الأسود ضد الخان الأعظم لصالح أبناؤها، وذلك كله حدث بعد عفو خاننا الرحيم عن أبناؤها فقابلت هي الإساءة بالإحسان.

انفرجت أسارير منكو خان، فقد كان الانتقام من أجول قاميش يؤرقه، فهي السبب في جميع التوترات الداخلية التي يعاني منها حتى الآن، وهي تستحق مصيرها الذي ينتظرها لقاء ارتكابها جريمتها المُلفقة، وهو بذلك يضرب عصفورين، فسوف يتخلص من تلك الحية اللئيمة وسوف يؤدب أولادها ويكسرهم كسر نهائي لا يُنتظر منه جبراً، فلا تقوم لهم قائمة، نظر منكو خان إلى الأمراء الذين يجلسون في منصة جانبية وهم خائفون صاغرون مُترقبون، فأدار ناظريه عنهم، وترك جلاديه يُكملون مهمتهم ويحصدوا رؤوس الرجال.

تمت الأمور في سرعة ودقة وسار كل شئ كما خطط له هولاكو ومنكو خان، وانتهت المحاكمة التي خضعت لها أجول قاميش إلى إدانتها بممارسة السحر الأسود، ولم يستطع أبناؤها ولا أنصار زوجها السابق كيوك أن يغنوا عنها شيئاً، فلم يمر شهر على المذبحة التي أقامها منكو لقادة جيش الانقلاب وأنصار كيوك وشاجاتاي ومازال الباقية منهم في حالة رعب.

لم تُبد أجول قاميش أي إمارة تدل على خوفها من الموت، وتركت الجندي يقيد قدمها ويديها من الخلف بغير أن تحاول المقاومة، وكان الوقت فجراً فنظرت لانعكاس أشعة الشمس الأولى على صفحة البحر الهادئة أمواجه، كانت تَشُم رائحته قوية نفاذة في أنفها وتخيلت وماءه يغزو منخارها ويتسرب إلى صدرها، وما مصير أولادها من بعد موتها، ترى هل سيغدر بهم منكو من بعد ما تخلص منها ومن جميع من ساندوهم؟، اضطربت أجول قاميش عندما وصل بها خاطرها إلى أبناؤها ومصيرهم المجهول.

كان هولاكو هو مندوب الخاقان في تنفيذ حكم الإعدام على أوجول قاميش، فلم يشأ منكو خان أن يحضر التنفيذ بنفسه حتى لا يعطي أهمية زائدة للأمر أمام خاصته، رمق هولاكو أوجول قاميش ببرود والحراس يُخلدونها في الأرض ثم يمررون قدميها في جوال من القماش المنسوج ويسحبونه حتى رأسها، عندها اندفع اثنان آخران من الحراس... أحدهما عند الرأس ليحيك الجوال على أوجول قاميش فيُحكمه عليها، في حين ما انهمك الآخر في ربط أثقال في قدمها المُختفية داخل الجوال، وعندما انتهى الحراس من عملهم، نظر كبيرهم إلى هولاكو يستأذنه في تنفيذ الخطوة الأخيرة، اومأ هولاكو بيده إلى الحراس بتؤده آذناً إياهم برمي زوجة كيوك في الماء.

أخذ قلب أوجول قاميش ينبض بشدة وجسدها يتدحرج داخل الجوال، وشعرت به يكاد يتوقف داخل صدرها عندما لامست الماء البارد، عبت أوجول قاميش نَفَّسها الأخير بقوة، وحاولت فتح عينيها فما رأت غير أنسجة الجوال بلونها البني الفاتح تهتز أمامها، وشعرت بنفسها تهوى لأسفل بسرعة جنونية وشعرت بضغطٍ شديد على أذنها، عندها بدأت في إتيان حركات عشوائية تحاول التخلص من الجوال المحاك عليها، لكنها فشلت ... في حين ما أخذ جسدها يهوى لأسفل بسرعة أكبر والضغط يتزايد على أذنها بثباتٍ حديدي، اضطرت في النهاية أن تفتح فمها علها تستطيع التنفس كالأسماك لكنها فوجئت بماء البحر البارد يغزو منخارها وصدرها، وشعرت بيديها وقدميها يتشنجان بشدة وهي ممسكة بالجوال كمحاولة أخيرة للتخلص من قيودها، لكن حركتها همدت تماماً، وظل الحجر يهوى بها لأسفل بغير هواده.

قام هولاكو من مقعده وهو لازال مُمسكاً بكأس الخمر لينظر إلى رحلة الجوال ذا الأثقال إلى الأسفل حتى اختفى تماماً عن ناظريه، فاستدار قائلاً:

- فلتبقوا الساعة حتى تتأكدوا من نفاذ حكم خاننا الأعظم.

وترك الحراس ينظرون إلى البحر أمامهم بترقب في حين ما انصرف هو مُترنحاً صحبة حرسه الخاص.

****

حانوت العطور

بغداد 650هـ

اتكأ الخليفة المستعصم على فراشه مُفكراً فيما طاله من هموم الحكم، وأخذ يندب تلك الأيام الخوالي التي كان فيها حراً طليق الفكر، يفعل ما يحلو له ويتمتع بحماية أبيه المُستنصر، فكان أباه هو من يتولى التصدي لجميع الأمور الثقيلة والسخيفة التي طالما آثر البُعد عنها وعدم الاستماع إليها، فكان هو من يصدر الأوامر ويسيّر الجيوش ويُقرِّب ويُبعد الحاشية ويَقطّع الرؤوس ويُنَّعِمُ على من شاء وينقمُ على من شاء. والآن قد آلت جميع تلك السلطات إليه وهو لم يطمح إليها يوماً، لذلك عينَّ العلقمي كرئيس للوزراء لِما لمسه فيه من قدرة على أن يقوم بما قام به أبيه من أعمال وأن يُصدر ما كان يَصدر عنه من قرارات على أن يستمتع هو بما كان يستمتع به من قبل توليه الخلافة.

لكن هيهات... تسير الرياح دائماً على غير ما تشتهي السفن، فقد أخذ وزيره العلقمي في التشاجر مع قائد جيوشه الدويدار الصغير، وأخذوا يرفعون إليه شجارهم وكأنه شيخ في الكُتَّاب يفصلُ بين تلاميذه، وذلك رغم أنه كان يغدق عليهما من العطايا حتى لا يشغلونه بمشاكلهم وصراعاتهم ويتركونه يستمتع بالأشياء الصغيرة التي تُسعده، لكنه الطمع والرغبة في المزيد، والأمر الذي زاد الطين بلة أن العلقمي شيعي والدويدار سني، فدخلت الخلفيات الطائفية لكلاً منهما في الصراع فأججته وزادته سعيراً.

ورغم أن المُستعصم سُني بطبيعة الحال، لكنه كان لا يحمل أي ضغينة جهة الشيعة، فقد استعمل العلقمي الشيعي ليتولى الوزارة، فلماذا يريدون استمالته لطرف على حساب الآخر!!

ولم ينحسر الصراع بين الدويدار الصغير والعلقمي عليهما، فقد طفق كلاً منهما يكون الجبهات لمواجهة الآخر، واتخذوا الكرخ محلاً لصرعاتهم، ففي كل عام وفي ميعاد احتفال الشيعة بأعيادهم يحتك بهم أهل السنة، فهم يعتبرون أن في المُجاهرة بتلك الاحتفالات مَساس بعقيدتهم، وهم بالطبع يستقوون بالوزير العلقمي، أما أهل السنة فهم يَستقوون بالدويدار الصغير... قائد الجيوش السُني، لكن في السنواتِ الأخيرة خُربت الكثير من بيوت الشيعة، وألمَّت بهم المصائب حتى بات في كل منزل شيعي بالكرخ نائبة من النوائب من جراء التصادم مع السنة، فماذا يفعل هو، ولماذا يلومه العلقمي على ما حدث لشيعته؟! رغم أنه لم يعطي أوامر باعتراض احتفالات الشيعة وإنما كان

ذلك بناء على تحرك العوام بغير ترتيب منه، فلم يكن المستعصم يعلم أن ابنه أحمد أبو العباس طرف أساسي وفعال في فتنة الكرخ المتكررة.

وبينما الخليفة سارحاً في همومه دخل أحمد أبو العباس ابنه الأكبر عليه وهو في غرفته فوجده واجماً يفكر فسأله:

- ما بالك يا أبي أراك مشغول البال، وما أضجعك في فراشك ونحن بعد في ساعة الظهيرة، أهناك مكروه مسَّكَ؟

- الكل من حولي يتصارع وأنا عاجز عن تهدئة الأمور.

- أتقصد ما بين الدويدار الصغير والعلقمي؟

- مرت سنوات وليس لدي مشاكل حقيقية غير فض النزاع بين الرجلين، وكأنهما ديكين جُمِعَ بينهما في حلبة واحدة، ويأبى أحدهما أن يترك الآخر إلا وهو جثة هامدة.

كان أحمد ابن المستعصم متحيزاً للدويدار الصغير على حساب العلقمي، ويرى أن الخليفة أقام العلقمي على دقائق كثيرة في الحكم حتى عظم أمره في قصر التاج وبين العوام، فما كان لأمر الشيعة أن يستشري على ذلك الحال إلا باستقوائهم بهذا الوزير الذي هو من شيعتهم، وكان يرى أن على أباه أن يتخذ الكثير من الإجراءات الرادعة للحد من سلطات العلقمي.

- الحقيقة أن في أمر مُجاهرة الشيعة بعقيدتهم في الشوارع على الحال الذي تعلمه وقاحة لا يتحملها غيور على الإسلام.

المستعصم معترضاً:

- لكن الشيعة مسلمون ومن حقهم الاحتفال كما يحتفلُ أهل السنة.

أبا العباس في ضيق:

- لكنهم يفتنون السنة ويؤذون مشاعرهم بمظاهر احتفالاتهم البربرية الفجة، لا أعلم لمَّ تخاف من أن تواجه العلقمي وتأمره أن يسيطر على أولئك الشيعة فلا يبدون تلك المظاهر الهمجية أمام الناس؟!

شعر المستعصم بغضبٍ حقيقي مما يقوله ابنه، وقد شعر أنه لا يحترمه وأنه يستشعر ضعفه بين حاشيته ورعيته، فغضب من أعماقه، واعتدل في فراشه وصاح:

- قد تعديت حدودك في الحديث معي يا أحمد، أغرب عن وجهي الآن، كيف يهيئ لك عقلك أن الخليفة قد يخاف من كائنٍ ما كان، إنما أدير

الأمور بتعقلٍ وحكمة لا تفهمها. والآن أغرب عن وجهي فقد قطعت عليَّ خلوتي وزدت من همي.

أشاح المستعصم بوجهه لا يريد النظر إلى ابنه في حين ما انسحب أبا العباس من جناح أبيه يائساً أن يغير من ميله إلى العلقمي في شئ، فما شاء أن يجترأ على مقام أبيه، لكن كل ما أراده أن يستفز غضبه حتى يثأر لاجتراء العلقمي على مقامه، لكن يبدو أن الشيطان الشيعي قد تمكن من أبيه إلى الثمالة، وهو لن يستطيع تغيير شئ ما حيا.

كان ابن الخليفة غاضباً وهو يمشي في أروقة قصر التاج حائراً فيما سيفعله بعد، فكر أن يلتقي بحليفه الدويدار الصغير، عله أن يجد في الحديث معه بعض السلوى، أو لعلهما يخططان معاً ما سيفعلانه في التالي، فالدويدار الصغير يكره العلقمي مثله تماماً وهو من خطط معه لأحداث الكرخ لإثبات النفوذ السني ونكاية في العلقمي وشيعته، فلابد من وقيعة يُمكن عن طريقها إبعاد هذا الكائن الدهني اللزج عن أبيه، وصلَ أبو العباس إلى حديقة القصر وبعد أن تقدم بضع خطوات فيها تغير مزاجه من بعد أن تنفس من عبير أزهارها، فتاقت نفسه إلى الشُربِ ومُجالسة النساء....

فاليوم خمر وغداً أمر.

أخذ أبو العباس يُمعن في الشراب حتى ذهب عقله وما عاد قادراً على تبيان معالم ما حوله، فشعر الشاب المخمور برغبة في تحقيق مُتعة إضافية ففكر في العودة إلى جناحه ليلاعب إحدى جواريه، لكنه ما عاد يشعر بالمتعة في معاشرة جواريه حتى من بعد ما ابتدعه من صنوف اللهو معهن، فما صارت معاشرة عدة جواري في وقتٍ واحدٍ ترضيه، ففي كل مرة يسعى فيها للمتعة يتذكر تلك الفتاة التي رآها في إحدى شوارع بغداد وكيف اعطى الأوامر لتابعيه لمعرفة خط سيرها وأن يأتوه بها متى سنحت لهم الفرصة بغير أن يثيروا المتاعب.

لازال يذكر كيف أتوا بها مزعنة وقد غطوا رأسها بقماشة سوداء وما رفعوها عنها إلا في حضرته، لازال يذكر نظراتها المنبهرة بكل ما في القصر، رائحتها كانت لاتزال عالقة في أنفه، تلك الرائحة العَرَّقية المثيرة المُختلطة بما تم خبزه في منزلها، فلم تكن تنبعث منها رائحة العطور الخانقة المنبعثة من جواريه، وهو الأمر الذي أثار رغبته فيها أكثر وأكثر، كانت رائحة عرقها الخفيفُ المختلطة برائحة الخبيز تثير جنونه، وعندما نزع عنها ما يستر عورتها وجدها غير حليقة عكس جواريه... كان كل شئ فيها مختلف، لم تمانع الفتاة أن تمارس الجنس معه، وهو لم يسأل نفسه إن كانت راضية حقاً أم لا، فقد كان

أناني ومغرور إلى أقصى الحدود، فيكفيه أن يتمتع هو بغض النظر عن رغبة الآخرين.

كان أبو العباس يتوق إلى مغامرة من تلك المغامرات الآن، خاصة بعد ما شعر به من فشل مع أباه، فأباه غير راضٍ عنه... يتجاهل آراءه ويُبّدي عليها آراء العلقمي، بل وفي كثير من الأحيان يشعرٍ أنه يفضل عليه شقيقه "أبو المناقب" ويشعر على نحو خفي أنه سوف يَعهدُ إليه بالأمر من بعده، لكن فليدَّعه من كل هذا الآن، وليتمتع بما هو مقبل عليه من متعة.

نادى أبو العباس على أحد رجاله الذين عهد منهم الاستجابة لرغباته المُنحرفة طمعاً في حفنة من الأموال، وأمره أن يعيد تلك التجربة التي باتت تلهب خياله، فاستجاب الرجل على أن يكون ميعادهم في أسرع وقتٍ في القصر الخاص بأبي العباس، وتفرق الرجلان... ليذهب ابن الخليفة إلى قصره ويتحرك الرجل في معية آخرين صوب شوارع بغداد ليتخيروا للخليفة جسداً بضاً يستكشفهُ اليوم.

****

دخل الرجل على أبي العباس وكان في فراشه بين النوم واليقظة وقد تدلى اللعاب من فمه، وأخذ يُدندن في همس ماجن بعض الألحان التي كانت تتغنى بها جارية أبيه "عرفه".

رفع أبو العباس رأسه بصعوبة لينظر إلى الصيد الثمين الذي أتى به أصحابه، ليفوجئ بالفتاة التي قبضوا عليها تتمنع ويَصدرُ عنها همهمات غير مفهومة وقد كمموا فمها بقماشة حتى لا تحدث صخباً وقت دخولها إلى القصر، كانت الفتاة تقاوم بشدة، وحتى بعد أن أزالوا عنها القماشة السوداء التي كانت تحجب نظرها ما بهرتها أبهة قصر ابن الخليفة كما بهرت من قبلها، فما كانت تنظر إلا إليه خوفاً وهلعاً، وكان الرجال يدفعونها إليه كأنهم يسوقونها إلى الموت المحتوم.

قام أبو العباس من فراشه يترنح ثم اقترب من الفتاة، وأخذ ينظر إلى قسمات وجهها عن كثبٍ فوجدها جميلة يميل شعرها إلى الشُقرة وعيناها واسعتان عسليتان... لكن الهلع كان بادٍ منهما وكأنه يريد أن يقفز ويغادر هذا الجسد، لكن أبو العباس ما عبأ لارتعابها، وأخذ يدور حولها يعاين بضاعتها وكأنه الضبع يحوم حول فريسه الجريحة، أمسك أبو العباس بصدر الفتاة يختبره في كفه، لكن الفتاة تراجعت لينفلت الصدر من يده، ظهرت ملامح الغضب في وجهه لكنه ما لبث أن نظر إلى الفتاة باستهزاء وقد قربها رجاله إليه مرة أخرى، وفي هذه المرة أمسك بمؤخرتها يعاينها بمتعة، ولم تستطع المسكينة

الانفلات هذه المرة من تلصص يده العابثة فقد أحكمت عصابة أبو العباس وثاقها فباتت غير قادرة على التراجع، نظر إليها أبو العباس في عينيها بتحدي وهو ممسك بعورتها ثم أشار إلى رجال عصابته بالانصراف بغير أن ينظر إليهم.

ترك ابن الخليفة الفتاة مُقيدة وفمها مُكمماً، فقد عرف إن هو نزع عنها كمامها لملأت الدنيا صراخاً، وفضل أيضاً ان يترك يدها مقيدة في الخلف حتى يسيطر على مقاومتها إن حاولت، دفعها ابو العباس على فراشه واقترب منها وأخذ يحاول أن ينزع عنها لباسها وهي ترفسه بقدمها فناله منها الكثير من الركلات وهو يحاول أن يقترب من تحتها، لكنه اقترب من الجانب وجثم عليها بثقله... فنجح في مهمته بعد الكثير من العناء، قدَّ ابن الخليفة ثوب الفتاة من أعلاه فبرزت عورتها، وازدادت شهوة ابن الخليفة فجثم على ضحيته يُلثمها[65]، وأخذت رائحة الخمر المنبعثة من فمه تهاجم منخاريها، فأخذت تحرك وجهها ذات اليمين وذات الشمال، وعندما يأست أن تزحزحه من فوقها... التقمت شفته السفلى وعضتها عضة ضارية حتى سال الدم من شفته، ارتفع أبو العباس بجزعه عنها وهو يمسح الدم من شفته وينظر لأثره في يده... حوَّل نظره إليها متوعداً ثم لطمها على وجهها لطمة زلزلت كيانها... ثمّ أنهمك مرة ثانية فيما بدأه، حاولت الفتاة أن تقاوم أكثرفلا تسمح له بالولوج لكن مقاومتها انهارت بعد فترة فنظرت إلى جانب الفراش مُثبتة أعينها على الستائر المُزركشة بفروع الأشجار وهي مكممة الفم وقد انسابت عبرة من مقلتها.

انصرف زبون آخر من حانوت الرحيق المختوم للعطور والأدهان الخاص بقاسم وحسين، وتتبع حسين بعينه الزبون وعندما تأكد من انصرافه قال:

- كانت فكرة عبقرية منك، شراء قناني العطر النادر، ما كنا نستطيع صناعتها ولو بعد حين.

رد قاسم وهو لايزال منهمكاً في تفريغ بعض العطر من وعاء كبير في قنينة أنيقة في يده:

- عرفت أنواع من العطور لم نكن نستطيع صناعتها لصعوبة استخلاص رحيقها، فأرسلت في شراءها ونحن في آلموت حتى لا يفتضح أمرنا إن طلب أحد الزبائن شراء واحدة من تلك العطور النادرة.

- وتلك الآلة التي اشتريتها... قد ساعدتنا كثيراً في تحضير ماء الورد بواسطة التقطير.

- تقصد الإنبيق[66]... ما كنا نستطيع العمل دونه.

- قد وثق بنا أهل بغداد وأحبوا العطور التي نبيعهم إياها.

- حقاَ قد وثقوا بنا، وما تخيلت أن يكون انخراطنا داخل بغداد على هذا النحو من السهولة، يبدو أن أولئك القوم نيام، يستطيع أي غر اختراقهم والاندساس بينهم، لو كنت أعلم قدر غفلتهم لِما احتطت إلى هذا الحد لأمر غطاءنا.

- دعنا من هذا كيف سنقترب إلى هدفينا؟

- هما الآن من مشاهير بغداد ويظهرون كثيراً في الأسواق ويتجمعون مع كثير من الخلق، فيمكننا فقط أن نستحفظ تلك المواعيد التي يظهرون فيها حتى نتخير منها ما شئنا للقضاء عليهما.

- التحدي الحقيقي أننا يجب أن نحقق التزامن في اغتيال هدفينا، لأنه إن تم كشف أحدنا فسوف يتم العصف بالآخر، فصلتنا الآن كشركاء في الحانوت باتت واضحة للجميع.

- تماماً... فيجب أن نقوم باستحفاظ خط السير الخاص بكلاً منهما حتى نتخير اللحظة المناسبة لتنفيذ المطلوب في نفس الوقت والحين... حتى وإن كان الهدفين في مكانين متفرقين.

- لحسن الحظ فصديقهم المشترك زبون عتيق لدينا، وهو غير حريص في كلامه عن تحركاتهم، فهو كثير الكلام يحب الظهور بمظهر العالم ببواطن الأمور.

- أعجب كيف يكون هذا الثرثار دارساً للفلسفة، فالفلسفة توَّلِد الحكمة، وهذا الـ "الأحمد" أبعد ما يكون عنها.

- هو يتفاخر بمعرفة بُرهان ومالك وقد أصبحوا نجوماً للمجتمع ومُحبّبين لدى الجميع ...سُنة وشيعة.

- حقاً قد ازداد نفوذهم في القلوبِ، فبات تأثيرهم متزايد عند الشيعة وصاروا ألين عريكة... خاضعون للطغيان السني.

- والعجيب أن أحمد هذا الثرثار مُعجب بهما إعجاباً شديداً مع كونه شيعي.

- لكني أعجب من أمر... كيف يستطيع الخليفة ورجاله التخطيط المحكم لتغيير العقيدة الشيعية في قلوب أصحابها ولم يستطيعوا الالتفات إلينا وأندسسنا داخلهم على تلك الشاكلة.

- قد أعمى الله أبصارهم عنا، حتى نستطيع تخليص الناس من شرورهم.

- لكني مازلت أعجب من الازدواجية في أداء أولئك القوم، فالعقل الذي يدبر هذا التدبير المحكم ويعجز عن رصدنا يستحق العجب.

- أياَ كان، المهم أن ننجز مهمتنا بأسرع وقت ممكن، فقد امتدت مدة إقامتنا هنا لأكثر من عشرة أشهر بغير أن نحقق تقدم يذكر.

- المهم أن ننجز مهمتنا بنجاح، وقد حققنا نجاح بالفعل عندما غرزنا جذورنا هنا بغير أن يشك فينا أحد، وفترة العشرة أشهر التي تقول بها ليست بكثير، فغيرنا من رجال القلعة مكثوا لمدد أكثر من تلك حتى تمكنوا من أداء مهامهم بنجاح، وجميع المُراسلات السرية التي تأتينا من القلعة لم يقم فيها الأكبر باستعجالنا لانجاز المهمة، لكنه دائماً ما يطمأن على انخراطنا في بغداد ومتابعتنا للأهداف بغير تحديد زمن معين للتنفيذ.

- كم أتوق لقتل هذين الشيطانين...

وثبت ناظريه في ناظري قاسم وقال:

- كم أتوق إلى الجنة.

جلس بُرهان بجانب أحمد أمام ساحة منزل الأخير... يحاول أن يخفف من قلقه على اختفاء زوجته، وكان الوقت فجراً لكن أيهما لم يستطع النوم طوال تلك الأيام الماضية، فقد مرت ثلاثة أيامٍ الآن بغير أن يُعثر لها على أثر فطافت بذهنه جميع الظنون، فقد يكون أحدهم اختطفها، أو قد يكون جند الخليفة المستعصم قد قبضوا عليها لسبب لا يعلمه إلا الله، وقد يكون اختطفها بعض السنة الحاقدين عليه وعلى ظهوره مع بُرهان ومالك في مجالس الصلح التي يحاولون فيها التوفيق ما بين السنة والشيعة واحتواء أزمات الكرخ والكاظمية المتكررة، ربت بُرهان على كتف أحمد:

- أصبر يا صديقي، إن الله مع الصابرين، وإن غداً لناظره قريب.

- فلتصمت يا بُرهان... أنت لا تشعر بالنار المُستعرة في قلبي.

- ما الذي تقصده، فمن المستحيل أن تكون قاصداً أني لا اعبأ بآلامك، فاختفاء زوجتك أمر يشغلنا جميعاً، وأنت تعلم كم بحثنا أنا ومالك والجميع عنها في جميع أزقة وحواري بغداد بغير أثر.

نظر أحمد إلى بُرهان بعينٍ دامعة وهمس بصوتٍ مبحوح:

- بناتي يسألن عنها بإلحاح وأنا لا أدري ما أقول لهن، فقد مرت ثلاثة أيام وهي متغيبة عن المنزل.

- وما ترى العمل، هل ترى لنا من سبل غير التي سلكناها؟

- لا أدري لربما خطفها رجال الدويدار الصغير حتى يرغموننني على عدم مصاحبتك ويرهبونني كي لا أحضر في تلك المجالس العرفية التي نصلح فيها بين أهل الكرخ من شيعة أوِ سنة.

استبعد بُرهان ما يقوله صديقه أحمد إلا انه قرر مسايرته فيما يقول:

- علنا نحاول مقابلة الوزير العلقمي ونبلغه باختفاء زوجتك وشكوكنا في الدويدار الصغير، عله ينقذها من أسرها.

- إن كانت على قيد الحياة.

قالها أحمد بيأس تام وقد عاود النظر إلى الحصى تحت الدكة التي هو جالس عليها في شرود تام.

- لا تكن يائساً إلى هذا الحد، قادر الله تعالى أن يرجعها إليك سالمة بإذنه.

فوجئ الصديقان بجلبة، فاستشرفا بأنظرهما ما يحدث في محاولة لاختراق الظلام المعتم أمامهما، ولم يلبثا إلا ثواني حتى ظهر ستة من جيران أحمد ومعارفهما يهرعون إليهما، وتقدم واحد من أولئك الرجال وقال بصوت خفيض موجهاً حديثه إلى أحمد:

- يبدو أننا قد وجدنا زوجتك.

هبَّ أحمد من مجلسه وهو يشد بيد الرجل قائلاً:

- أين هي الآن؟.

لم يستطع الرجل أن يُثّبت عينيه في عيني أحمد وقال بصوتٍ هامس:

- وجدناها في النهر غارقة فأخرجناها وسترناها حتى تأتي أنت وترى ما يُفعل بها.

أحس أحمد وكأنه يحلم، وشعر بدمائه كلها تنسحب من رأسه من هول المفاجئة، فمع أنه كان يتوقع أن يمسها مكروه فقد كان طوال الوقت يُكذب نفسه، دفع أحمد الرجال من أمامه وطفق يعدو جهة النهر، وجرى بُرهان والرجال وراءه حتى يكونوا بجانبه أثناء تلك الفاجعة، وعندما وصل الجميع إلى النهر، وجد أحمد زوجته مُزجاة على الأرض وقد غطاها أهل المحلة بثوب أبيض فنزل على ركبته جهة رأسها وكشف عن وجهها فوجدها مغلقة العينين مجعدة الشعر وقد أزرق جلدها وظهر في بعض مناطقه زغب أبيض، أزال الزوج المكلوم الثوب أكثر لتلمح عينيه منابت ثديي زوجته فعرف أنها عارية، فقام بسترها بالثوب مرة أخرى في سرعة وقد إزداد إحساسه بالحزن والحسرة والخزي، أخذت الدموع تنساب من عينيه لتتساقط على وجه زوجته البارد، أحس أحمد برغبته الانفراد بزوجته في تلك اللحظات القاسية فزعقَ في جميع من حوله:

- تراجعوا، مالكم ومالنا، ألا يكفيكم جميع ما حدث.

أخذ بُرهان يبعد الناس عن موضع المأساة، وعندما أحس الزوج المكلوم بأنفاس الناس تبتعد... أخرج يد زوجته بحرصٍ من تحت سترها الأبيض فأحس بها نحيفة باردة، وأحس بتجعد أطراف أصابعها من أثر امتصاص جلدها للماء، كان فم زوجته مفتوحاً وكأنها كانت تستنجد به قبل موتها، حاول أحمد أن يضم بين فكي زوجته لكنه فشل، فرآه بُرهان يكرر محاولاته اليائسة بعصبية وقد أخذ نشيجه يتزايد، فتدخل الصديق بتقطيع طرف الثوب الأبيض الذي تم تغطيتها به ولفه من جهة رأسها وتحت ذقنها حتى يجبر فمها على الانغلاق.

لم يشكرِ أحمد صديقه ولم ينظر إليه، فقط رفع زوجته بكل ما أوتي من قوة... ململماً عليها الثوب الأبيض لئلا تتكشف... وتوجه بها تلقاء منزله، أفسح العامة له الطريق وهم ينظرون إليه نظرات ملأها الحزن والأسى وتبع بُرهان خطاه، وإن كان لا يجرؤ على مواساته بكلمة... لكنه تبعه على أية حال حتى وصلا إلى المنزل، وتأمل بُرهان في الدكة التي كانا يجلسان عليهما من ساعة مضت بحزن، وعندما دخل أحمد منزله نظر خلفه قائلاً:

- أرجوك اتركني الآن، فأنا في حاجة إلى بعض الوقت وحدي.

لم يقل بُرهان كلمة واحدة، فقد أحس أن في تصرفات صديقه اتهام باطني له أنه تسبب في مقتل زوجته، توجه بُرهان صوب الدكة التي كانا يجلسان عليها لعله يعقل الأمر ويعرف ما وراء اختفاء زوجة أحمد وغرقها في النهر، وبينما هو كذلك سمع صرخات بنات أحمد من الداخل تنفذ إلى روحه وتؤلمه وتقطع أوصاله... فقرر أن يترجل بعيداً عن بيت صديقه، وليأتي إليه في وقتٍ لاحق تكون حالته أفضل.

أما في داخل المنزل فقد سمح أحمد لبناته أن ينظرن إلى أمهن نظرة الوداع، ثم طلب من الجميع مُغادرة الغرفة وكشف عن زوجته ما كان يسترها، فوجدها عارية تماماً وفي جسدها أثار خدوش وسحجات خاصة في ساقيها وبين فخذيها، ورأى أثر لجرح نازف من مكمنها، فعاد وغطاها وقد كره ما رأى وعرف أن أحدهم اعتدى عليها وأنه قتلها لما أيقن أنها ستفضحه إن تركها على قيد الحياة، من المؤكد أن من فعل ذلك أحد أعداؤه، لكن أحمد فكر أنه ليس له أعداء وأن علاقته مع الجميع حسنة، لكن مهلاً... لم يحب الكثير من شيعته جلسات الصلح التي كان يحضرها ويسهلها لصديقيه بُرهان ومالك، فمن الممكن أن يكون أحد من حظروه من مغبة تلك الجلسات هم من قاموا بالاعتداء على زوجته وقتلها نكاية فيه، لكن أتصل العدواة إلى تلك الدرجة!!، وحتى وإن كان الأمر كذلك أيصل الأمر إلى اغتصاب تلك البريئة.

جلس أحمد عند أقدام زوجته باكياً لساعات لا يعلم عدتها إلا الله، وبعد أن جفت الدموع من مقلتيه... قام من تحت أقدامها وأقسم أن ينتقم لموتها أياً

من كان قاتلها، ولسوف يجعل ذلك هدف حياته الذي يعيش من أجله، أما بناته... فإن هو تبع زوجته إلى قبرها فسوف يقوم على أمرهم أهل زوجته رحمة الله عليها، فلا بديل عن الانتقام.

****

تحية رجال القلعة

بغداد 651هـ

توالت جرائم اختطاف النساء من بغداد والكرخ، وحامت الشبهات حول بيت الخليفة وأن أحد أفراد أسرته وراءها، وقد كان يظن الناس أن تلك الجرائم مرتبكة بواسطة عصابات سنية للتنكيل بالشيعة حتى وقت قريب، لكن الكل أعاد النظر في أمر تلك الجرائم من بعد اختفاء نساء سُنيات.

انقطع أحمد عن مجالس بُرهان ومالك وما بات يدعمهم في الجلسات العرفية بين الشيعة والسنة، وقد كان يعتقد في تورط العصابات السنية في مقتل زوجته، والآن وبعد أن علم أن الأمر ليس له علاقة بالسنة والشيعة جعل همه أن يعرف... من في بيت الخلافة يرتكب تلك الجرائم وقد فقد أي اهتمام أن يتواجد مع بُرهان ومالك.

قام أحمد بالتواصل مع أهلية بعض النساء اللاتي تم اغتصابهن وقتلهن، وجلس الجميع يتحدثون في إحدى جلساتهم السرية.

- استبعد أن يكون من قام بذلك أبو الفضل عبد الرحمن ابن المستعصم، فسمعة الفتى تعفه عن ذلك، فمن الأرجح أن يكون الفاعل إما أحمد أبو العباس أو شقيق زوجة الخليفة "ليلى عصمة الدين والدنيا"، فكلاهما عُرِف بالفُجر والمجون ويُعقل أن يأتيان مثل تلك الجرائم.

قالها أحمد وهو ينظر في أعين الرجال من حوله ليقف على مدى اقتناعهم بما يقول، فقال رجل من الجالسين:

- دعنا نحاول مُراقبة تحركاتاهما عسى أن نعرف من منهما ارتكب تلك الفعال الشنعاء... وللحق فكلاهما يستحق الموت بلا شفقة.

- اتفق معك لكن دعنا نبدأ بالمجرم الحقيقي ثم نتبع ذلك بالانتقام من الآخر بلا هوادة.

قسَّم الرجال أنفسهم على غفرات لمُراقبة الأميرين على دوام اليوم بغير انقطاع، وكان أحمد ممن يراقبون شقيق السلطانة ليلى عصمة الدنيا والدين، وجاءت نتائج المراقبة سلبية، فرغم معاقرة الرجل للخمر وفساد أخلاقه فلم يثبت في حقه أنه تحرش بحرائر بغداد من بنات الرعية، أما من يراقبون أبا

العباس فقد عرفوا عنه نزوله إلى الأسواق مُتخفياً ومعاينته للنساء فيها، فزادت الشبهات حوله، وتأكدت بعد حين.

عندما علم أحمد بالخبر، جنَّ جنونه وقرر الانتقام من أبا العباس في أسرع وقت، وأعد خطة سريعة قرر فيها أن يكون معية بعض الرجال ليشتبكوا مع حرس الأمير لتتاح له الفرصة أن يهجم عليه ويقطعه إرباً بالخنجر الذي أعده لذلك.

تجهز أحمد في اليوم التالي صحبة من اختارهم من الرجال، وانتظر مقدم أبو العباس متخفياً إلى الأسواق لاختيار ضحيته التالية، أخذ قلب أحمد ينبض بشده وقد تفصد العرق من جبينه وتعرق الخنجر في يده، لكنه ما تزحزح عن موقفه، فقط تمنى من الله أن يوفقه في مهمته.

وعندما نزل أبو العباس متخفياً في جولاته السرية المعتادة... أنطلق الرجال صحبة أحمد بناء على إشارة من يده ليندفعوا من أزقة جانبية قاصدين رجال الأمير ليشتبكوا معهم، في حين ما قام هو بالانقضاض على أبا العباس وطرحه أرضاً وسط ذهول المارة وصراخ النساء.

نظر أحمد في عين أبي العباس ملياً:

- حي على الانتقام، تذكُر زوجتي التي اختطفتها منذ عشرة أشهر وثمانية عشرة يوماً؟.

قالها أحمد بصوت زاعق زلزل الموجودات من حولهما وكأنه هزيم الرعد، زاغت عين أحمد أبو العباس وهو في عجز تام عن تذكر شئ عن زوجة هذا القابع على صدره، لكنه خمن ان تكون إحدى أولئك اللاتي قرر خطفهن واغتصابهن في الآونة الأخيرة، فشعر بخوف شديد وحوَّلَ وجهه عن وجه أحمد وحاول التملص منه بلا جدوى، أزال أحمد الخنجر عن رقبة أبي العباس وقرر طعنه بين قدميه تشفياً منه:

- أهذا الذي أولجته في فرج سُمية على كراهة منها؟!.

تأوه ابن الخليفة بصوتٍ عالٍ وأحمد مستمر في طعن بين قدميه بغير توقف وهو يبدل موضع الطعن ليتأكد أنه أتلفه، كانت صرخات أبا العباس تطرب أحمد وتبعث داخله شعور مُتفاقم بالسعادة والنشوى، لكن فجأه شعر أحمد بمن يجذب جبينه إلى الخلف وأحس بدغدغة في رقبته، توقف أحمد عن الطعن وهو ينظر إلى الدماء تنفجر من موضع قطع في رقبته ونظر حوله ليجد جميع رهطه مُسجين على الأرض وقد تغلب عليهم حرس أبو العباس.

حاول أحمد أن يُسدد طعنة أخيرة إلى رقبة أبو العباس عسى أن تكون هي القاضية لكنه أحس بتنميلٍ في يديه وشعر بوعيه يتسرب منه ... ليسري

في جميع انحاء جسده خضر لذيذ أجبره على الاستسلام، ليستلقي صريعاَ على جسد خصمه وقد فشل في انهاء مهمته.

****

مرت أسابيع على مقتل أحمد، ومازال بُرهان يحلم به كُلما أخلد إلى النوم، وحتى أثناء يقظته كانت ذكرياته مع محمد تغزو عقله في كل وقت وحين، ولم تستطع كرمة زوجته أن تخفف من كآباته رغم اعتناءها الدائم به وشموله برعاياتها وحبها، فكان ذلك الاهتمام الزائد منها يزعجه ويزيد من حزنه على صديقه.

ومما زاد من حزن بُرهان... تلك النهاية المآساوية التي لاقاها صديقه، فهو لا يعلم سبباً لما اعتراه في الأشهر الأخيرة قبل وفاته، فهو يعلم بخطف زوجته وقتلها... لكن أذلك مبرر للتعصب الذي دفعه في النهاية إلى محاولة قتل ابن الخليفة المستنصر! فطالما صاحبه أحمد في تلك الجلسات التي حاولوا فيها الإصلاح بين السنة والشيعة وإيقاف نزيف الكرخ من جرحها المُتجدد، كيف بعد كل ذلك يخون مبادئه ويلجأ إلى العنف حتى يثأر لشيعته.

كان بُرهان يشعر بالحزن لموت صاحبه ولموت الأفكار التي كان يدافع عنها، فطالما كان بُرهان يؤمن أن الوفاق بين جميع طوائف بغداد أمر ممكن التحقق، لكنه الآن يشعر باليأس التام، فهذا أحمد الذي طالما عاشره ونقل عنه أفكاره واطلع على ما في قلبه تعصّب في النهاية... ارتكب جريمة مثل تلك التي يكافحونها.

لم يستطع بُرهان أن ينفض عن عينية صورة صديقه وهو مصلوب في السوق وقد سُملت عينيه وقُطِّعَ قضيبه، وتُرك ينزفُ حتى الموت، يقول العامة أن قطع عورته كان بسبب تلك العاهة التي أحدثها بأحمد أبا العباس ابن الخليفة المستعصم، فقد شاهد المارة ابن الخليفة ينزف من بين قدميه يوم محاولة اغتياله الفاشلة، شعر بُرهان بالحقد على الخليفة وابنه، ففي النهاية كان أحمد صديق عمره وما كان يرضى بقتله بهذه الوحشية وإن فعل الفعال.

مشى مالك إلى جنب بُرهان في شوارع بغداد، وكان مالك أكثر تماسُكاً من بُرهان لمقتل صديقهما فأخذ يواسيه:

- حقاً لا أعلم ما اعتراه في الآونة الأخيره سامحه الله.

- أياً كان ما اعتراه، فإنه لا يستحق ما اعتراه من مصير.

- يقال أن هناك من دسَّ على أحمد أن أبا العباس هو من اغتصب وقتل زوجته.

- لا يمكن أبداً التحقق من مثل تلك الادعاءات، كيف يعوّل أحمد رحمه الله على مثل تلك الظنون فيرتكب تلك الجريمة الخطيرة.

- يقولون أنه تحرى الأمر بنفسه وبمساعدة زمرته، وأنت تعلم يا بُرهان أن ابن الخليفة ليس فوق مستوى الشبهات.

- لا أريد أن أحكم على أحمد رحمه الله في شئ، فما يدريني ما أفعل إن فُعل بزوجتي مثلما فُعِل بزوجة هذا المسكين، لكن ألم يكن هناك أي أمل أن يتسامح أو حتى أن يتصرف بقدر من التعقل؟

- لا يستطيع الحكم على الأمور إلا من هو في الموقف نفسه.

- يا ترى كيف حال والدة أحمد وهي تعلم ما طال ابنها من عذاب قبل قتله، وكيف حالها وقد رأته مصلوباً عارياً ذليلاً على تلك الشاكلة التي رأيناها جميعاً.

- أدعو الله أن يكون هناك عُقّال حولها ... منعوها أن ترى ابنها في هذا المشهد المخزي.

- وماذا عن أبناء جلدته وما يقولونه الآن، فهذا أحمد الذي كان يؤمن أن الوفاق بين أبناء بغداد أمر ممكن، ها هو يرتكب جريمة أخرى ضد ابن الخليفة السني، فتنتقم منه دار الخلافة بالقتل والتمثيل والتشويه، هو جرح بين أبناء الوطن الواحد... لن يتوقف نزفه إلا ما شاء الله.

كان مالك يعلم فداحة ما آلت إليه الأمور الآن... فلم يستطع معارضة صديقه في شئ، فقد صارت الهوة بين السنة والشيعة سحيقة، وأصبح الطرفان الآن لا يقبلان لبعضهما حديثاً، وأصبح صوت العنف والقتل والانتقام يعلو أصوات التعقل، فكان من المنطقي أن يدب اليأس في أوصال بُرهان، قال مالك مواسياً:

- لا عليك يا أخي، فبغداد سريعاً ما تَنسى، فهي كالبحيرة الراكدة... إن القيت فيها صخرة عاتية فسوف تعود الأمور إلى وداعتها بمرور بعض الوقت.

بُرهان في ثورة:

- لكن أحمد رحمه الله لن يُنسى يا مالك، لن يُنسى.

نظر مالك إلى بُرهان في ضيق:

- لم أقصد أحمد، قصدت تلك الحادثة التي كدرت صفو العلاقة بين السنة والشيعة.

- تتحدث وكأن العلاقة بينهما كانت صافية... العلاقة كانت ومازالت اسوأ ما تكون، فقط كنت أنا وأنت وأحمد نحاول أن نحسن من كدرها، كل ذاك ولم أتحدث عن أهل الذمة الذين لا يتمتعون بذات الحقوق التي يتمتع بها مسلموا البلاد، وهم بالطبع لا يجرأون على الاعتراض لضعف شوكتهم.

- دعك من هذا كله الآن دعنا نعرج إلى السوق، فأنا أريد شراء بعض الحاجيات للبيت، ثم نذهب إلى دورنا لنستريح على أن نتقابل غداً إن شاء الله. وافق بُرهان مالك على كراهة، فتأبط الأخير ذراعه وعرج به جهة السوق.

لمح حسين بُرهان ومالك يتقدمان في السوقِ، وكان مالك يُعاين البضائع بينما كان بُرهان شارد الذهن تماماً، لا يأبه لما هو معروض يتبع صديقه كما يتبع الطفل أمه، شعر حسين بشعور خفي وأن الآن هي اللحظة الحاسمة ليُنفذ ما عُهد إليه، وشعَرَ وأن حرب وسيد القلعة الآن يشاهدونه ويحثونه على إنفاذ الأمر، دخل حسين الحانوت في سرعة وعهد إلى الخنجر المُقدس الذي سُلِمَ إليه وأخفاه في كم قميصه كما تدرب في القلعةِ وشَرَعَ يَنظرُ إلى الخارج.

كان قاسم في الداخل يُتابع ما اعترى حسين من تغيير فشعر بقلبه يرجف في صدره وهو يرى صديقه يُخفي خنجره، فمن الواضح أن الآن هي ساعة الحسم التي اختارها حسين، قال قاسم:

- ما بك يا حسين؟!

- بُرهان ومالك يقتربان إلى حانوتنا الآن، سوف اغريهما بالدخول عندما يمران أمام الحانوت ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، هل أنت مُستعد الآن؟.

أحمر وجه قاسم من شدة الانفعال، فقد كان كل شئ يسير في سرعة من حوله، يبدو أن ما بقى له في الدنيا دقائق معدودات، ومع ذلك جمع شتات أمره وعمد هو الآخر إلى خنجره واخفاه في كمه كما فعل صديقه، قال حسين:

- سوف أقتل هذا الشيطان بُرهان وتولى أنت أمر الآخر، فهذا البُرهان هو الهدف الأهم بحسب ما قال سيد القلعة، وأنا أعلم كيف سأتخلص منه.

أنهى حسين عبارته ثم انتقل إلى الخارج حيث المارة في السوق وتبعه قاسم، شد حسين قميص قاسم وهو ينظر جهة مالك وبُرهان حتى يراهما الأخير.

اقترب الصديقان من الحانوت فتبدلت ملامح حسين المتوترة وانفرجت اساريره وهو يباغت الصديقان بعبارت الإطراء والمديح ويرغبهما في دخول حانوته لاختيار صنف من العطور لهما أو لزوجاتهما.

- حللتم أهلاً ونزلتم سهلاً أيها السيدان الكريمان، فلتتفضلا تعاينا بضاعتنا فلدينا في الداخل أفضل أنواع العطور.

بُرهان في نفاذ صبر:

- أشكرك، ليكن ذلك في وقت لاحق.

حسين في الحاح:

- ولماذا ليس الآن، أعدك أن تجد ما يسرك، وأسعارنا زهيدة وستُفاجئ من جودة عطورنا وقدرتها على الثبات على الأجسام والملابس.

أدار بُرهان رأسه في ضيق راغباً عما يسمع وقد توجس من إلحاح صاحب الحانوت عليه بالدخول، لكن يبدو أن مالك كان أكثر تحمساً :

- دعنا نرى ما لديه يا بُرهان، فليس لدينا اليوم شئ محدد نفعله، فسوف ننتهي من السوق ونرجع إلى دورنا، لربما اشتريت لك زجاجة من عطر تضفي بعض البهجة على مزاجك الكئيب.

وافق بُرهان على مضض وهو ينظر إلى قاسم الذي وقف مرتبكاً بجانب حسين... لا يكاد يقول شيئاً ويتابع الحوار في توتر مكبوت، ورغم أن قاسم مهارته الأساسية كانت ذهنية متمثلة في التخفي والتحاور مع الآخرين... لكنه كان يقف كالأبله مكتوف الأيدي أمام محاولات حسين الحثيثة لاستدراج فرائسه إلى داخل الحانوت، ماله الآن يشعر بالتردد وعدم الثقة مما هو مُقبل عليه من أمر، أهو مُقتنع فعلاً بالاغتيال والعنف حلاً للمشكلات التي تواجه المجتمع، نفض قاسم تلك الأفكار التي بدأت تراوده، فليس وقتها الآن، فلسوف يمضي حُسين إلى ما هو ماض إليه بغض النظر عن رغبته في ذلك، فليحاول التركيز في تلك اللحظات الفارقة والأخيرة من حياته.

دخل الصديقان إلى داخل الحانوت وسط عبارات الإطراء والمديح من حسين والذي انهمك تماماً في استدراجهما حتى بغير أن يأبه إلى قاسم وحالة الذهول التي انتابته، يبدو أنه قد اتخذ قرار التنفيذ حتى ولو كان سيقتل الإثنان وحده، اشتم مالك بضعة زجاجات عطرية واتخذ قراره بشراء احداها لزوجته، وأخذ مالك يعرض ما اختاره على بُرهان ويُقرّب زجاجة العطر من أنفه عساه أن يشاركه الرأي، لكن بُرهان كان نافراً سوداوي المزاج.

كانت جميع حواس حسين نابهة، فاتخذ قراره في التو وقال موجهاً حديثه إلى بُرهان:

- دعك من هذا أيها السيد الكريم، لسوف آتيك بقنينة عطرية لن تجد لعبيرها الساحر بديلاً.

- لا داعي فلست في مزاج يسمح لي بشراء العطور.

- لا تحكم الآن يا سيدي، فالحكم على الغائب لا يجوز شرعاً.

قال حسين عبارته السابقة ضاحكاً بغير أن يشاركه أحد الضحك، ثم استدار عن وجه بُرهان ومالك وكأنه انصرف ليأتيه بالعطر، ثم واجه بُرهان فجأه وقد أبرز خنجره من طرف قميصه وغرزه في سرعة في رقبة ضحيته قائلاً:

- بسم الله، الله أكبر... تقبل تحية رجال القلعة.

تحشرج بُرهان وأخذ ينظر إلى مالك في ذهول وهو يخورُ بصوتٍ مرعب، أخذ الدم يتفجر من رقبة بُرهان من بعد ما سحب حسين خنجره، وأخذ الأول يحاول إيقاف الدماء المتفجرة من موضع الجرح بغير جدوى، حتى شعر بدوار شديد فخارت قوته وركع على الأرض وهو يتشبث بالرفوف التي رُصَّت عليها العطور لتنقلب كلها عليه بدوي مكتوم.

كان حسين يستعشر احجام قاسم وتردده، ويبدو انه اتخذ قراره باغتيال الصديقين بنفسه في حالة ما نكث صديقه... وهو ما كان، تحول حسين في طرفة عين إلى مالك يحاول أن يغرز ذات الخنجر في رقبته، لكن الأخير تحرك في اللحظة الأخيرة وقد أفاق من صدمته لتطيش يد القاتل عنه، ويجري هو في هلع خارج الحانوت.

شعر حسين أنه لن يستطيع اللحاق بمالك، وكان بُرهان هو الهدف الأساسي الذي كُلف به من قبل سيد القلعة، فقرر الإجهاز عليه تماماً فأخذ يطعنه بالخنجر طعنات مدروسة تعلمها على مر السنوات من "حرب" في القلعة موجهاً إياها إلى قلب ضحيته وأضلعه ليستيقن من النتيجة.

بينما هو منهمكاً في تسديد الطعنات إلى جسد بُرهان دخل تجار السوق إلى المحل وقبضوا على حسين وشلوا حركته، لكن الأخير استسلم لهم بلا مقاومة وهو يبتسم وقد أيقن من نجاح مهمته التي كُلف بها، والقى نظرة أخيرة على بُرهان فوجده قد لفظ أنفاسه الأخيره وبقى هامداً على الأرض بلا حراك، عندها مسح حسين المحل بناظرية بحثاً عن قاسم فلم يجده، فأيقن أنه هرب، فلعنه مهمهماً واستسلم لآثريه مُطمئناً.

****

تأثر أبو العباس بمحاولة الاغتيال التي تعرض لها أشد ما يكون، فاصبح مزاجه أكثر انحرافاً عمَّا كان، فقد أفقدته المحاولة رجولته، فهو الآن لا يستطيع إتيان النساء، ومِما زاد من آلامه أن العامة أصبحوا الآن يعرفون خبر

عاهته ويتندرون به تشفياً منه، فهو لم يكن يوماً محبوباً من أهل بغداد، وأبيه المُستعصم هذا الكهل الخرف، لسوف يحجم الآن عن أن يعهد إليه بالخلافة، فالأوفق أن يعهد بها إلى ابنه عبد الرحمن أبي المناقب، فهو سليم الأعضاء قادراً على معاشرة النساء وسوف تكون لهُ ذرية يرثون العرش من بعده، فلا ينقطع نسل الخلفاء الذي جاءوا من ظهر بعضهم البعض، لا شك أن أباه سيُقصيه... فحتى قبل عاهته كان يفضل عليه أخيه أبي المناقب دائماً.

شعر أبو العباس بالحقدِ يأكل قلبه، وفكر في قتل أخيه عبد الرحمن، ولا ضير إن قتل أخاهم الصغير مبارك أبو المناقب ليخلوا له أمر الخلافة، لكن ذلك الأمر يحتاج إلى تدبير مُحكم... حتى لا يعاقبه أباه على فعاله فيخسر كل شئ، لكن ما يستطيعه الآن هو أن ينتقم من الشيعة الذين أعدموه آلته وجعلوا من أمره أضحوكة بين العوام، فلتكن فتنة الكرخ والكاظمية هذا العام قاسية شديدة كما لم تكن من قبل، وليقتل فيها خلق كثير... فلتترمل النساء وليتيتم الأطفال ولتبلغ صرخات الجميع عنان السماء بلا جدوى... وليكن الحزن حاضراً جاثماً في كل بيت من بيوت الكرخ.

أرسل أبو العباس إلى الدويدار الصغير، حتى يدبر أموره، فقد لبث في الحزن أيام طوال، وقد حان الآن وقت العمل، أتى الدويدار الصغير إلى ابن الخليفة بغير إبطاء ولمّا مَثَل أمامه قال له أبا العباس بصلفٍ...

- مرت سنوات ونفوذ العلقمي لازال في تزايد، وأنت تقف مكتوف الأيدي أمام تغول سلطاته.

- أنت تعلم مدى تعلق أباك المستعصم به، وتأثيره عليه أقوى من السحر.

صاح أبا العباس في غضب:

- وهل نستسلم له؟!، فإن تمكن من الخليفة في الأيام المقبلة فسوف يؤيد استخلاف عبد الرحمن، ووقتها لن تقوم لنا قائمة أنا وأنت، هذا إن ظللنا أحياء.

- وما ترى في شأنه يا أبا العباس؟

- لا شئ يُحرج العلقمي ويُغضبه مثل تقتيل أهله في الكرخ والكاظمية، دعنا نخرجه عن صوابه لتتعثر خطاه فيَعرفُ الخليفةُ حقيقته ويُقصيه.

- سمعاً وطاعة يا أبا العباس، فأنت تعرف مدى مقتي لهذه الفئة الضالة، ولسوف يكون لي تدبير يشعل الكرخ إشعالاً، فقط اترك لي بضعة أيام حتى أدبر أمري.

أبو العباس باستهزاء:

- عرفني ما انتويته يا داهية العرب.

رد الدويدار بجدية:

- لسوف يُقتل في الأيام المقبلة رجل منا، وسوف نلفق القرائن لتدل على أن الفاعل من الروافض، ولسوف أختار رجلين بينهما عداوة حتى تُحبَك الوقيعة.

أعجب أبو العباس ما يقوله الدويدار وانفرجت أسارير وجهه بعد أن كان عابساً... فأشار إليه أن أكمل...

- وبالطبع سوف نحرك جموعنا ضد الروافض لينتقموا منهم لقاء جريمة صاحبهم، فتقوم مذبحة لن يستطيع الشيطان نفسه إيقافها.

قال أبا العباس وهو شارداً في الفراغ من أمامه:

- فلتُعَجل بهذا الأمر، فما عاد أمامنا الكثير من الوقت، أريد أن تتوطد قدماي بأسرع وقت ممكن.

****

قراقورم الانطلاقة الجديدة

قراقورم 651هـ

بعد ان استقر الأمر لمنكو خان بدأ في سياسته الإصلاحية، فنبذ سياسات التبذير وقام بتحجيم الهدايا والاعطيات التي كان يستولي عليها الأمراء، وجعل لهم عوضاً عن ذلك رواتب ثابتة مُناسبة، وقام كذلك بعمل تعداد سكاني على جميع المقاطعات التي فتحها التتار وحصر أعداد الذكور فيها من سن 16 وحتى 60 عاماً، واهتم بحصر الفقراء والمحتاجين وفرض ضرائب على التجار ليعاد توزيعها على ذوي الحاجة في امبراطورية التتار، وكذلك أنعم على أباه تولوي بلقب الخاقان المعظم.

في غضون تلك الفترة انتشرت عمليات إعادة بيع العملات الورقية في المقطاعات التتارية، لذا قام منكو خان باستحداث الإدارة المالية وذلك للسيطرة على تلك الظاهرة وحتى لا يتم التلاعب بالعملة بواسطة الحرس القديم والنُبلاء.

وبالفعل نجحت سياسات منكو خان الاقتصادية في السيطرة على الجبهة الداخلية، ودعَّمَ ذلك بتقبُل جميع الديانات وعدم السماح بالتمييز السلبي ضد أي ديانة كانت، فقد كانت الياسا تحض على الإحسان لاصحاب الديانات الأخرى وعدم التنكيل بهم، وساعده على ذلك أن أمه كانت مسيحية نسطورية فعطف على أبناء طائفتها وإن كان متسامحاً مع البوذيين والمسلمين. وقد استعان الخان بمستشارين من أصحاب الديانات الأخرى واستعملهم على الأمصار فكان له 16 حاكماً على الأقاليم وكان منهم 9 من المُسلمين، وبالطبع كان منكو خان أكثر تقبلاً للديانة المسيحية النسطورية[67] بحكم اعتناق أمه سرقوقتاني بيكي لها.

دخل المترجم الخاص بالراهب وليم ربروك[68] عليه في أحد الخيام المنتشرة حول خيمة خاقان التتار منكو خان ....ليجده منهمكاً في الكتابة وأمامه قنديل مضئ وهو يبدو في غاية الحماسة رغم إمارات الإرهاق البادية على وجهه، بادر المترجم وليم الحديث قائلاً:

- حنانيك يا وليم، فقد أكثرت الكتابة، وأنا مُطالب بترجمة جميع ما تكتبه.

- أكتب مُقدمة عن التصور المسيحي لبداية الكون وكيف خلق الله الإنسان كمقدمة للمناظرة المُزمع انعقادها غداً بمشئية الرب أمام منكو

خان.

- من يوم أن تقابلنا لم أجد معك سوى المعاناة والمشقة، فقد كدت أموت ونحن ننتقل من أراضي "باتو" وابنه "سارتوق" إلى حيث منكو خان، تلك الرحلة التي استغرقت أربعة أشهر كاملة، فقد كاد الصقيع أن يقضم أصابعي، وكنت أتضور جوعاً فلا أجد ما آكله، وقد حظرك دليلنا من مشقة الرحلة وطولها، لكنك أصررت على مقابلة منكو خان.

- كان لابد لنا أن نلتقي ب "باتو" وابنه "سارتوق" في بداية رحلتنا حتى يسهل لنا أمر التقابل مع منكو خان، وكانت جميع مجهوداتنا سوف تذهب سُدى إن لم نقابل خان التتار... أليس من الجائز أن يقتنع خان التتار بالمسيحية فينفع الرب به الممالك الصليبية جميعها.

- هم قوم غلاظ القلوب، أبعد ما يكونوا عن تعاليم يسوع الرحيمة.

- لا تفقد الأمل، فأم منكو خان مسيحية نسطورية وكذا ابن الأمير باتو بن جوتشي، فلن تعدم زهرة برية وسط الصحراء القاحلة.

ثم أكمل وليم وهو ينظر إلى عين المترجم بأملٍ صادق:

- وما تلبث تلك الصحراء القاحلة أن تتحول جميعها إلى جنة وارفة الظلال فيها من كل الثمرات.

- قوى الله عزيمتك أيها الراهب الصالح، أنت مُتسلح بإيمانك، لذا لا تشعر بوعثاء السفر، وكنت دوماً أكثر تحمُلاً مني.

أطرق وليم خجلاً من إطراء المترجم واستمر في كتابة مقدمته ، وقد ملأه التحدي، فغداً الجولة الأخيرة لمُهمته المقدسة، غداً يواجه فقهاء المسلمين والكهنة الطاوية[69] ليطرح كلٌ حجته أمام خان التتار وزوجته، حتى يعرف الخان أي دين أحقُ أن يُتَّبع.

في صباح اليوم التالي شعر وليم بيد غليظة تهزه ليقوم من فراشه، ونظر إلى الشخص الذي يهزه فوجده أحد حراس منكو خان، فاعتدل في سريره بغتة:

هل تأخرت عن ميعاد المناظرة؟ رد الحارس على وليم:

- لا، بل جئناك لتستعد في وقتٍ مبكر، فلا يصح أن يسبقكم الخان إلى المناظرة، فكلٌ يجب أن يكون في انتظاره.

هب وليم ربروك من فراشه وهو يرى مجموعة أخرى من الحرس تقف على باب غرفته، وسأل وهو يبدل ثيابه:

وهل أرسلت أحد لتنبيه المترجم الخاص بي أيها الفارس الطيب؟ رد الحارس باقتضاب:

- نعم، قد وزعنا أنفسنا ليكون الجميع في استعداد قبل وصول الخان وزوجته إلى خيمة المناظرة.

****

دخل وليم ربروك القاعة ليجد كثير من الفقهاء والشيوخ والُّكهان كلهم جلوس في انتظار الخان، أصحاب كل فرقة قد اتخذوا جانب من الجوانب، وعندما استقر وليم في مقعده المخصص، وجد مترجمه بجانبه وقد تهيأ في أحسن صوره، شعر وليم بالرهبة تغلب على الحماسة في صدره، فجميع ما بذله من جهود طوال تلك الشهور الماضية سوف يتم تمحيصه الآن، وأخذ يتخيل المجد الذي سوف يعود عليه إن هو استطاع أن يُحول خان التتار العظيم من الشمانية إلى المسيحية، وكم سينفع ذلك جميع الأمم الصليبية، فقد بات التتار الآن قوة هائلة لا يستهان بها، لكنه عاد وتوتر عندما جال بخاطره احتمالية أن يُسلم منكو خان أو أن يعتنق الطاوية، ففي هذه الحالة يكون قد فشل، ولن يغفر له التاريخ، إخفاقه في إقناع خان التتار بحجة وصدق الديانة المسيحية.

دخل منكو خان القاعة فوقف الجميع وانحنوا احتراماً حتى جلس منكو على عرشه وبجانبه زوجته، وكان كرسيه كبيراً عالياً مكسواً بالجلد، وعندما جلس أشار الحارس إلى جميع الحضور بالجلوس، وبمجرد جلوس الجميع قال أحد الحراس بصوتٍ جهوري:

- هذه أوامر منكو خان، على أن لا يجرؤ أحد أن يقول أنها تخالف تعاليم دينه، وأوامره... أن لا يسخر أو يهين أحدكم الآخر، وأن لا يقوم أحدكم بعمل ضوضاء، وأي مخالفة لتلك القواعد سيترتب عليها قطع رقبة المخالف.

بمجرد انتهاء الحارس من إعلانه... أشار منكو خان إلى وليم ربروك، فوقف الأخير وانحنى مُنتظراً أوامر الخان، فقال الأخير:

- فلتبدأ أنت أيها الراهب المسيحي.

بدأ وليم بمساعدة مُترجمه في عرض ما هو وارد في العهد القديم عن بداية الكون وخلق البشر وخطيئة آدم الأولى، وتطرق من بعد ذلك إلى أشهر قصص الأنبياء حتى أشار إليه منكو خان بالتوقف قائلاً:

- قد عرفنا ما تقول، فليقم أحد الشيوخ المسلمين بالرد على الراهب المسيحي فيما سمعنا.

تنحنح وليم ربروك بتأدب:

- أرى بعد إذن مولاي أن لا تكون مناظرتي مع المسلمين الآن، فهم يتفقون معنا في جميع ما قلته، لكن يختلف معنا اختلافاً جوهرياً إخواننا كهنة الطاوية فلتسمح لهم بالرد.

أشار منكو خان بيده بمعنى الموافقة، فقام أحد كهنة الطاوية استعداداً للمناظرة، وبدأ حديثه موجهاً إياه إلى وليم ربروك:

- أيها الراهب، كيف تريد أن تبدأ المناظرة، هل تريد أن تتحدث عن بداية الكون، أم أنك تريد التحدث عما يحدث للروح بعد الموت؟

- بل أريد أن تبدأ المناظرة عن ماهية الرب، فهو أصل كل الأشياء، وحول حقيقة الرب نختلف نحن وأنتم.

استحسن جميع الحضور ما يقوله وليم ربروك، فطفق يُكمل:

- نحن نؤمن بربٍ واحد في تكامل تام، وأنتم بماذا تؤمنون؟

- البلهاء فقط هم من يؤمنون بإله واحد، لكن الحكماء يؤمنون بتعدد الآلهة، ألا يوجد هناك سادة عظماء في بلادكم؟ ومنكو خان أليس هو سيد عظيم؟ فكل أولئك الملوك والأباطرة العظام آلهة في الأرض.

- قد اخترت مثل ضعيف، فلا يمكن مقارنة الرجل بالرب، فطبقاً لذلك يمكن لكل رجل قوي أن يدعي نفسه إلهاً في بلاده.

وقبل أن يقوم وليم ربروك باتخاذ خطوته الأخيرة لتدمير حجة الكاهن، فوجئ بالأخير يقاطعه قائلاً:

- ولكن ما طبيعة ربكم الذي تقولون أن ليس كمثله شئ.

- ربنا الذي ليس كمثله شئ كامل، فهو لا يحتاج مساعدة من الآخرين، في حين ما نطلب جميعاً مساعدته، والأمر ليس كذلك بالنسبة للبشر، فلا يوجد بشري يستطيع القيام بكل شئ، وإلهنا لا يحتاج لمستشارين، فكل الحكمة تأتي من لدنه، لذا فهو الخير المحض، وهو لا ينتظر خير منا، هذا هو ربنا ولايمكن تصوره على غير الشاكلة التي أقول بها.

- هذا غير صحيح، فمع وجود رب واحد في السماوات وهو الذي ليس فوقه شئ، يعمل تحت إمرته عشرة من الآلهة، وتحت أولئك العشرة

يعمل آخرون أقل قدرة... في الحقيقة يوجد على الأرض عدد لا نهائي من الآلهة.

قاطعه وليم ربروك قائلاً:

اليس ثمة ربكم الكمال؟ فلمَّ يحتاج إلى آخرين؟ راوغ الكاهن الطائي:

وإن كان ربكم مثل ما تقولون لماذا صنع الشر؟

- هذا غير صحيح فجميع ما صنع الله خير محض.

- لكن من أين يأتي الشر إن لم يكن من الله؟

- أنت تسأل السؤال الخطأ، فكان يجب عليك بداءة أن تسأل ما هو الشر؟ لكن يجب أن تجيب بداءة على سؤالي السابق حتى اجيبك عن سؤالك اللاحق، هل ثمة ربكم الكمال؟

لم يجب يجب الكاهن الطائي، وجلس مكانه في وجوم تام، وطال الوقت... فاضطر حُجاب الخان القائمين على إدارة المناظرة بأمره أن يرد، فقام مضطراً وقال:

- في الحقيقة لا يوجد إله قادر على كل شئ.

ضحك بعض الحضور بصوتٍ خافت، في حين ما أخذ البعض الآخر يهمهم بصوتٍ خفيض اعتراضاً على ما يقال، لكن نظرات الحُجّاب الصارمة أجبرتهم على ابتلاع الكلمات وكتم الضحكات، فأكمل ربروك:

- إذاً لا يمكن لأي من آلهتك أن ينقذك من الأخطار المُحدقة!، فضلاً عن أنه لا يستطيع رجل أن يخدم سيدين، فكيف لكم أن تستطيعوا خدمة كل تلك الآلهة في الأرض والسماء.

وبينما كان يستعد ربروك لشرح طبيعة الثالوث، أشار إليه المسيحيون النسطريون أن ما قاله فيه الكفاية، وبالنسبة للفقهاء المسلمين لم يُكثروا جدال وليم خاصة وأن الأخير لم يتعرض للثالوث، وهم يؤمنون برسالة عيسى.

انتهت المُناظرة وقد استمع منكو خان إلى جميع ما قيل فيها بإنصات تام لكنه، لم يبدي أي رأي فيما قيل، وشرع الجميع في الاحتفال على شرف الخان.

في اليوم التالي أرسل منكو خان إلى وليم ربروك، وعندما مَثَل بين يديه سأله:

- هل أنت مبعوث من ملككم لويس التاسع؟

- ما أنا إلا راهب فقير أيها الخان المُعظّم، فأنا مبعوث الكنيسة إلى عظمتكم وبقية الشعب التتاري حتى أبشر بالسيد المسيح.

- منكو: لكن ملككم أرسل رسلاً من قبلك، فقد أتى العديد من المبعوثين من دولتكم إلى أجول قاميش قبل سنوات عندما كانت تحاول الحكم باسم أبناؤها.

- وليم: لست واثقاً من ذلك أيها الخاقان العظيم، لكن حتى وإن تمَّ ما تقول، فقد أرسل ملكنا لويس التاسع المبعوثين إليها بوصفها مليكة على التتار.

قام منكو من مجلسه في غضبٍ:

- أجول قاميش كانت أحقر من الكلاب، وكانت تتوسل بالسحر الأسود للتخلص مني لصالح أبناؤها وقد تم إعدامها بالغرق كما تقضي شريعة الياسا.

خاف وليم ربروك من غضبة منكو خان وقد عهد في الجنس التتاري التقلب المزاجي الحاد بسبب الشرب فآثر السلامة:

- الأمر كما تقول أيها الخاقان العظيم، وقد لاقت جزاءاً وفاقاً عن جرائمها، فممارسة السحر جريمة شنعاء غير مغتفرة في جميع الشرائع والأديان.

هدأ منكو خان وجلس مرة أخرى على عرشه وهو يرمق وليم وقد أخذ صدره يعلو ويهبط من أثر الانفعال، ثم صاح:

- أيها الكاتب.

برز الكاتب سريعاً من خلف وليم ربروك وبيده أدوات الكتابة، فقال له منكو:

- أكتب ما يُملى عليك.

جلس الكاتب بغير استئذان على مقعده المخصص واستعد ليكتب ما يُملى عليه، فقال منكو:

- هذا خطاب منكو خان خاقان التتار وقاهر العالم إلى لويس التاسع، فلتعلم أيها الملك أنه كما في السماوات إله واحد ففي الأرض سيد واحد وهو جفيد جنكيز خان وابن تولوي خاقان التتار وقاهر العالم منكو خان المُعظَّم، وإن لم تعرف ذلك فهي الحرب، فتسمل أعينكم فلا تبصرون وتُقطَّع أيديكم وأرجلكم فلا تبطشون ولا تتحركون، ولتسبى نساءكم

فتنكح أمام جماجمكم التي سننثرُها على الأرض التي كنتم يوماً عليها تطأون.

بعد أن أملى منكو خان خطابه على كاتبه هدأت غضبته ونظر إلى وليم ربروك نظرة عطف:

- والآن زودوا ضيفنا بهدايا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة علَّ سيده يعرف مقام خاقان التتار وقاهر العالم.

كان وليم يعلم أن رفض هدايا الخان هي خطئية لا تغتفر، لذا شعر بحرج شديد من الأوامر التي أصدرها منكو خان فتنحنح قائلاً:

- سيدي الخان العظيم، قد بينت لجلالتكم أني لست برسول من الملك لويس التاسع، وما أنا إلا راهب فقير، لذلك فليس مباح لي أن أحمل الذهب والفضة والمجوهرات الثمينة.

قال أحد الحراس مُصدقاً على كلام وليم:

- بالفعل يا مولاي فهذا الراهب لم يحمل من بلاده عندما قابلناه عند باتو خان في المرة الأولى سوى بعض الشطائر المطهية بالزيت وبضع زجاجات الخمر والتي نفذت منه حتى قبل الوصول إلى مقامكم الكريم.

التقط وليم ما يقوله الحارس فأكمل:

- ولو كنت أملك حمل الذهب والفضة والمقتنيات الثمينة لكنت أتيت لجلالتكم بأجمل التحف من أرضنا أعبر بها عن احترامنا لمقام جلالتكم.

نظر منكو خان إلى وليم باحترام ثم تفكر قائلاً:

- إذن فلتأتوا له ببعض الحلات الحريرية الثمينة.

لم يستطع وليم أن يرفض هدية الخان هذه المرة، وقرر قبولها على أن يعطيها لأتباعه أثناء رحلة عودته إلى فرنسا، وقد يسملها أيضاً إلى مُترجمه الخاص فيحتفظ بها لنفسه أو يوزعها أو يبيعها، شكر وليم الخان وانصرف من بلاطه وبدأ في رحلة العودة إلى بلاده بعدما شعر أنه أدى مهمته التي أوكلته الكنيسة إياها على أكمل وجه.

****

أيبك ينتفض (اغتيال فارس الدين أقطاي)

مصر 652هـ

لم تستطع شجر الدر تحويل تفكيرها عمَّا آلت إليه الأموربعد مقتل توران شاه، وكيف استقر بها الحال على ما هي عليه الآن، كيف استطاع عز الدين أيبك أن يتحداها بهذا الشكل، وكيف خانها ذكاءها لتُسَلِّم المُلك إلى من ينازعها فيه، فما كانت تتوقع كل تلك الأفعال من جاشنكير زوجها الذي كان يتذوق قبله الطعام للتأكد من خلوه من السم.

ماذا لو تركها المستعصم خليفة بغداد تتولى أمر مصر!!... تالله لو كان رضى بها سلطانة للبلاد لكانت أذهلته بولائها وحسن زعامتها، لكنه تمسك أن يكون سلطان البلاد رجل، وهذا العز بن عبد السلام رفض الانصياع لأوامرها باستصدار فتوى تبيح قيامها على شئون البلاد، بل وقد ذهب الشيخ المأفون إلى أبعد من ذلك، فقد ألب العامة عليها وجعلهم يثورون عليها كسلطانة للبلاد.

فاضطرها ذلك كله إلى الزواج من رجل لين العريكة حتى تستطيع التنازل له عن المُلك وتدير هي شئون البلاد من خلفه[70]، وقد اختارت عز الدين أيبك ليكون زوجها وسلطان مصر القادم واشترطت عليه أن يُطلق زوجته ويهجر ولده "عليّ" وأن يدين لها بفروض الولاء والطاعة فوافق على جميع شروطها بغير قيدٍ أو شرط.

تنازلت شجر الدر لعز الدين أيبك عن العرش ولم تلبث في المُلك سوى ثمانين يوماً، وقد اختارته اختيار العقل، فلم يكن أكبر أمراء المماليك ولم يكن أكثرهم هيبة وحزماً، بل اختارته كونه لين العريكة بغير طموح فتوسمت قدرتها في السيطرة عليه، لكن أيبك أبى إلا أن يستأثر بالأمر ويحاول الحد من نفوذها وهي السلطانة التي جعلت منه ملكاً.

أما عز الدين أيبك نفسه فقد ضاق زرعاً بتدخل شجر الدر في أمور الحكم، واستعلاءها الدائم عليه وشروطها التي أملتها عليه ليتزوجها، لكنه الآن السلطان الحقيقي لمصر وقد خاض حروباً مع الأيوبين الذين يرونه مغتصباً للمُلك... قاتلاً لآخر ملوكهم في مصر[71]، وقد استطاع بجهوده اخماد ثورات الأعراب في جنوب مصر والذين كانوا يأنفون أن يحكمهم مملوك، أليس ذلك كله شفيعاً أن يجعله ملك حقيقي على عرش مصر، أما شجر الدر فماذا فعلت

هي لتستحق الحكم وليكون لها الأمر، فقد أعطته هي الفرصة وقد أحسن استغلالها.

وليس الآن وقت تلك المتاعب التي تثيرها شجر الدر ضده فالسهام تنهال عليه من جميع النواحي، فهذا صاحبه فارس الدين أقطاي يحاول أن ينافسه في الأمر، ويرى في نفسه ردفاً له، وقد بلغت الجرأة بأقطاي أنه كان يُناديه باسمه مجرداً من أي ألقاب، وكان لا يناديه باسمه صداقة... بل احتقاراً.

دخل فوّاز على عز الدين أيبك من بعد ما اذن له بالدخول، فحياه باحترام فقال له أيبك بوجه يعلوه التوتر والغضب:

- هات ما عندك.

- قد أرسلني مملوكك سيف الدين قطز إلى جلالتك حتى أخبرك بشأن فارس الدين أقطاي.

قال أيبك وقد ازداد وجهه احتقاناً:

- وماذا عنه؟

- يُبلغك مملوكك قطز أن أمر أقطاي قد تعاظم في الإسكندرية وأن شعبيته لاتزال في زيادة بين رجاله من المماليك البحرية، وأنه اتخذ لنفسه شارة وعلماً يرمز إليه، ومملوكه بيبرس قد تعاظم أمره وساعده على التصرف في بعض أموال بيت مال المسلمين بغير إذن جلالتكم.

كان الغضب بادياً على ملامح أيبك وهو يستمعُ إلى فوّاز، وأخذ يدق بيده على ركبته دقات متتالية، وعندما وصل فوّاز بالخبر أن أقطاي يتصرف في أموال المسلمين بغير إذنه هب واقفاً وأخذ يزرع البلاط ذهاباً وإياباً، فسكت فوّاز خوفاً من استثارة غضبه لأبعد من ذلك، لكن أيبك أمر فوّاز أن يُكمل:

- يبلغ مملوكك قطز جلالتكم أن أقطاي استطاع استمالة المماليك البحرية إلى حدٍ بعيد، وأنهم سوف يطيعونه في أي خطبٍ يأمرهم به.

خفض فوّاز صوته بعض الشئ وهو يقول:

- وهو الآن يعتزم الزواج من ابنة الملك المظفر صاحب حماة حتى يُجمّل صورته، ويصبح هو زوج لأميرة حقيقية، في حين ما تكون جلالتكم زوج لمملوكة.

اختلطت مشاعر الغضب والخوف والحيرة في نفس أيبك، ولم يشأ أن يطلع غيره عمَّا يجول بنفسه، فأشار إلى فوّاز بالانصراف، فاستدار الأخير مُدبراً ليغادر البلاط السلطاني، لكنه فوجئ بصوت أيبك الهادر يصيح:

- انتظر.

تجمد فوّاز مكانه في انتظار ما سيقوله أيبك الذي صاح:

- لتصل إلى قطز في أسرع وقت ولتخبره أني أريده هنا مع أفضل رجاله على أن يترك الأمر في الإسكندرية لغيره، وليمضي إلى ما آمره بغير إبطاء.

اومأ فوّاز إلى أيبك علامة الفهم والطاعة ثم انصرف مسرعاً، ليترك أيبك غارقاً في أفكاره.

شعر أيبك بنفاد الصبر، فالجميع يحقرون من شأنه ويستصغرون موضعه، وذلك مع أنه سلطان مصر وملكها، فشجر الدر تأبى إلا أن تتدخل في شئون الحكم وتفرض عليه رقابة لصيقة وتمنعه من زوجته السابقة، وأقطاي يريد منافسته في أمره ويحقر من شأنه ويريد أن يستقل بنفسه وقد تجرأ على بيت مال المسلمين واتخذ لنفسه شارة وعلماً، وعين حرساً على خيمته الخاصة ويُجمِّل صورته أمام الرعية، بل ويريد الزواج من أميرة حتى يتفوق عليه في المقام، لا بديل عن قتل ذلك الخائن، ولن يشفع له أن ساعده في مقاومة الأعراب ومواجهة الأيوبيين، طالما اجترأ على مقامه فليلقى جزاءه، فلينتظر مملوكه قطز الذي يثق في إخلاصه حتى يستطيع تنفيذ تلك المهمة الدقيقة فيخلو له الأمر الآن وللأبد.

قد بلغ السيل الزُبى...

****

رجع قطز صحبته صفوة رجاله إلى قصر القلعة ليقابل مولاه عز الدين أيبك ليقف على ما يريد، وإن كان يتوقع أن يأمره مولاه بقتل أقطاي، فهذا هو الحل المنطقي الوحيد للخروج من تلك الأزمة السياسية التي تسبب فيها أقطاي نفسه، وبالفعل صدق حدس قطز وصدرت له الأوامر بالتجهز لاغتيال أقطاي... واختيار أفضل الرجال لتنفيذ تلك المهمة.

****

جلس قطز مع فوّاز يحاول إقناعه بالاشتراك في عملية الاغتيال التي هُم مقبلون عليها:

- لا تخف يا فوّاز، فستكون معيتي، ولسوف نستدعي أقطاي إلى القلعة وندخله وحده فيُقتل، لن تكون حرباً.

- الأمر غير متعلق بالخوف، أنا فقط لا أوافقك على قتل أقطاي، فما الذنب الذي جناه ليستحق القتل، هو فقط أراد الزواج، فهل تلك جريمة تستحق القتل.

- الأمر أكبر من ذلك، فأقطاي يريد منافسة أيبك في الحكم، لذا وجب قتله حتى لا تقع فتنة يسيل فيها الكثير من الدماء.

- ألم يُشارك أقطاي في وأد الفتن ومقاومة الثورات، أيكون جزاءه الآن القتل، هو مسلم... دمائه حرام إلا ان ارتكب جناية تستوجب العقوبة.

- لازلت غراً يا فوّاز، ليست جميع الأمور تقاس كما تقول، فهناك أمور أخرى تحتمها الضرورة، ونحن إن لم نتخلص من أقطاي الآن فسوف نتخلص منه لاحقاً لكن في المرة القادمة سوف تسيل دماء كثيرة وستهدر أرواح لا حصر لها... من جانبنا وجانبهم، وسنكون نحن المسئولين عن جميع تلك الدماء، فهل من الأفضل قتل الفرد من أجل الجماعة، أم قتل كل أولئك الخلائق من أجل مُثُل بالية؟! الغاية تبرر الوسيلة يا صديقي.

- حتى وإن سلمت بمنطقية ما تقول، فمبادئي لا تسمح لي أن أكون شريكاً في تلك الجريمة.

- لا بأس يا فوّاز لا بأس، فقط أردتك أن تشاركني في عملٍ يقربك من سلطان مصر فيكون لك شأن من بعدها.

- أنا قانع بمكانتي تلك، ولست طامحاً في مزيد من السلطة.

- كما تشاء، سوف أتركك الآن، ففي غضون ساعات سيصل أقطاي إلى قلعة الجبل ويجب أن نكون على اهبة الاستعداد الآن.

انصرف قطز ليترك فوّاز غارقاً في أفكاره، فقد شعر فوّاز أنه في بحر مُطلاطم الأمواج لا يستطيع أن يرسى على جزيرة تأويه من التخبط، فما ترك بيت أبيه التاجر الغني ليكون جزءاً من تلك الفتن التي يتم حياكتها في مصر بين حكامها، فأولئك لا يحاربون أعداؤهم ولا يزودون عن دينهم، وإنما يحاربون بعضهم بعضاً سياسة... وطلباً للحكم والسلطة، والعجبُ أن قُطز كاد يقنعه أن اغتيال أقطاي أمر فيه الخير للمسلمين... لولا تمسكه بمبادئه ودينه حتى الرمق الأخير.

فقد أتى إلى مصر ليجاهد الصليبيين ويزود عن بيت المقدس، أو يقاتل التتار فيكفي شرهم عن الأمم الإسلامية جمعاء، لكنه الآن لا يجد فئة مؤمنة يتحيز لها في قتال، فالجميع يتقاتل في سبيل التاج.

شعر فوّاز بالشوق الشديد إلى أمه ميسون وإلى أباه سالم في بغداد، وإلى صوت أخاه بُرهان المُتعقل، وأخذ يفكر فيما عساهم عليه الآن، وهل يا ترى ألفوا غيابه؟، عسى أن يكونوا مُطمئنين، فهو لا يريدهم في كربٍ بسبب هجرته إلى مصر، أخذ الحنين يستبد بفوّاز أكثر فأكثر وهو يسترجع حديث أخيه في لقاءهم الأخير، وكيف كان يراجعه أن لا جدوى من انضمامه إلى احدى الجيوش الإسلامية، وهو الآن يرى رأي العين صدق ما قاله له أخاه، فكل القادة والزعماء والخلفاء والسلاطين مُدَّعين، كلهم يتحاربون مع بعضهم البعض من أجل السلطة والمال، أما كان أفضل له أن يمكث في بغداد بجانب أسرته ويسعى لرفعة مجتمعة ودينه عن طريق العلم وإسداء النصح وإصلاح ذات البين، لكنه لم يطق المكوث في بغداد بعد فراقه عن سلمى وزواجها من غيره، فهذه حقيقة آن له الاعتراف بها، فكر فوّاز أن عليه التراجع الآن ويجب عليه أن يفكر في الرجوع إلى بغداد.

لكن لا ضير إن مكث قليلاً هنا عسى الأمور أن تستقر من بعد التخلص من أقطاي، فتكون جميع الجهود موجهة صوب العدو بدلاً من تشتتها في التصارع بين الإخوة.

دخل أقطاي قلعة الجبل صحبة إثنين من حراسه، فيما انتظر بقية المماليك البحرية في الخارج في انتظار سيدهم، وللحق فهو لم يتوقع خيانة من أيبك، فمشى صحبته في ثقة داخل دهاليز القصر غير عالم أن مماليك أيبك ... قطز وبهادل وسنجر كانوا في انتظاره مختفين في المنعطف المظلم القادم شاهري سيوفهم متجهزين ليحصدوا روحه.

بمجرد مرور أيبك وحارسيه بجانب المنعطف المُختفي وراءه قطز وأصحابه... انسحب أيبك من جانبه وتركه عارياً هو رجاله ليفتك بهم قطز، اشتبك سنجر وبهادل مع حارسي أقطاي في حين ما عاجل قطز أقطاي بضربة سيف في كتفه أذهلته ووأدت مقاومته من البداية، وعندما أراد أقطاي امتشاق حسامه، هوى قطز على رأسه ورقبته بثلاثة ضربات متتالية بسيفه ليوقعه على الأرض مُجندلاً، استدار قطز ليساعد رجُليه في معركتهما الصغيرة، لكنه وجدهما قد أنهوها بنجاح.

في الأسفل استبطأ رجال أقطاي خروجه من القلعة، فساروا يقرعون أبوابها بشدة وقد امتشقوا حِسامهم واستعدوا للقتال، هنالك هتف أيبك في رجاله أن يتأهبوا لملاقاة مماليك أقطاي لكن قطز أوقفه...

- ليس هذا بالرأي يا مولاي.

قالها قطز بانفعال، فتوقف أيبك عن الصراخ في رجاله منتظراً المزيد من التوضيح قال قطز:

- لأن نازلناهم وقتلناهم لاتسعت دائرة الثأر ولامتد القتال بيننا إلى سنوات يعلم الله عددها.

سكت أيبك عاجزاً عن إعطاء أي أوامر لرجاله الذين جهزهم لمثل هذا اللقاء... في الحين الذي انهمك فيه قطز في قطع رقبة أقطاي، فهوى عليها بضربتين انفصلت على أثرهما الرأس من جسده، فأمسك الأخير بها وتحرك جهة النافذه ينظر منها إلى الجموع الغاضبة للمماليك البحرية التي بدت صغيرة من أعلى، ليطوح زراعه الممسكه برأس أقطاي لتطير الرأس في الهواء وتستقر وسطهم.

ابتعد المماليك عن موضع رأس قائدهم التي هوت بينهم، كأنهم يبتعدون عن وباء قاتل واستداروا حولها ينظرون إليها بعدم تصديق، أخذ قلاوون وبيبرس يَشقون صفوف أصحابهم لينظروا إلى رأس أقطاي المُلقاة، فوصلوا إليها ليُفاجئوا بالدائرة التي رسمها أصحابهم حول الرأس تتسع في سرعة، فنظر بيبرس لأعلى ليجد قطز يقذف بجسد أقطاي من أعلى، فتراجع بيبرس وقلاوون حتى استقر الجسد على الأرض على مسافة من الرأس وقد تفتت عظامه.

سكنت حركة الجمع في الأسفل ينتظرون ما سيقضي به بيبرس وقلاوون، فلما انسحب الإثنان من وسط الدائرة أفسح لهم الجميع طريقاً وسط الرجال وأخذوا ينسحبون الفوج تلو الآخر من أمام باب القلعة[72].

****

مرت أيام يكسوها القلق عقب مقتل أقطاي، فقد كانت المماليك المعزية تتوقع هجمة من المماليك البحرية انتقاماً لسيدهم أقطاي، لكن لم يحدث شي، ومرت الأيام هادئة واطمأنا أيبك وقطز أن شيئاً لن يحدث.

جلس أيبك مع قطز يتحدثان فقال الأخير:

- أكدت لك أنهم لن يجرأوا أن يتعدوا على مقامك، وقد مرت الأيام لتثبت لك صدق قولي.

بدا قطز أكثر تفاؤلاً من أيبك الذي كان بادي القلق فسكت ولم يرد، تمعن الأخير في ملامح سيده:

- مالي أراك مهموماً وقد تخلصنا من عدوك اللدود وقد انفردت الآن بحكم البلاد بغير مُنغص.

- أيبك: لا أخفيك سراَ لازالت شجر الدر تحاول التحكم في شئون البلاد وتعاملني مُعاملة ذرية وكأنها أحسنت إلي يوم تزوجتني، وأشعر أن الرعية ينظرون إلي أني زوج السلطانة، ولا ينظرون إلي أني سلطان حقيقي.

أطرق قطز مفكراً ثم قال:

- قد عاملت زوجتك عن كثب وأعلم كم السلف الذي تتسم به، ولابد لك يا مولاي أن تكسر كبريائها حتى تكون لك أطوع.

- وكيف ذلك؟

- هي امرأة كسائر النساء، يكسر كبريائها ما يكسر كبرياء مثلها، فلتتزوج يا مولاي.

اتسعت عينا أيبك في دهشة وكرر ما قاله صاحبه:

- أتزوج!.

- نعم يا مولاي، وما الخطأ في ذلك، فلسوف تتزوج على سنة الله ورسوله ويمكنك كذا أن تراجع زوجتك أم نور الدين إن شئت، فليس من حق شجر الدر أن تشترط عليك عدم مراجعتها.

قالها قطز وهو مُثبت عينية في عيني أيبك يتابع قسمات وجهه. كان أيبك ذاهلاً في خوف وقلق وقد لاحظ قطز خوفه لكنه لم يواجهه بما عرفه منه بل أخذ يشجعه على ذلك، ومازال يسهل له الأمر ويزيل له العقبات حتى أقنعه في النهاية.

****

تهدم البيت من الداخل

بغداد 652هـ

دخلت عائشة على أبيها في جناحه الخاص، فوجدته مُنتشياً سعيداً، فكان يترنم بكلماتٍ من تلك الأغاني التي القتها على مسامعه جاريته "عرفة" ، فلم يكن يسعد الخليفة شئ قدر استماعه إلى جاريته عرفه وملاعبتة للحمام، ولحسن حظ عائشة أن عرفة كانت خرجت تواً من جناح أباها من بعد ما اطربته، بش الخليفة لدخول ابنته عليه فقال مرحباً:

- أهلاً أهلاً بالأميرة الصغيرة، افتقدتك يا عائشة أنتي واخوتك ونحن نعيش معاً في نفس القصر.

- ما أردت أن أثقل عليك وأنا أعلم انشغالك بإدارة شئون الحكم.

- لا تكوني سخيفة يا عائشة، فأنتي تعلمين أنك واخوتك مرحب بكم طوال الوقت، بالمناسبة أين خديجة وفاطمة.

- سوف أرسل إليهما الآن ليأتينك في الحين.

- افتقدهن كثيراً، خاصة تلك الصغيرة خديجة، فأنا لا أراها إلا معية أمك ليلى.

- قبل أن تأتينك بناتك، هل يمكن أن تسمح لي أن أفاتحك في أمر.

- فاتحيني فيما شئتي.

ظهر على وجه عائشة علامات التردد وزاغت عينها، لكنها حسمت أمرها وقالت:

- أصبحت فتنة الكرخ والكاظمية حديث الساعة، فما حدث في الشهور المنصرمة لم يحدث في بغداد منذ أمد بعيد، فقد خُربت الكثير من البيوت وشُرِّد الكثير من الناس، ودخل القتل في كل بيت من بيوت المدينة الصغيرة.

- ألذلك جئتي يا عائشة، قد ظننتك أتيت لزيارة أباك الذي تحبينه.

- الأمر كذلك يا أبي لكني قلقة على مستقبل بغداد وعلى رصيدنا عند الرعية، فصورة الخليفة باتت باهتة مهتزة عند جموعهم.

المستعصم في غضب:

- لا شئ يستطيع أن ينال من سمعة الخليفة ولا رصيده لدى رعيته، من الخائن الذي ألقى في روعك هذا الحديث، فما أدراك أنت بالفتن وأمور السياسة؟

- الفاجعة في الكرخ أكبر من أن تُخفى، والجميع داخل القصر وخارجه يتحدثون عنها.

- كفاكي يا عائشة، لا أريد التحدث بالأمر، فكفاني تدخل أخاك أحمد الذي أوغل صدور الرعية علينا بسلوكه المستهتر وتصرفاته الحمقاء.

أرادت ابنته أن تقول الكثير عندما حضرت سيرة أخاها أبا العباس، فقد كانت تعلمه عابثاً مندفعاً شريراً دنئ النفس، هي فقط تخاف أن تُجاهر بذلك أمام أباها فيتهمها أنها متحاملة عليه كونه أخاها من الأب، فقد كان هو وعبد الرحمن أبناء المُستعصم من عاتكة، وهي اخواتها واخاها مبارك أبناء ليلى "عصمة الدين والدنيا"، لكن الحقيقة غير ذلك... فأبو العباس بالفعل سيئ ودنئ، وهو السبب في الكثير من الفتن والمصائب التي أصابت بغداد، سكتت عائشة كونها تعلم أن أباها في قرارة نفسه يعلم حقيقة أخاها، ويعلم فعاله وعبثه فلا حاجة لها للخوض في شأنه.

- أتحدث فقط من منطلق حبي لك وخوفي على بغداد، فالناس تتقاتل بعضهم البعض بلا جدوى، ونحن نقف هنا مكتوفي الأيدي.

- كفى يا صغيرتي، فانتي تحمليننني ما لا أطيق، كم من أعوام مرت وأنا أحاول أن أخفف من حدة الصدام بين الجميع، لكن العلقمي والدويدار الصغير يأبيان إلا أن يجعلا الكرخ ميدان لمعاركهما.

- فلتتحرى الأمر ولتعرف من السبب فيما حدث وليُحاسب بشرع الله.

هوى المستعصم بجسده الضخم فوق الأريكة القابعة أمام فراشه وقال:

- وكيف أتحري يا بنيتي، هل أنزل بنفسي إلى الكرخ حتى أعلم ما يدور فيها؟، وإن سألت الدويدار فسوف يلقي كل اللوم على العلقمي والعكس صحيح، وهما الإثنان زراعي اللتان أسيطر بهما على الأمور ولا أقوى على قطع أحدهما لحساب الآخر.

- ولمَّ يا أبي، فليُحاسب المخطئ أياً من كان وليتوقف جرح بغداد عن النزف.

- الحديث سهل يا بنيتي، لكن الدويدار الصغير تحت يده الجيش، وأغلب أسرار الدولة ومقاليد أمور الحكم في يد العلقمي.

كان المستعصم يعاني من سنوات الأهمال التي ترك فيها جميع شئون الدولة في يد غيره، رغبة منه في التمتع بسماع المطربات وملاعبة الحمام، فأصبح غير قادر على اتخاذ قرار ولا يعلم الكيفية التي تُدار بها شئون البلاد.

قالت عائشة ناظرة إلى أباها في عطف:

- فقط وددت أن احذرك، ولتبدأ الآن في متابعة شئون رعيتك، علك في يوم من الأيام تكون قادراً على الاستغناء عن أي شخص يَثبت جرمه.

قال المستعصم مبتهجاً وهو مقبل على ابنته:

- وهو كذلك يا بنيتي، والآن دعينا من حديث السياسة المُقبض ودعيني أريكي فرخ الحمام، فما أروح على النفس من مشاهدة هذا الكائن الوديع ومراقبته.

ذهلت عائشة من قدرة أباها على نسيان الهموم، والانخراط فيما يسعده، أحسته لحظتها طفل كبير، فلم تشأ هي أن تعكر هذه الفرحة الطفولية وأن تكلف نفسه ما لا تطيق، فجارته في ملاعبته للحمام.

وللعجب فقد نسيت هي الأخرى هموم بغداد واستطاع أباها أن يسحبها إلى عالمه السحري المبهج!

****

جلس العلقمي مع رجل من أعيان الكرخ يندبون حالهما وما أصاب قومهما من حرق ونهب وتقتيل من رجال أبا العباس والدويدار الصغير، كان العلقمي أحمر الوجه بادي الأنفعال لكنه كان صامتاً يحرك يده على ركبته في دقات رتيبة، فبادره جليسه:

- ما بك يا علقمي، أعيتك الحيل أن تحمي قومك، بئس الوزارة تلك التي تعجزك عن حماية المُستضعفين من قومك، هل تستطيع أن تذكر لي شئ واحد فعلته لإيقاف هذا عدوان النواصب[73] الغاشم.

- وما أفعل يا رجل ومصدر العدوان هُما أبا العباس ابن الخليفة والدويدار الصغير قائد جيوشه.

- فلتوضح للخليفة الأمر...

- العلقمي: وهل تظن الخليفة بغافلٍ عن أولئك الشياطين، قد أوضحت له الأمر لكنه غير قادر على مواجهتهما، فأحدهما ابنه والآخر قائد جيوشه.

- وما العمل الآن؟ هل نبرز لرجالهم حتى يحصدوا رؤوسنا ونترك لهم نساؤنا وأموالنا؟

- في رأسي تدبير، إن تم فسوف تبزغ شمسنا في غضون أعوام.

- وما التدبير الذي تفكر فيه؟

- هو أمر إن تم اكتشافه فسوف تهلك بسببه الكثير من الأنفس، فلتبقى بعيداً عنه أفضل لك.

- لا تخف فسوف أكون نعم العون لك، وبالتأكيد سوف تحتاج إلى من يدعمك في ذلك.

فكر العلقمي لوهلة في وعود جليسه ثم عزم أن يخبره عسى أن يساعده فيما يريد، خفض العلقمي من صوته واقترب من الرجل وقال:

- إعلم انه إن علم أمرنا فنحن هالكون لا محاله، فلتبقي السر في صدرك فلا تعرفه عنك زوجة ولا ولد.

أحس الرجل بأهمية ما سيقال فأشار للعلقمي برأسه علامة على الفهم وسكت ... فقال العلقمي:

- أنت تعلم أن لجند التتار أطماع قديمة في بغداد، وهم قادمون جهتنا لا ريب، فلنسهل من مهتهم على أن نتولى نحن أمر البلاد لقاء مساعدتنا إياهم.

فتح الرجل عينيه في ذهول تام وهو يستمع إلى ما يقوله العلقمي.

- هل تعلم حقيقة ما تقول يا رجل؟!

قالها الرجل بانفعال، فوضع العلقمي كفه على فم الرجل ليشير عليه بالصمت وأن يخفض صوته، فأعاد الرجل ما يقوله بصوتٍ خفيض والانفعال لازال بادياً على نبرات وجهه ثم قال:

- وهل ترى لنا حل غير ذلك.

قالها العلقمي مديراً وجهه عن أعين الرجل المُتهِمة، سكت الرجل عاجزاً أن يقترح أي حل آخر.

- وكيف ستبدأ المراسلات بينك وبين التتار.

- لسوف أرسل رسولاً إلى منكو خان إمبراطور التتار أرغبه في الأمر وأشجعه عليه وأؤكد له أننا سوف نكون أعينه في بغداد وسوف نُيسر له كل عسير.

- الرجل في خوف: ومن أين ستأتي بمثل هذا الرسول، وكيف ستضمن أن لا يفشي سرنا، وهل سيقبل هو الخوض في هذه المغامرة، فحتى وإن نجا وخرج برسالتنا من بغداد، فكيف سيأمن على نفسه وهو بين أيدي أولئك القوم البرابره؟!

- لسوف نختار رجلاً من الذين عظمت مصيبتهم في الأحداث الأخيرة وصَدَق عزمهم على الانتقام، فلا يشوب إخلاصه شائبة.

اقتنع الرجل لترتيبات العلقمي فقال:

- وأنا رهن إشارتك، وأنا أيضاً لن يشوب إخلاصي لقضيتنا شائبة.

****

الإعصار يبدأ من جديد

قراقورم 654هـ

لم ينس منكو خان فضل باتو والقبيلة الذهبية عليه، فباتو هو من نصره يوم عز النصير، وهو من أيده في مجلس القوريلتاي، فكان من الممكن أن يطالب بالملك لنفسه وكان الكثير سوف يدعمونه، فهو البطل الصنديد الذي فتح أوروبا وهو أمير القبائل الذهبية وتحت إمرته عدد لا حصر له من الرجال.

وقد كان منكو خان راغباً في توجيه فتوحاته جهة الشرق، لكنه أحجم عن ذلك لانه لمس كراهة الأمر في نفس باتو. ولم يكن يعلم منكو خان أن من كان يقنع باتو بالابتعاد عن الشرق، هو أخاه بركة خان الذي اعتنق الإسلام منذ ثمانية سنوات مضت، واليوم وقد مات باتو خان أمير القبيلة الذهبية، لم يجد منكو خان في نفسه غضاضة من التوجه إلى الشرق، فخليفة باتو كان ابنه سارتوق وكان مسيحياً نسطورياً، وكان يفضل التوجه للشرق عن محاربة أبناء ملته من الغربيين.

الوحيد الذي كان يقف ضد الغزو المغولي للشرق هو بركة خان، لكنه لم يكن في موضع يسمح له بمجابهة منكو خان وأخيه هولاكو، ولم يشفع لبركة ما كان منذ سنوات، عندما أرسله باتو ليكون حارساً لمنكو وداعماً له في القوريلتاي، فكان بركة بمثابة كلمة أخيه باتو وسيفه في مجلس القوريلتاي الذي توِّج فيه منكو خاقاناً، كل ذلك ما شفع لبركة خان ومُسلمي الشرق، فكان قرار منكو خان بغزو الشرق نهائياً لا رجعة فيه، استدعى منكو خان أخاه هولاكو ليتناقش معه في شأن التوجهات الحربية في الفترة القادمة...

- مرحباً هولاكو فلتجلس، أريدك في أمر هام.

هولاكو وهو يجلس مباعداً بين قدميه في ثقه:

- طوع أمرك أيها الخاقان الأعظم.

- ما رأيك أن نتوجه بيجوشنا نحو الشرق، وقد زال المانع الذي كان يحول بيننا وبينه بموت باتو.

- أوافقك بشده، خاصة وأن سرتوق ابنه مسيحي النزعه يأنف أن يقاتل أبناء دينه، ولسوف يتعاون معنا في غزونا للشرق.

- لا أجد وقت أفضل من هذا للاستيلاء على كنوز الشرق والتعرف على سحرها.

- ونعمَّ الرأي يا مولاي، فأنا أتوق إلى تحقيق نصر عظيم، وأعدك أن أحقق في الشرق نصراً عظيماً يتحدث عنه العالمين من بعدي.

- فلتكن رفيقاً يا هولاكو مع أولئك، الذين يستسلمون لك طواعية، أما من يقاومونك فواجههم بكلِ شده.

- سمعاً وطاعة أيها الملك العظيم والأخ العزيز، لكن لي طلب.

- كلي آذان صاغية.

- أريد جيشاً عرمرم... أعداد هائلة من المقاتلين، ويجب أن تدعمني بأصحاب الحيل[74] حتى يكونوا لي عوناً في إصلاح الآلات الحربيبة العملاقة.

- لك ما تريد.

- ولنرسل إلى أخانا قبلاي في الصين ونسأله أن يدعمنا بمعلوماتٍ عن البارود الأسود الذي يستخدمه الصينيون وعن آخر تقنياتهم الحربية التي يستخدمونها في حروبهم.

- كل الإمكانيات لك يا هولاكو من أجل تحقيق تلك الغاية وفتح الشرق، فلم تبقى أصقاع مُستعصية علينا غير الأصقاع الشرقية.

- بمشيئة التنجيري لسوف أصنع لك نصراً تتحدث عنه الأجيال لقرون قادمة.

- أثق فيما تقول، لكن أريدك أن تولي اهتماماً زائداً لقلعة آلموت، فيجب أن نقضي على الحشاشين أحفاد الملعون حسن الصباح، فهم يُمثلون تهديداً حقيقياً لنا.

- منذ أن جاءتنا المعلومات بعزم ركن الدين شاه سيد القلعة على اغتيالك قد شددنا الحراسة عليك.

- وكيف يُشعرنا أولئك الحقراء الملاعين بالخوف ونحن أسياد العالم، فلتسحقهم ولتحرق قلعتهم بلا رحمة.

- لك ما تريد، فيجب تدمير هذه القلعة على أية حال، فلا يمكنني أن آمن لهم وهُم خلفي وأنا أواجه المستعصم في بغداد.

- عليك بالحظر، فقلعتهم منيعة وقد فشل جدنا مرة في السابق أن يقتحمها، وكانت تلك القلعة دوماً عصية على سلاطين المسلمين، فرغم رغبة المستعصم والسلاجقة وغيرهم في تدمير القلعة، لكنهم كانوا

يفشلون في كل مرة، تلك القلعة اللعينة هي أشبه بحجر الأفاعي الذي تنساب منه الحيات لتلدغ ضحاياها.

- لا تقلق فلسوف أتسلح بالصبر ولسوف أحاصرهم حتى لا يكون لهم عن الإستسلام بديلاً.

في الأيام التالية كان هولاكو يحاول تطوير جيشه أفضل ما يكون، فقد كان يريد أن يحقق مجداً حربياً هائلاً، وكان يعلم أن ذلك لن يتحقق إلا بالإعداد الجيد، وكان يؤمن بأهمية المعلومة لذا أرسل رجاله حتى ينخرطوا ببغداد فيخبروه عن أسوارها وجيشها ومؤنها واستعدادتها، وقرر هولاكو أن يصحبه في هذا الفتح العظيم أفضل رجاله، فاختار كتبغا ليعاضده في تلك الفتوحات.

أرسل هولاكو إلى كتبغا ليخبره بأنه تم اختياره ليكون معه في فتح بغداد، وقد كان كتبغا مقاتلاً تتارياً مسيحياً شديد المراس، وكان هولاكو يعلم بأسه في القتال، لذا اختاره ليساعده في مهمته الكبرى، وعندما حضر كتبغا إلى خيمة هولاكو وأعلمه الأخير بخطته ... رد كتبغا مُجادلاً:

- لكنك تعلم مناعة قلعة آلموت فلها مطلع واحد شديد الانحدار، ولم يستطع أحد من قبل اقتحام تلك القلعة، بمن في ذلك جدك جنكيز خان العظيم، وبغداد أيضاً قد اشتهرت بمناعة أسوارها وقوة تحصيناتها، فلن تكون مهمتنا سهلة البتة.

- ما اخترتك يا كتبغا لتفتت من عضدي، إنما لتكون بجانبي وتساعدني على إنجاز ما أريد.

قام كتبغا من مجلسه وقال بعزمٍ شديد:

- بل أنا معك، ولسوف أفنى من أجل تحقيق الأمل المُنتظر بفتح بلاد الشرق.

نظر هولاكو إلى كتبغا برضا وفخر، لكنه أراد الاستوثاق من شدة عزم صاحبه:

- إذاً لمَّ تفكر في مناعة الأسوار وقوة التحصينات وتغفل قوة جيشنا الهائلة وتشكك من قدراتنا؟!.

- ليس الأمر كذلك، لكني أردت أن أبصرك بقدرات عدونا الحقيقية حتى نكون على أتم استعداد لمواجهتهم بنجاح.

- سوف يعتمد الأمر على الصبر والحصار، فأنا أعلم مناعة التحصينات الخاصة بقلعة آلموت وبغداد، لذا سنحتاج إلى أعداد غفيرة من الرجال حتى ينجح الحصار فيحيط بالقلعة من كل جانب.

- وهل وعدك المُعظم منكو بتوفير العدة التي نحتاجها من الرجال.

هز هولاكو رأسه بالإيجاب:

- نعم فقد أصدر منكو خان قراراً... أن واحداً من كل عشرة أشخاص سوف يتم تجنيده ليكون بين جيشنا وقد أرسلت إلى أصحاب الحيل حتى يكونوا عوناً لنا في إصلاح الآلات الحربية وتصنيع المزيد منها في ميدان المعركة.

- يبقى لنا أن نوفر أعداد ضخمة من المجانيق، ورماة الأسهم وآلات الرمي، فسوف نحتاجها بعد إحكام الحصار حتى نوجه قذائفنا إلى الداخل لكي نوهِن من نفوس أعداءنا.

- لذا اخترتك، فقد فكرت نفس التفكير وقد أمرت بتوفير وتصنيع عدد كبير من آلات الرمي التي يتم جرها على العجلات والمُثبَّت عليها أسهم ضخمة، وقد أرسلت العديد من رجالنا إلى أخي قبلاي في الصين للاضطلاع على أخر الحيل الحربية التي توصلوا إليها حتى يتثنى لنا استخدامها.

- سهامنا حديثة ومتطورة ولا يستطيع أعداؤنا استخدامها بعد أن ترشق في أجسامهم.

الحقيقة أن كتبغا قد أصاب كبد الحقيقة عندما امتدح المقاذيف والأسهم التتارية، فقد كانت الأسهم أرفع وأقصر من أسهم الجيوش الأخرى حتى لا يستطيع غيرهم استخدامها من بعد رميها عليهم، وكانت الأسهم في الجيش التتاري على ثلاثة أنواع... قصيرة ومتوسطة وبعيدة المدى، وكان لا يسمح للرماة باستخدام الأسهم طويلة المدى إلا من بعد استهلاك غيرها من الانواع، اللهم إن دعت الضرورة إلى ذلك، وكان القوس المُستخدم للرمي مختلفاً عن ذاك المستخدم بواسطة غيرهم من الجيوش، فقد كان وتر القوس أطوع وكان الطرفين المُمسكان به مصنعان من قرون الكباش لتحقيق البعد في المرمى والدقة في الإصابة، وكان من المعروف أن الرمي بهذا القوس يتطلب قوة زائدة في ساعد الرامي.

أما تلك الأسهم الضخمة المحمولة على عربات فدوماً ما كانت تحدث خسائر بالغة في جيوش الأعداء، فقد رأى كتبغا بعينيه كيف يخترق السهم الضخم أكثر من مقاتل في صفوف العدو دفعة واحدة، وكيف تخترق هذه الأسهم الضخمة التحصينات فتصيب من هو مختبئ خلفها، والأمر الذي يجعل تلك العربات رائعة بحق... أنها قادرة على إطلاق خمسة أسهم دفعة واحدة.

- ومتى نكون مستعدون للتحرك.

قالها هولاكو مُختبراً عزم كتبغا.

- متى استكملنا عدتنا من الرجال والسلاح والمؤن، نجهز للتحرك.

- فلتتابع التجنيد والتدريب، وأتابع أنا المؤن وآلات الحرب وأصحاب الحيل، واعلم أني أركن إليك... فلا تخذلني.

أخذ هولاكو يتجول بخطوات ثقيلة وسط جنوده وهم يتدربون على مُنازلة بعضهم البعض بسيوف ودروع خشبية ثقيلة، وكان يتابع رُماة الأسهم ومدى دقتهم في إصابة الأهداف، كان الوقت ظهراً والشمس حارقة، لكن هولاكو كان مُتحمساً لا يشعر بتبرم جنديه الخاص الذي كان يتبعه في سعيه الحثيث لمتابعة حال الجيش.

مشى هولاكو مَسافة بعيدة حتى صار صوت قرع السيوف بعيداً لا تلتقطه الآذان، ليصل إلى الموضع الذي يعمل فيه أهل الحيل فيجهزون فيه المجانيق وعربات الاسهم وسائر الآلات الحربية، وأخذ يفحص شدة الاوتار التي شدت الآلات بها وأخذ يطمئن إلى جودة التروس وإحكام انطباقها على بعضها البعض، وبينما هو مُستغرق في جولته العسكرية إذا بجندي يأتي من بعيد.

أخذ هولاكو يتابع الجندي وهو يقترب في نفاذ صبر حتى وصل الجندي لاهثاً إلى خادمه، فالقى على اذنيه بضع كلمات ثم وقف خافضاً رأسه منتظراً أوامر هولاكو، اقترب الخادم منه في تأدب وانحنى قائلاً:

- الرسول يخبر جلالتكم أن هناك مبعوثاً بغدادياً جاء إلى الخاقان الأعظم منكو خان، وقد أمر جلالته بتوجيه الرسول إليكم لتنظروا في أمره.

انتبه هولاكو دفعة واحدة لما يقال، وفكر أن ربما علم المُستعصم بأمر تحكره إليه فارسل له رسالة يحظره فيها من وبال أمره.

- وأين المبعوث الآن؟

سأل هولاكو خادمه في لهفة، فأخبره الخادم أن المبعوث ينتظر الآن في المعسكر، بغير أن ينطق هولاكو كلمة أخرى انطلق مُرتداً إلى خيمته عساه أن يعرف فحوى الرسالة التي حُمِّلَ بها المبعوث البغدادي، تبع الخادم سيده بصعوبة وهو يندبُ حظه العثر الذي جعله خادماً لهذا الأمير الذي لا يكاد يثبت في مكان.

دخل هولاكو خيمته وجلس على مقعده الخاص ومسح أثار العرق من وجهه واخفى بمهارة شديدة ملامح التوتر البادية على وجهه... ليظهر أمام المبعوث واثقاً هازئاً من أي رسالة قد يكون المُستعصم مرسلها.

دخل المبعوث البغدادي عليه، وكان يرتجف من شدة الخوف وكأنه كان يتوقع أن يقوم هولاكو بقطع رأسه في التو والحال، ولم يفت هولاكو أن يقف على حال الرجل، فازداد ثقة في نفسه وعرف أن موقف المستعصم ضعيف، فإن كان موقفه قوياً لكان المبعوث أكثر ثقة وثباتاً. فأشار للمبعوث أن "هات ما عندك"، انحنى المبعوث احتراماً ورفع يده بالرسالة التي بُعث بها، نظر هولاكو إلى الختم الموجود على الرسالة فوجده ختم وزير الخليفة مؤيد الدين العلقمي، استعجب هولاكو من الأمر، فهل بلغ الاستهتار بالمستعصم أن يوَّكِل وزيره أن يراسله، فض هولاكو الختم في غضب وناول الرسالة إلى الجويني مستشاره الخاص فشرع الأخير في قراءة ما كُتِب.

إلى خاقان التتار وملك ملوك العالم إلى المعظم منكو خان، أما بعد...

بادئ ذي بدء أقدم لجلالتكم أسمى آيات التقدير والاحترام، وأظهر لمقامكم الرفيع أقصى درجات الطاعة والخضوع، وأنا رهن إشارتكم في أي أمر أمرت به، ولتجدنني إن شاء الله من الصادقين...

أنا خادمك المطيع مؤيد الدين بن العلقمي وزير خليفة المسلمين المستعصم بن المستنصر ببغداد، وأنا أعرض نفسي وطائفتي على جلالتكم لنكون لكم عوناً إن فكرتم يوماً في فتح بغداد.

ولعلكم تعجبون الآن، لمَّ يقدم وزير خليفة المسلمين على خيانة سيده ... ومساعدة الأعداء في فتح البلاد، برجاء من جلالتكم الصبر على رسالتي حتى تتأكد من صدقي ولأوضح لكم جميع الأمور.

ولنبدأ بلمَّ انقلبت على الخليفة الذي عينني وزيراً!! فمع أني يا مولاي وزيراً لخليفة المسلمين، إلا اني على طائفة غير طائفته، وقد تخاذل هذا الخليفة الضعيف عن نصرة قومي عندما تم الاعتداء عليهم ولم يحرك ساكناً، وكأنه يوافق ويستمتع بكل تلك المآسي التي وقعت أمام ناظريه، وقد بلغت المأساة أوجها هذا العام، فلم أعد أطيق أنا أو قومي احتمال المزيد من هذا الخليفة الظالم وشيعته الباغية، لذا أردت أن استعديكم عليه لتكون لنا الغلبة، ويمكنك التأكد من صدق ما أقول من جواسيسك ببغداد.

والرجل الماثل أمامك المبعوث بالرسالة... هو ضحايا إحدى المذابح التي اخبرتك عنها، فقد قتل والده وأخاه على يد نواصب أهل الكرخ، وتم أسر زوجته وبيعها في سوق النخاسة، وفي السابق إجابة وافية عن سبب انقلابي على الخليفة ونقمتي عليه ورغبتي في التعاون معكم.

أما وإن سألتم كيف أثق بكم؟، فقد عرفت عن جلالتكم العدل، فأنتم فقط تعصفون بمن يرفضون الإذعان لكم والتسليم لأمركم، وأنا ستجدونني من المذعنين، ورغم أن جلالتكم لست مسلماً فقد عرفت عنكم ميلكم

للمسلمين واستخدامكم لهم كولاة على الأمصار وأنا أطمع أن أنال منكم تلك المكانة التي نولتموها لغيري.

أما عمّا أستطيع تقديمه لجلالتكم، فاعلم أيها الخان العظيم أن أمر خليفة المسلمين بيدي، وأنه يثق بشخصي وينزل إلى رأيي فاستطيع أن أكون عينك في دار الخلافة واستطيع تنفيذ أوامرك في الخليفة، فيتم توجيهه إلى ما تريد، والسلام ختام.

ناول الجويني الرسالة إلى هولاكو فطواها ونحاها جانباً عسى أن يقرأها مرة ثانية في اللاحق، وتناقش هولاكو مع المبعوث ليقف على حقيقة ما تعرض له على يد جند الخليفة، ولما استشعر الصدق منه... أمر رجاله أن يكرموا وفادته وأن لا يسمح له بالعودة إلا من بعد أن يُحمِّله برسالة أخرى.

أنصرف المبعوث من أمام هولاكو، وبمجرد أن تغيب الأخير عن ناظريه طلب هولاكو من جنديه الخاص أن يرسل في طلب كتبغا يستشيره في الأمر، ولما حضر كتبغا إليه أخبره بشأن الرسالة وأخذا يتناقشان فيما هو وارد فيها...

- لكن ألا تجدها مصادفة غريبة أن يوافق زحفنا لفتح بغداد هذا العرض السخي الذي يقدمه لنا العلقمي.

- يقول أن سيده الخليفة يضطهد شيعته ويفعل بهم الأفاعيل وقد ضجر الرجل ولم يعد قادراً على تحمل المزيد.

- هو أمر يسهل التأكد منه بواسطة عيوننا في بغداد وانت تقول أن المبعوث أحد أولئك الذي عاصروا المذبحة التي حدثت هناك.

- نعم واخاله صادقاً.

- لا ضير إن اعتمدنا عليه، مع الإحتراز في شأن المعلومات التي يرسل بها إلينا حتى نتحقق من ولاؤه.

ضحك هولاكو متفائلاً:

- لن تصدق فقد خلت الرسالة من الخليفة نفسه وقد علم بأمر زحفنا نحوه، فسارع يحذرنا من مغبة ما نحن مقبلين عليه من أمر، لكن يبدو أن هذا الخليفة أحقر مما كنت أحسب، ولئن صدق ما يقوله العلقمي فان موقف هذا الخليفة سيكون في غاية الضعف فحتى أقرب الأقربين إليه سيكونوا قد خانوه، ولن يكون غزو بغداد بتلك الصعوبة التي كنا نتصورها.

****

حصار آلموت

آلموت 654هـ

أخذ حرب يرمق من شاهق جموع التتار وهي تتداعى إليهم من كل صوبٍ كما تتداعى جموع النمل حول حشرة صريعة، قد صدقت رسالات الحشاشون المندسون في قراقورم، فمنذ فترة توالت الرسائل التي تحذرهم من قرب الزحف المغولي.

كان الفلاحون في الأسفل قد غادروا قراهم مع قرب مقدم التتار واختفوا في كل جانب خوفاً من مواجهة الإعصار البشري القاتل، تأمل حرب الحقول الخضراء الواسعة التي تركها الفلاحون وفكر أنها لن تلبث أن تتحول إلى صحراء جرداء تحت وطأ هذه الجحافل القاسية الثقيلة ، فهم بالطبع سيقتاتون عليها اثناء فترة الحصار الذي سيُضربُ على القلعة، أم تراهم سيهجمون على القلعة دفعة واحدة بواسطة هذه المجانيق العملاقة التي بدت كتنانين أسطورية تطل بروؤسها العملاقة وقد فغرت أفواهها لتقذف اللهب في وجه أعدائها.

اقتربت جحافل التتار من القلعة حتى شعر حرب أنه يستطيع تفرس ملامحهم رغم علو المسافة التي تفصله عنهم، مر بعض الوقت حتى شعر أنه نال كفايته من كئابة منظر تلك الجموع وهي تحيط بهم من كل جانب، فهي المرة الأولى التي يرى فيها خطر مُحدق يحيط بقلعة آلموت منذ تم استجلابه إليها.

توجه حرب صوب سيد القلعة "ركن الدين شاه" ليخبره بتطورات الأمرفوجده يتحدث مع بعض قادة القلعة العسكريين ليتدبروا أمر التصدي للغزو التتاري، لمح ركن الدين حرب وقد حضر إلى مجلسه فأشار إلى رجاله بالانصراف، أدبر الجميع مُنفذين تعليمات سيد القلعة، فنادى الأخير على شاهر وأشار إليه بالبقاء، فخلت الحجرة على حرب وشاهر وركن الدين شاه، نظر ركن الدين إلى حرب يستنطقه فقال الأخير:

- جند التتار الآن يعسكرون حول الجبل ولا يتركون منفذ لنا نستطيع إنفاذ المؤن من خلاله.

استفسر سيد القلعة في قلق:

- وكم يبلغ عددهم؟

- هم كثير، هم مئات الآلاف مُسلحين بأقوى المعدات والآلات الحربية.

نظر ركن الدين إلى شاهر:

- ما رأيك يا شاهر... كم من الوقت سوف تصمد تحصيناتنا أمام ذلك الحصار.

كان شاهر وقتها المسئول الأول عن التحصينات الخاصة بالقلعة، وهو العارف بقدر المؤن والماء المُخزَّن لمواجهة الحصار المنتظر.

- تحصيناتنا في غاية القوة ولن يستطيعوا النفاذ إلينا ما حاولوا، لكن التحدي الحقيقي يكمن في محدودية المؤن والماء، فرغم أننا جمعنا الكثير من الأطعمة والغذاء في الآونة الأخيرة منذ أن جاءتنا أنباء الحصار، فسوف تنفذ تلك المؤن في وقتٍ معلوم.

- ومتى نصل إلى ذلك الوقت المعلوم؟

- ربما بعد بضعة أشهر سيدي، فهل ستمتلك الجيوش التتارية القدرة على محاصرتنا تلك الأشهر الطويلة، أم أنهم سوف يصابون بالملل والتعب ويتركوننا إلى حالنا، هذا سؤال لا يعلم جوابه إلا الله تعالى.

ظل حرب شارد الذهن وهو يستمع إلى الحديث المتبادل بين شاهر وركن الدين شاه، فقد بلغت به الكآبة عنانها وقد أيقن باقتراب النهاية، نظر إليه سيد القلعة وهو يلمح اضطرابه:

- مالي أراك منهزماً من قبل أن نبدأ "ثم استدرك في قوة "معركتنا طويلة ولازلنا في البدايات، وليس من اللائق أن يرى الجنود قائد تدريبهم على هذا النحو اليائس.

بدأت الشمس في الأفول وانسحب شعاعها من الغرفة التي هم فيها الأمر الذي زاد حرب كآبة وتشاؤماً ووحشه، وشعر حرب وكأنه يرى جحافل التتار تتحرك الآن على نحو آلي مُنظم وهم يدقون خيامهم وينصبون آلتهم جهة القلعة ممهدين أن يفتكوا بها، لكنه نفض تلك الصورة عن مخيلته، ونظر إلى سيد القلعة قائلاً:

- قد عاهدناك أيها الأكبر على الطاعة والقتال حتى الموت، ونحن على عهدك ما حيينا، ولسوف نفعل ما تأمرنا به، ولسوف نزود عن هذه القلعة بكل ما أوتينا من قوة حتى نلقى الشهادة.

- لن تصل الأمور إلى ذلك فلدينا ما يكفينا من المؤن، وتحصيناتنا منيعة، فقط علينا بالصبر وإظهار الجلد لأعدائنا حتى ينصرفوا عنا، فما أشبه اليوم بالسابق... ألا يذكركم ما يحدث الآن بمحاولة السلاجقة اقتحام

القلعة في عهد حسن الصباح وفشلهم في ذلك وانسحابهم مدحورين، وقتها لم يكتفي الصباح بانسحاب أولئك الملاعين، لكن صمم على الانتقام من العقول المدبرة لهذا الحصار فأمر بأول عملية اغتيال قامت بها فرقتنا... اغتيال الوزير ملك شاه، ليذوق الطغاة وبال أمرهم.

سكت سيد القلعة هنيهة ثم استدرك:

- وهو ما سنفعله بمشئية الله، فبمجرد نجاتنا من ذلك الحصار فلسوف نعجل باغتيال خاقانهم منكو وأخيه هولاكو جزاء عدوانهم علينا، فلا يفكر بنو التتار في الهجوم علينا ثانية.

لكن شاهر وحرب لم يبدوان على نفس القدر من التفاؤل، استدرك سيد القعلة قائلاً:

- قد أرسل هولاكو هذا الأمير المُتحذلق رسالة يدعونا فيها لتسليم القلعة إليه مقابل أن يتركنا أحياء.

- حرب: أولئك القوم لا أمان لهم أيها الأكبر، فكثيراً ما ينكثون عهدهم، فلما نصدقهم... وحتى وإن كانوا صادقين... إن استسلمنا لهم من يجيرنا من أعداءنا من السلاجقة والعباسيين والصليبيين ومنهم أنفسهم، لا ملجأ لنا إلا هنا في كنف تلك القلاع المنيعة.

- شاهر: وأنا أرى أن لدينا فرصة لا بأس بها أن يطول عليهم المقام وينصرفوا بغير أن يلحقنا أذى.

أخذ الثلاثة يتناقشون فيما بينهم فيما سيفعلونه في الأيام المقبلة، وانصرف كلٌ من شاهر وحرب من بيت سيد القلعة قرابة منتصف الليل.

ترجل حرب صحبة شاهر بين ثنيات الجبل قاصد كل منهما مخدعه، كانت الليلة مقمرة وكانت تفاصيل الجبل مرئية لهما، فقال حرب:

- أتعتقد فعلاً أننا قادرون على الصمود؟

- أعتقد ذلك فقد صمدت هذه القلعة أمام جميع القوى المُعادية المحيطة بنا ولم يستطع أياً منهم اختراقها أو أن يمسنا بأذى، فلم تخذل القلعة ابناء طائفتنا أبداً منذ أن استضافتنا في كنفها.

قال حرب والقنوط بادٍ على صوته:

- حتى وإن كان الأمر غير ذلك فنحن لا نملك الاستسلام كما ذكرت أمام الأكبر، فنحن أشبه بالسلحفاة التي إن أطلت برأسها من صدفتها لنهشتها عشرات الذئاب المتأهبة.

حاول حرب أن يَمُر على أطراف القلعة حتى لا يرى جموع التتار المعسكرة أسفل الجبل، فهو يريد أن ينام ولا يريد لمشهد تلك الجموع أن يهاجمه في أحلامه، فهو يريد أن يكون في كامل لياقته الذهنية يوم غد.

مرت شهور وكان الشهر أخر شهور الشتاء، وكان الجو بارداً بعض الشئ، لذا كان هولاكو مُستمتعاً بجلوسه أمام نار الشوي وهو ينظر إلى الدهن يسيل من الشاة التي أخذ الطاهي يلفها حول نفسها ببطء، كان في يد هولاكو قطعة من لحم الشاة التي يتم استكمال شيها أمامه، أما يده الأخرى فكانت منشغلة بمداعبة فخذ زوجته دوقوز لسيتمد الدفء من كلتا اليدين وهو يتابع جنوده يصفون خيامهم ويضعون دروعهم وأسلحتهم.

سألت دوقوز زوجها وعينيها صفراوتان من شدة الإرهاق:

ألن نخلد إلى النوم؟ قد بلغ مني التعب مبلغه؟ كان هولاكو ثملاً ومتعباً من أثر الشرب والسفر لكنه قال:

- لا استطيع النوم حتى اطمأن على حال الجنود وأن الجميع استقر مكانه.

ومتى يحين ذلك؟ توقف هولاكو عن مداعبة الفخذ الدافئ ونظر إليها في غضب:

- يحين ذلك وقتما يحين يا دوقوز، إن أردتي النوم فلتخلدي إليه الآن

نظرت دوقوز إلى زوجها بلامبالاة ثم قامت متوجهة صوب خيمتهما، أما هو فقد قضم قضمة أخرى من اللحم الذي بيده وأخذ يتابع جنوده وهم يستقرون حتى اقترب منه كتبغا فباغته سائلاً.

- هل استقر الرجال؟

- نعم أغلبهم أخلد إلى النوم عدا نذر يسير لازال يمهد لنفسه.

- ما تظن رد أولئك الإسماعيليون على رسالتنا إليهم.

- ما أظنهم سيستسلمون بسهولة، فسُمعة قلعتهم قد تَغُرَّهم، وهم معتادون على الحصار مستعدون له، لكنهم في النهاية سوف يهزمون.

- قد مهدت عدة جسور ومحطات ... لتصلنا الإمدادات والمؤن من قراقورم فلا تفتر عزائمنا من الحصار ما طال زمنه، فنأكل ولا يأكلون ونشرب ولا يشربون، فقد أمر منكو أن تدك قلاع الإسماعيلية كلها وأن يهلك جميع من فيها جزاء اجترائهم على حياته ومحاولة اغتياله.

- ما فعلناه في قبائل اللور سوف يوهن من عزمهم ويجعلهم أقرب للاستسلام.

- سوف نرى... إن غداً لناظره قريب.

- فليأتني أحدكم بالجويني[75].

صاح بها هولاكو بصوتٍ مرتفع، فاندفع حارسه الخاص ليأتيه بمُسشاره الخاص، ولم تمر دقائق حتى كان الجويني حاضراً أمام هولاكو، فأمره الأخير أن يكتب رسالة إلى المستعصم خليفة بغداد:

- فلتكتب رسالة إلى المستعصم خليفة المسلمين في بغداد تطلب منه أن يساعدنا في القضاء على طائفة الحشاشين، فهم عدو مشترك بيننا وبينه، ونحن الآن نحاصرهم لنقضي عليهم، فوجبت عليه المساعدة.

- أوامرك نافذة يا مولاي، لسوف أكتب الرسالة الآن لتتحرك إليه في التو والحين، لكن هل لي أن أدلي برأيي؟

- تكلم أيها الجويني، فأنت تعلم أني أثق في رأيك وأميل إلى سماعه في كل مسألة.

- رغم أن طائفة الحشاشين أعداء للخلافة العباسية والسلاجقة، فهم لن يهبوا لمساعدتك، فجيوش التتار تعتبر هي الأخرى عدو لهم، ومن صالحهم أن يتحارب العدوان عسى أن يفنى أحدهم ويوهَن الآخر.

رد الأمير التتاري ضاحكاً:

- أتظنني في غَيبة عمَّا تقول، أنا فقط أريد أن أضع هذا الخليفة في مأزق، فإن رفض مساعدتنا كانت لنا ذريعة أن نغزو بلاده لأنه نشز عن طاعتنا يوم طلبنا منه المدد، وإن أرسل جنده إلينا في مقامنا هذا، لكانت هذه علامة خضوع منه، ولسوف يساعدنا مدده في اقتحام القلعة في وقتٍ أسرع ويكون لنا معه من بعد ذلك شأن، وإن كان يغلب في ظني أن غروره سوف يسول له الرفض.

نظر الجويني إلى سيده في تواضع:

- أعجبَّ يا مولاي!، لمَّ يحتفظ مثلك بمستشار مثلي، فجلالتك لا ينقصك الدهاء.

أشاح هولاكو بوجهه وقد شعر بثقل الطعام وقوة الشراب تغزو أوصاله:

- بل أحتاجك دوماً أيها الجويني، فأنت أدرى مني بالمسلمين وطوائفهم المتعددة ومشورتك محل تقدير، المهم الآن أن تبعث الرسالة إلى الخليفة المستعصم في أسرع وقتٍ ولتأتني بالرد حالما يصل.

قام هولاكو وهو يترنح تلقاء خيمة دوقوز فقد بلغ منه التعب مبلغه.

هرعَ الجويني هو الآخر إلى خيمته يكتب الرسالة التي أمره هولاكو بها، وأرسلها في الحين إلى المستعصم في بغداد، والحق أن نظام البريد والمراسلات التتاري كان على قدرٍ كبير من التطور، فقد أنفق منكو خان أموال كثيرة لتطويره لضمان تدفق المعلومات في سرعة من وإلى قراقورم، فكان ذلك بمثابة السلاح الخفي للجيش التتاري. انصرف الجندي برسالة الجويني ليتركه يفكر في رد فعل الخليفة العباسي، هل تراه يقبل دعوة هولاكو ليساعده في الإيقاع بقلعة آلموت، أم أنه سوف يحجم؟.

أما عن المراسلات السرية بين هولاكو والعلقمي، فقد اتفق الأول مع الثاني أن تتم المراسلات بينهما عن طريق رجاله هو، فهم أقدر على نقل ما بينهما في خفاء بغير أن يتم كشف ستر ما بينهما، فضلاً عن السرعة التي سوف تصل بها الرسائل.

في اليوم التالي وصلت رسالة من العلقمي إلى هولاكو جاء فيها...

إلى هولاكو الأمير التتاري العظيم...

أعلم أيها الأمير أنه عندما وصل خطابكم إلى الخليفة المستعصم ولما عرف ما فيه، جمع خاصته لمُناقشتهم في الأمر، وأخذت أنا أحسن إليه أمر مساعدتكم في حصار القلعة والقضاء على طائفة الحشاشين لكن الدويدار الصغير كان معارضاً للفكرة، وأخذ يقنعه أنكم قوم لا عهد لكم، واتهمني بممالئتكم، وكان أحمد أبا العباس ابن الخليفة في صف الدويدار الصغير، ووافقهم على ذلك سليمان شاه وهو قائد مرموق بالجيش العباسي، وقد نزل الخليفة إلى رأيهم وأهمل ما أقول، وقد بعث لكم بخطاب يعتذر فيه عن المشاركة في تلك الحملة التي تنظمونها لاجتثاث الحشاشين.

والسلام ختام...

نحى هولاكو الرسالة جانباً وبات ينتظر خطاب الاعتذار المُرسل إليه من الخليفة، وقد جهز الرد حتى من قبل أن يأتيه، فقد أمر الجويني بأرسال خطاب آخر إلى الخليفة المستعصم يلومه فيها على تخليه عنه في مواجهة عدو مشترك، وأوصى هولاكو الجويني أن تحمل الرسالة معنى التهديد الخفي إلى الخليفة، وقد كان.

مرت أيام أخرى وجاء رد الخليفة على رسالة هولاكو التي هدده ولامه فيها... في صورة هدايا حقيرة لا تليق بمقامه، فغضب هولاكو على الخليفة وأمر الجويني أن يرسل إليه رسالة أخرى قاسية يتوعده فيها ويطلب منه أن يأتي هو وقواده وابنه إليه فيعتذرون عن الإهانة التي لحقتهم من جراء رفض دعمهم وتقديم تلك الهدايا الحقيرة.

وقد أوضحت رسائل العلقمي السرية ما كان يدور في قصر التاج في شأن الهدايا التي تسببت في الأزمة، فقد كان المستعصم ينتوي ارسال أثمن الهدايا لأمير التتار عساه أن يرضى عنه، لكن ابنه وقادة جيشه عابوا عليه ذلك فآثر الخليفة أن يرسل إليه تلك الهدايا المتواضعة لئلا يظهروا بمظهر الضعفاء، فنزل الخليفة إلى رأيهم مرة أخرى وأرسل تلك الهدايا الحقيرة، وكان من أثر تلك الرسائل السرية أن أضمر هولاكو الكره لبطانة الخليفة الذين يُجرأونه عليه، ولم يرى جبراً لتلك الإهانة إلا بحضور الخليفة نفسه هو ومستشاريه ليقدموا فروض الولاء والطاعة.

هوى سيف المُقاتل التتاري في بأسٍ على كتف الحصان المُقيد فصهل بشدة وأخذ يحاول الفكاك من أسره بقوةٍ قافزاً ذات اليمين وذات اليسار... حتى أنه كاد ينتزع الوتد الذي رُبط فيه، فتأهب له المقاتل مرة أخرى ليهوى بضربة مثل الأولى على كتفه المقابل لتهمد حركة الحصان ويسقط على الأرض.

اقترب ثلاثة رجال من الحصان فسلخوه وأخذوا يخلصون لحمه من عظامه، وأخذوا يسلمون اللحم الخالي من العظام إلى آخر في يده سكين أدق... قطع بها لحم الحصان إلى شرائح طويلة في غاية الرفع ليعلقها على قائم في الهواء لتجف، فكانت هذه الوسيلة تضمن حفظ اللحم لمدة طويلة بغير أن يفسد، بعد أن فرغ الرجال من تجفيف اللحم قاموا بتنظيف الأمعاء وتم حشوها باللحم وتمَّ تركها هي الأخرى لتجف في الهواء، وكانت تلك الأمعاء المحشوة باللحم والتي تم تجفيفها تُأكل بغير طهي.

جلس حرب يرمق الجموع في الأسفل وهي تتعايش في المنطقة وتمهد لنفسها، وفكر في نفسه أن أولئك القوم على دراية بما هم مقدمون عليه، وأنهم مستعدون لمد فترة الحصار المضروب على القلعة إلى أشهر وأشهر قادمه، فهم يتحركون في تلك الروابي في أريحية تامة وكأنهم ولدوا بها، وكان من الواضح أنهم لا يعانون من قلة المؤن كما يعاني رجال القلعة، والنهر بجانبهم يشربون منه كيف شاءوا.

عندما مر خاطر الماء في بال حرب نظر إلى أعلى الجبل يستجدي سقوط الأمطار حتى يجري الماء في الأنابيب المؤدية إلى الخزانات الموجودة في باطن القلعة، لكن لسوء الطالع كانت تلك الأيام هي الأخيرة في فصل الشتاء، ولسوف تنقطع مياه الأمطار وتجف الخزانات في غضون أيام، ورجال القلعة لن يستطيعوا تحمل الظمأ وإن تحملوا الجوع طوال الأشهر الماضية.

كان حال سيد القلعة الآن يعكس رداءة الموقف الذي وصولوا إليه فقد بات يائساً يناقش الجميع في فكرة الاستسلام، بل وقد أرسل إلى نصير الدين

الطوسي على سوء العلاقة بينهما ليعرف رأيه في الحصار المضروب حول القلعة، ليقف على صدق نية هولاكو أن يتركهم أحياء إن هم استسلموا، جلس الجميع في بيت سيد القلعة يتناقشون فيما هم مقبلون عليه، خاطب سيد القلعة ن حوله من القادة والمستشارين قائلاً:

- قد جفت الأبدان وشحَّت المؤن ومرض الرجال ومات منهم عدد غير قليل، وبات الباقون غير قادرون على القتال من عزم ما أصابهم، فما ترون؟.

رد عليه رجل قصير قليل اللحم بارز العظم ابيضت لحيته هرماً بلا مبالاة:

- فلتستسلم، فليس أمامك من خيار آخر.

نظر سيد القلعة إلى الرجل في ارتياب، في حين ما رد عليه شاهر:

- فلتصمت أيها الطوسي، ما أظنك تقول ذلك إلا رغبة منك في الخلاص من احتجازنا إياك في القلعة.

كان رجال القلعة قد احتجزوا الطوسي منذ فترة كبيرة مضت في القلعة، بوصفه أحد أعداء الطائفة الإسماعيلية النذارية، وكان وضعه في القلعة يُماثل وضع الأسرى، إلا أن سيد القلعة كان يعطي له بعض الامتيازات نظراً لمكانته العلمية المعروفة، فقد كان فلكياً وفيلسوفاً مرموقاً، فكان يُسمح له بالتواجد في مكتبة القلعة آنى شاء، ويُسمح له بالمكوث على سفح الجبل لرصد حركة الكواكب والنجوم، وإن كان لا يؤمن أحد من رجاله بقدرة الطوسي على التنبؤ بالغيب... فقد كانوا يحترمون حكمته وبصيرته في إدارة الأمور.

رد الطوسي بانفعال:

- الأمر أكبر من ذلك، فحياتي مرتبطة الآن بحياتكم، ولسوف يجري عليّ ما يجري عليكم.

تدخل حرب في الحوار:

- أرى أن الاستسلام غير وارد، فما لنا وجاء غير تلك القلعة، فأعدائنا سوف يفتكون بنا إن استسلمنا، فإن تركنا المغول فلسوف يقضي علينا السلاجقة والعباسيين، وإن لم يكن هم فالصليبيون.

قال الطوسي مدافعاً:

- إن مرت علينا عدة أيام آخر ونحن هنا فلسوف نهلك لا محاله، أما لو سلمنا لهم الآن سيكون لنا فرصة للحياة.

- بئسها من فرصة، أولئك القوم لا عهد لهم ولا ذمة ولسوف يغدرون بنا حالما قدروا علينا...، أن نموت هنا واسلحتنا بين أيدينا... أفضل من أن نذبح ذبح النعاج.

كان ركن الدين شاه مطرقاً وهو يستمع لمناظرة الطوسي وحرب، فرفع رأسه أخيراً:

- كلما مر مزيد من الوقت ... نفقَ عدد أكبر من الرجال، نحن بحاجة إلى رسول يذهب إلى هولاكو ويناقش معه شروط الاستسلام، على أن نقيم الموقف بعد رجوع الرسول لنقف على مدى صدق نية أميرهم.

سكت الحضور مذعنين إلى أوامر سيد القلعة، فقد تربى جميع الحشاشين بالقلعة على الطاعة العمياء، فأكمل سيد القلعة:

- فلتذهب أنت يا حرب.

تغير وجه حرب مما أمر به، فقد كره أن يكون مبعوث القلعة إلى هولاكو، ليس خوفاً منه... لكن خزياً أن يتفق على بنود الاستسلام، لكنه قطعاً لم يملك الرفض، فأومأ برأسه موافقة، ثم انصرف من أمام سيد القلعة وتبعه الطوسي وشاهر.

فُتحت أبواب القلعة وبرز منها حرب وأخذ ينزل من مدخلها الوحيد المؤدي إلى أسفل الجبل، ظهرت الشمس في الأفق على استحياء وكانت السماء مُصفرة وكأن نقع الغبار قد ثار من مكمنة ليشمل جميع المشهد، أخذ حرب ينزل درجات على المُنحدر وهو يستشعر آلاف العيون الضيقة تراقبه أثناء نزوله، حاول تجاهل هذا الإحساس حتى لا ينزلق من أثر الأبصار التي تتابعه، حتى وصل إلى الأسفل ليجد إثنان من الحراس في انتظاره، لم يتبادلا معه كلمة واحدة، فقط تقدموا إليه وطلبوا منه رفع يده إلى أعلى وشرعوا في تفتيشه ليتأكدوا من خلوه من أي أسلحة، فأمروه بخلع ملابسه وأخذوا يتحسسون جميع جسده، وعندما اطمأنوا أشاروا إليه أن يتقدم.

مشى حرب مع حارسيه مئات الأمتار حتى اقترب من نواة المعسكر التتاري، سلَّم الحارسين حرب إلى حارسين آخرين... قاما بتفتيشه مرة أخرى ثم أوقفوه على باب خيمة ظن أن داخلها هولاكو.

صدق حدس حرب، فما هي إلا دقائق حتى سمحوا له بالدخول ليجد نفسه أمام هولاكو، لم ينحني لهولاكو، ولم يجبره الأمير التتاري على ذلك... فقط نظر إليه بهدوء شديد وأمره أن يقوم بتعريف نفسه...

- أسمي حرب وأنا قائد التدريب في قلعة آلموت ومبعوث سيد القلعة ركن الدين شاه إليكم لنتفق على شروط الاستسلام.

ضحك هولاكو ملء فيه، وكان يبدو ثملاً مع أنها كانت الساعات الأولى من الصباح:

- وهل للمُستسلم شروط.

نظر إليه حرب بحدة:

- أنت تعلم أن اقتحام القلعة عصي عليكم، وأنت تعلم أن جدك جنكيز خان قد فشل في اقتحامها منذ عشرات السنين.

هز هولاكو رأسه في لامباله وهو ثمل:

- قل ما تريد، ما هي شروطكم.

- نريد منك عهداً بالأمان، وأن يتم حمايتنا متى فتحنا لك أبواب القلعة، وأن نرجع إليها متى اطمأننت إلى ولاءنا لكم.

قال هولاكو وهو يهز رأسه والكأس بيده في هذيان وكأنه يستمع إلى مقطوعة موسيقية تشجيه:

- تخرجون منها وتعودون إليها، وهل تحركت كل تلك الجحافل من أجل أن تخرجوا منها وتعودوا إليها!!.

- هو أمر تمليه الضرورة فلو بقينا بلا قلعة فلسوف يعصف بنا أعداءنا.

- وهل لسيدك شروط أخرى؟

قالها هولاكو وهو شارد الذهن ينظر في نقطة وهمية بجانب حرب، ولما أجابه الأخير أن لا، ترك أمير التتار الكأس من يده وبانت على وجهه ملامح الجديه واعتدل في مجلسه:

- فلتقل لسيدك ركن الدين شاه، أني أقبل بجميع شروطه، وفوق هذا فلسوف أزوجه من عذراء تتارية تعيد إليه شبابه وتكون بمثابة الميثاق بيننا لدعم أواصر الود والاخلاص.

سكت هولاكو وعاد إلى حالته الأولى من الاسترخاء وتناول كأسه يرشف منه وكأن حرب لم يعد موجوداً أمامه، هنا تقدم حاجب هولاكو ليسحب حرب من أمامه ويسمح له بالعودة من حيث أتى.

أخذ حرب يعتلي الدرجات صاعداً إلى القلعة مرة أخرى، واستشعر عيون زملائه تتبعه في صعوده متشوقين لمعرفة ما تم بينه وبين أمير التتار، وحمد الله أن الطريق إلى أعلى لازال طويلاً حتى يفكر فيما يجب قوله إلى سيدها، فهل يصارحه بما وجده من هولاكو من لامبالاة وهدوء، وأنه وافق على جميع

شروطهم بغير تحفظ، أم أنه من الأصلح أن يكذب ويقول أنه استشعر الغدر من هولاكو عسى سيد القلعة أن يُحجم عن الاستسلام.

مر الوقت ووصل حرب إلى مدخل القلعة وفتح زملائه بابها له، ووجد من ينتظره ليخبره أن سيد القلعة في انتظاره في التو والحين، مَثَلَ حرب أمام ركن الدين شاه ووجد شاهر والطوسي في حضرته ...

- ركن الدين شاه: مالي أراك صامتاً، فلتخبرنا بما حدث.

وجد حرب نفسه يقول الحقيقة، فالقرار ثقيل ويتعلق به مصائر الآلاف من رجال القلعة، ولربما ارتبطت به مصائر اتباع الطائفة الإسماعيلية النزارية جميعها، وانفرجت أسارير ركن الدين شاه مما سمع وتفاءل بصدق هولاكو، ولربما فرح بأمر وعد الزواج المبذول إليه، وشجعه على ذلك الطوسي وشاهر، فقرر أن ينزل هو بنفسه إلى هولاكو ليستيقن من صدق نيته في الوفاء بالاتفاق بينهما.

أما رجال القلعة فقد فرح أغلبهم بقرب فك الحصار، واطمأنوا أن سيد القلعة بنفسه سوف يغادرها ليطمأن لهم على بنود الاتفاق مع أمير التتار، وبالفعل نزل ركن الدين شاه إلى هولاكو وتقابل معه بنفسه وجهاً لوجه ليطمأن إلى صدقه، وبعد المقابلة ازداد ركن الدين شاه قناعة بصدق هولاكو وقرر الاستسلام بشكلٍ نهائي.

كان حرب واحد من القلائل الذين شعروا بالقلق وعدم الارتياح لقاء الاستسلام وفتح أبواب القلعة، لكن سبق السيف العزل، فتحت أبواب القلعة ودخلت أعداد رمزية من جنود التتار يستكشفونها ويستلموا مقاليدها ويسيطروا على أماكنها الحاكمة، ونزل ركن الدين شاه إلى هولاكو الذي استقبله استقبالاً حسناً، وقدم له زوجته ليعرس بها.

مرت أيام وركن الدين شاه سعيداً بزيجته الجديدة، وتم رفع المؤن والماء إلى رجال القلعة... فابتلت العروق وذهب الظمأ، وسار الحشاشون يتجولون في قلعتهم بحظر وترقب وهم يرقبون جنود التتار قد انتشروا وسطهم يتابعون جميع تحركاتهم.

بعد مضي أيام أُخر أرسل هولاكو إلى ركن الدين شاه فمثل الأخير بين يديه، فقال له هولاكو وهو يقهقه بعربدة:

- أراك قد صغرت عشرات السنين أيها العجوز.

- الفضل يرجع إليك أيها الأمير العظيم، فلو كنت أعلم أن الزوجات التتاريات يذهبن العجز، لكنت فتحت لكم أبواب القلعة منذ أمد بعيد.

ضحك هولاكو مرة أخرى لكنه بذل مجهود أكبر هذه المرة ليداري احتقاره لهذا القائد الضعيف، ثم قال:

- والآن دعنا من هذا... أريدك أن تذهب لمقابلة أخي منكو خان في قراقورم لتبايعه ويتفق معك على سُبُل التعاون في المستقبل.

شعر ركن الدين شاه ببعض القلق، لكنه لم يملك سلطة الرفض:

- إنه لشرف عظيم أن أحظى بمقابلة خان التتار العظيم.

بالفعل تحرك وفد صغير مُصاحباً ركن الدين شاه لمقابلة منكو خان، وكان جميع غرض هولاكو أن يستوثق من أوامر منكو خان في إبادة جميع رجال القلعة وتحريقها، وأراد أن ينتقم أخيه منكو خان من زعيم طائفة الحشاشين بنفسه... وقد جعله يعيش سنوات من القلق بسبب محاولات رجاله المتكررة في اغتياله.

بعد تحرك الوفد بساعات وصل خطاب من قراقورم يحمل قضاء منكو خان في رجال القلعة وسيدها، فقد أمر أن يقتل الجميع وتُحَّرق القلعة وتُهدم أسوارها وجدرانها.

****

أرسل هولاكو مبعوث إلى الحرس المُصاحبين لركن الدين شاه يأمرهم بإعدام ركن الدين خان وعدم استمرار الرحلة إلى قراقورم، فأنزل الحرس ركن الدين من فوق مطيته وأنزلوه إلى الأرض وقيدوا يديه خلف ظهره واقترب أحدهم من خلفه وجرد سيفه وهوى به على رقبة سيد القلعة لتتدحرج الرأس المفصولة على الأرض مُغبَّرة بالرمال في حين ما أخذت الدماء تتدفق من رقبته على نحو بليد حتى سقط جسده ببطء على الأرض، أمر قائد الحرس أحد رجاله بالتحفظ على الرأس وحفظها وتسليمها إلى منكو خان في قراقورم.

أرسل هولاكو إلى حرب وشاهر والطوسي وطلب منهم أن يجمعوا خارجها رجال القلعة جميعهم بغير استثناء حتى يقوم بعمل إحصاء سكاني لهم، وأخبرهم أن هذا أمر معتاد، حيث أن منكو خان دوماً ما يحصي رعيته في المقاطعات التي يحكمها حتى يعلم أعداد الفقراء المُستحقين للدعم، ويعرف أعداد الأغنياء وما يجب أن يدفعوه من ضرائب.

وكالعادة شعر حرب بالقلق من تلك التعليمات وانتابه هاتف شؤم، أما الطوسي... فقد سعى إلى التعرف على هلاكو وعرض عليه خدماته أثناء نزول رجال القعلة من صياصيهم، وكان هولاكو مولعاً بالتنجيم والفلك، فأبقى

الطوسي إلى جواره علّه يكون ذا نفع له، أما حرب فقد استجاب لأوامر هولاكو، وخرج الرجال جميعاً من القلعة وكان من يخرج من القلعة يتم تقييده حتى تم إخراج وتقييد جميع من فيها قرب غروب الشمس بقليل، وعندما استوثق هولاكو من خلو القلعة أصدر أوامره إلى رجاله بتقتيل جميع الرجال الذين تم تقييدهم.

أعمل جند التتار سيوفهم القصيرة في رقاب الحشاشين لتحصد الأرواح بغير اعتراض، وكان حرب ضمن المقيدين يشعر بأرواح رجاله تُسلب من حوله بغير أن يملك لهم حيلة، كان العجوز الأسود في حالة يرثى لها، كان ميتاً قبل أن يمسه السيف، وكان يستعجل وقوع النصل الحاد على رقبته لتنتهي آلامة التي تعاظمت بسبب المذبحة التي تم إعمالها فيمن حوله، لكن الوقت قد طال حتى وصل الجند إليه فعدلوا من وضعه ونزل السيف على رقبته ليريحه من المعاناة التي طالت لشهور مضت.

كان الليل قد انتصف عندما انتهى الجند من قطع الرقاب، بعدها أمر هولاكو بإحراق القلعة وهدم أسوارها تنفذاً لأوامر أخيه الخان الأعظم، وعندما انتشر خبر ما أمر به هولاكو استأذن الجويني وفي أثره الطوسي أن يدخلا عليه، فبادرهما هولاكو السؤال:

- ماذا تريدان؟.... تحدث أيها الجويني.

- طامع في فضلك أيها الأمير الكريم، لتسمح لي أن أخذ بعض الكتب الموجودة بمكتبة سيد القلعة، ففيها فائدة في قراءة النجوم وعلوم الفلك، وخادمك الطوسي الذي عفوت عنه اليوم في حاجة إلى بعض تلك الكتب حتى يستطيع قراءة طالعك في النجوم.

ألم يكتفي الطوسي أن وهبته رقبته اليوم، أيطمع أنه أهبه كتبه كذلك!\ تدخل الطوسي في الحديث مستعطفاً:

- أنا لا شئ بغير كتبي يا مولاي، ولسوف أكون أقدر على خدمتك إن سمحت لي أن احتفظ ببعض الكتب المحفوظة في القلعة.

- فلتأخذا ما شئتما لكن في سرعة، فلسوف تُحرق هذه القلعة في غضون ساعات.

هرع الرجلان داخل القلعة وتوجها في سرعة تلقاء المكتبة وكان الطوسي دليلاً للجويني إليها... فطالما قضى الطوسي الأيام والأشهر حبيسها، اصطحب الرجلان في رحلتهما الخاطفة نفر من الحرس ومعه عربة مزودة بعجلات ليضعا عليها الكتب، وعندما دخل الجويني إلى المكتبة وجد فيها نسخاً كثيرة من القرآن الكريم، ففكر في أفضلية انقاذ الكتب، هل يحفظ كتاب الله من

الحرق ... أم أن القرآن الكريم قد حفظه الله... وأن من واجبه الآن حفظ المخطوطات والكتب العلمية والفقهية النادرة الموجودة في المكتبة، لكنه آثر في النهاية أن يبدأ بحفظ نسخ القرآن الكريم ... فما بقى له إلا مكان محدود للكتب استغله الطوسي في حشر بعض كتب الفلك والكواكب، وانطلق الجمع الصغير على أثر صوت المعاول التي تهدم أسوار القلعة والنار التي تلتهم جميع ما تبقى داخلها.

****

عام الفيضان العظيم

بغداد 654هـ

اقترب بُرهان من أبيه سالم ضاحكاً، فابتهج الأب لمرأى ولده وانتابته سعادة جامحة، فاقبل عليه وود لو عانقه واشتم رائحته، أخذ سالم يقترب من ابنه بخطوات سريعة وعندما دنت المسافة بينهما... شعر برجفة تغزو جميع جسده، فقد كانت قدما ابنه في غاية القصر، فتراجع الأب عدة خطوات حُزناً على ابنه، لكن الضحكة التي ارتسمت على وجه بُرهان طمئنته بعض الشئ ... وإن لم تستطع إزالة شعوره بالحزن والتوجس، شعر سالم وقتها أن ابنه يريد تناول بعض الأسماك فانصرف عنه من بعد ما ودعه بعينه... وولاه ظهره وأخذ يجري يسابق الريح ليأتيه بالسمك الذي يشتهيه، فيجب أن يأكل بُرهان السمك حتى تطول قدماه مرة أخرى.

جلس بُرهان على فراشه بغتة وهو لا يستطيع التقاط أنفاسه وقد تفَّصد العرق من جبينه... فعرف أنه كان يحلم، استمر بُرهان في جلسته لبعض الوقت حتى لملم شتات نفسه ثم انتعل وخرج من الغرفة ووقف في حديقته يتأمل الفراغ وذكرى موت ابنه تنهش قلبه.

فقد مرت ثلاث سنوات الآن على موت ابنه ويشعر بمقتله وكأنه تم بالأمس، لازال يرى الدم يتدفق من الثقوب المنتشرة في رقبته وجسده والمغسل يُقلبه بين يديه ويحاول السيطرة على نزيف الدم الذي أخذ ينساب من جميع الخروق، كان سالم واقف في حديقة منزله ينظر إلى الزهور تتمايل بتأثير الرياح تحت ضوء القمر... لكنه يشم رائحة دم ابنه الجاري في انفه، كان يشم راحة الغازات المنبعثة من بطنه عندما ضغط عليها المُغسل.

لماذا لم يتم الاقتصاص من قاتل ابنه حتى الآن؟، أيكون ذلك بسبب عدم رضاء قصر التاج عن مسلك ابنه الذي كان يحاول إصلاح الصدع الكائن بين السنة والشيعة... أبسبب ان ابنه اجترأ وفكر أن الشيعة مثلهم مثل السنة مسلمين وإن اختلفت بعض الرؤى، كأن التفكير في الدين جريمة وكأن العبث بما يخاله الناس من الثوابت أمر يستوجب العقوبة.

هو الآن مُتيقن من رضاء الخليفة عن مقتل ابنه، هو فقط لا يعلم إن كان الخليفة ينتوي القصاص لابنه من قاتله... أم أن القاتل سوف يظل هانئاً في

سجنه حتى يموت هو بحصرته، أنسابت دمعة من عين سالم وشعر بأنفه تتقلص والمخاض يجري في منخاريه.

سمع سالم وقع أقدام يدنو من خلفه فاستدار بوجهه الباكي ليجد زوجته ميسون أمامه وقد امتلأت مقلتيها بالدموع وهي تفهم مصابه.

احتضنت ميسون زوجها برفق، فأخذ هو يربت على كتفها مستمراً في البكاء، سألته:

- أعاودتك الأحلام عن بُرهان مرة أخرى.

- نعم لكنه كان هذه المرة قصير القدمين، وقد طلب مني أن آتيه بالسمك علَّ أقدامه ترجع إلى حالها.

- عله في حاجة إلى الدعاء، وطالما كان وجهه ضاحكاً فذلك يعني أنه سعيداً فيما هو فيه.

- هو سعيد وأنا مُقطَع الأوصال قد فقدت الرغبة في الحياة، فقد كان بُرهان سندي من بعد ما رحل عنا فوّاز.

- عله يرجع في يومٍ ما، فلتتماسك يا سالم، فلم يعد لنا سوى بعضنا البعض، فإن مسَّك السوء سرت أنا وحيدة تماماً.

نظر سالم إليها وهو يستعجب الأدوار التي طالما أخذوا يتبادلونها، فتارة تكون هي الأكثر انهياراً وهو الذي يشد من أذرها وتارة يحدث العكس.

- فقط لو نقتص من قاتله... لكنت هدأت بعض الشئ، وكأنني أشاهد دمه حياً ينزف طالما كان قاتله يتنفس ومازالت قدماه تدب على هذه الأرض.

سكتت ميسون لا تدري بمَّ تجيب زوجها وهي تشعر بما يشعر به تماماً، وقف الزوجان وحدهما في الحديقة يحتضنان بعضهما البعض فيي صمت، لا يفصله إلا هنات البكاء.

****

أخذت الأمطار تهطل من السماء لليوم الثالث على التوالي[76]، وكان الماء يتدفق من الكوة الحديدية للسجن الذي تم التحفُظ فيه على حسين ، كان السجن تحت مستوى الأرض، فكثيراً ما كان يشعر بوطأ الأقدام فوق رأسه.

كان الجو شديد البرودة وكان جسده يرجف من شدة البرد، ومما زاد من معاناتة تلك المياة التي استقرت في قاع سجنه، فبات لا يستطيع أن يفرد

جسده على الأرض لينام، فمنذ بدأت الأمطار في الهطول وهو ينام مقرفصاً كالذي يقضي حاجته سانداً ظهره إلى حائط السجن البارد الرطب.

أخذ حسين يدعو الله أن يُعّجل من أمر محاكمته وإعدامه، فهو ميت لا محالة، فلا معنى لتلك المعاناة التي يعانيها من قبل أن يلقى حتفه، فكر وقتها انه كان من الأفضل لو تم تزويد الفدائي الذي أسند إليه مهمة... بالسُم، يتجرعه ويريح نفسه من ذُل الأسر وشماتة الأعداء، لمَّ لم يفكر سادة القلعة على مر القرون في تزويد الفدائيين بقناني صغيرة بها سم زعاف يستطيعون عن طريقها الخروج من تلك الأوقات العصيبة، أم أنهم يعدون اجتراع السم انتحاراً؟!

الحقيقة أن السواد الأعظم من الفدائيين كان يتم قتلهم عقب تنفيذ مهامهم في التو والحين بواسطة حرس الشخصيات الهامة التي كانوا يغتالونها.

لكنه قتل في هذه المرة واحد من عوام الناس، فحتى إن كان لبُرهان أثر إصلاحي هام في المجتمع البغدادي، إلا أن هذا الأثر وذلك الدور الذي كان يلعبه كان غير مدعوماً من الخليفة وخاصته فيما يبدو.، لذا لم يتم الفتك به في سريعاً.

فكر حسين في أمه، وأنها لابد أن تكون قد اعتادت غيابه، فقد مرت سنوات طوال منذ أن هجرها إلى آلموت، لكن أتراها شاعرة به الآن وهو يعاني من قسوة البرد وينتظر أن تُزهق روحه، هو في النهاية لا يريدها أن تشعر بالألم، كفاها ما لاقته من أوجاع عندما مات زوجها وهاجر ابنها وتُركت وحيدة.

كان تسرب الماء من الكوة الحديدية يزداد في سرعة وكأن أحدهم قد فتح فرع للنهر ليصب داخل السجن، لم يكن حسين قادراً على رؤية الحفرة الضخمة التي تُجّمع الأمطار لتجد طريقها إلى زنزانته من خلال خيط رفيع آخذ في الاتساع بمرور الوقت، وللحق فقد كانت تلك الحفرة محظوظة، فكلما شرعت في إفراغ ما بداخلها من الماء... أهدتها السماء مائاً جديداً.

من المؤكد الآن أن سيد القلعة وحرب وجميع رجال القلعة قد عرفوا بما أنجزه، وأنه قتل هدفه ونجح، لكن هل تراهم يشعرون بما يعانيه الآن من مذلة السجن وقسوة البرد؟!، أخذ ذهن حسين يجول في القلعة ورجالها يحاول بذكراهم أن يشدُد من أذرِ نفسه غير عالماً أن القلعة قد حُرقت وذبح كل من فيها بمن فيهم سيدها ركن الدين شاه.

****

كان الدويدار الصغير يحث الخطى وهو يهرول في أروقة قصر التاج حتى وصل إلى بلاط الخليفة، ففتح له الحرس الباب في سرعة ليدخل على المستعصم وهو مُستغرق في مطالعة بعض الأوراق وقد وقف العلقمي بجانبه يعرض أحوال الرعية بسبب الفيضان الذي اجتاح البلاد، فقد غرقت الديار وشردت العائلات وكسدت التجارة.

قال الدويدار:

- لا أعلم إن كان من الواجب أن نستبشر أم من واجبنا أن نحذر من هذا الخبر المُحير.

رفع المستعصم رأسه عن الأوراق التي يطالعها ونظر إلى الدويدار الصغير في ملل:

- هات ما عندك أيها الدويدار، فقد سئمت الألغاز.

تنبه العلقمي إلى ما يقوله الدويدار وأخذ ينظر إليه من طرف خفي، أجاب الدويدار:

- استطاع التتار اقتحام قلعة آلموت وقتلوا جميع من فيها وهدموا أسوارها وحرقوا أثاثها، فما أدري... أنفرح بهلاك أعدائنا أم نحزن أن عدونا سار لنا أقرب.

- قد كانت هذه القلعة منيعة علينا وعلى غيرنا طوال قرون مضت، كيف استطاع أولئك الشياطين اقتحامها خلال هذه المدة القصيرة.

- حاصرهم لأشهر يا مولاي، ولم يسمح بدخول المؤن إليهم من أي منفذ كان، ويبدو أن سمعة الجيش التتاري المُرعبة قد ساهمت في جعل استسلامهم أسرع.

قام المستعصم من مكانه يزرع المكان جيئة وذهاباً وهو يفكر في الأمر ثم قال موجهاً حديثه إلى الدويدار الصغير:

- قد أوعظت لك أن نرسل إليه النفيس من الهدايا عسى أن يكف عنا، فرفضت أنت لئلا نظهر بمظهر الضعاف، فكيف نخرج من هذا المأزق الذي وضعتمونا فيه الآن.

- لسنا في مأزق يا مولاي، لطالما كانت أسوار بغداد منيعة، ولن يستطع هذا البربري اقتحامها، خاصة وإن وافقت على طلبي بزيادة عدد جند الجيش، فنحن الآن في وضع خطر.

عندما وصل الحديث لذلك تدخل العلقمي:

- لا أرى داعياَ لزيادة عدد الجند في الجيش إلا رغبة منك في زيادة سلطانك، فنحن قادرون على دحر التتار، أتريدنا أن نصدق أن جيوش خليفة المسلمين غير قادرة على التصدي لأولئك البرابرة الهمج؟

نظر الدويدار إلى العلقمي في حقد شديد:

- أما يكفيك أن قوة الجيش قد تم خفضها من ثمانين ألفاً إلى عشرة آلاف فقط، قد شُرّد الجند وهم الآن لا يجدون ما يسد رمقهم بعدما فقدوا وظائفهم.

أجاب العلقمي مستنكراً:

- إذن فالأمر مُتعلق باستعمال الرجال أتباعك وليس متعلق بالتصدي للجيش التتاري.

كظم الدويدار غيظه ورد:

- بل أريد زيادة تعداد الجيش للأسباب السابقة جميعها.

- كفى...

قالها المستعصم بصياح هادر...

- أبلغت بكما الوقاحة أن تتشاجرا أمامي، لن أخذ برأي أحدكما بعد الآن وما أقوله سوف يُنفذ.

سكت الخليفة هنيهة ثم أكمل:

- لسوف أرسل إلى هولاكو بخطاب أحظره فيه من مغبة الهجوم على بغداد ومعاداة خليفة المسلمين ولنرى ما يكون رده على ذلك.

بالفعل قام المستعصم بإملاء خطاب موجه إلى هولاكو يحظره فيه من العقوبة السماوية التي سوف تقع به إن هو تجرأ على مقام الخليفة وحاول محاربته، وحظره أن أي اعتداء على خليفة المسلمين إنما يعتبر اعتداء على مسلمي الأرض جميعاً، وأنه لن يستطيع مقاتلة مسلمي الأرض جميعاً مهما بلغت قوته.

****

الحصار الحديدي

همدان 654هـ

كانت الرسالة التي بعث بها الخليفة إلى هولاكو في غاية الضعف، ولم تردع هولاكو عن حلمه في فتح بغداد لكنها زادته عزماً عليه، فقد تأكد من ضعف هذا الخليفة وتفاهته، ومع ذلك فقد أرسل إلى نصير الدين الطوسي الذي اتخذه مُستشاراً له، ليسأله عن خبر النجوم في فتح بغداد وقتل الخليفة، فقد كان يثق في قدرته على معرفة المُستقبل وقراءة النجوم.

- لا ضير يا مولاي من فتح بغداد وقتل الخليفة إن شئت، فلن تتعرض لك السماء بسوء.

- لكن هناك من هُم غيرك من المنجمين، قاموا بتحذيري أنه سوف يمسّني الضر إن سالت دماء خليفة المسلمين على الأرض.

كان نصير الدين الطوسي يعلم بولع هولاكو بأخبار النجوم وتصديقه للمنجمين، فلم يشأ أن يخالف من سبقوه من المنجمين تمام المخالفة :

- لا ضير يا مولاي كما ذكرت لك، ويمكن التحرز من إسالة دماء الخليفة على الأرض إن تم قتله بغير إراقة دمه، فطرق القتل كثيرة ولن نعدم طريقة يُقتل بها الخليفة بغير إراقة دمه.

استأنس هولاكو لما يقوله الطوسي فأثنى عليه وأمره بالانصراف، لكن الطوسي تلكأ بعض الشئ:

- أرجو ألا ينسى مولاي الأمير وعده الذي وعده إياي بأن يقيم لي مرصد بمراغه إن تم له النصر على خليفة المسلمين.

- لك هذا، فأنا أعلم أنك ستفيدنا من خلاله بواسطة تنبؤاتك الهامة.

مرت أشهر بعد أن استطاع هولاكو إسقاط قلعة آلموت وتنفيذ أوامر أخيه منكو بقتل جميع من فيها وعلى رأسهم ركن الدين شاه، وقد زاد هذا الفتح هولاكو ثقة في نفسه... فقد استطاع إسقاط واحدة من أعتى الحصون التي استعصت على غيره من الغزاة قبله... بمن فيهم جده جنكيز خان.

فتيقن في نفسه أن حلم بغداد لم يعُد بعيد المنال، فإن استطاع الإيقاع بحصن عمره قرنين... فإن الايقاع بمدينة محّصنة مدة قرون أمر غير مستحيل،

خاصة وأنها هشة من الداخل وعلى رأسها رجل ضعيف، وطالما كان الأمر كذلك فهو ممكن ويجب تحقيقه، فقط عليه أن يحارب الشك من داخله وأن يؤكد لنفسه دوماً أنه قادر على فتح بغداد، وليتذكر دائماً أن هذا النصر العظيم سوف يُسجله التاريخ بأسمه، فقط عليه أن يتأكد من ذلك ويهجر الشك هجراً نهائياً ولا يدعه يطل برأسه المشوهة من داخله فيهاجم جنوده، فلو تسرب الشك بينهم لفسد كل شئ.

لكن التسرع في فتح بغداد أيضاً سيكون له عواقب وخيمة، فليستعد هو لمثل هذا اللقاء كأفضل ما يكون، عساه أيضاً أن يحظر من غدر الحلفاء الذين يُظهرون له الخضوع، وعساه أيضاً أن يُحرز نصراً نظيفاً يحفظ به أرواح الآلاف من رجاله.

ومع أن وقوف جيش التتار في الطريق إلى بغداد على هذا النحو كان يكلف قراقورم أموال طائلة، إلا أن الاستعجال في التقدم وملاقاة العدو سيترتب عليه نتائج فادحة، لذا كان على هولاكو أن يتريث.

قرر هولاكو أن يطيل مقامه في همدان لبعض الوقت حتى يعيد ترتيب أوراقه وينظم شئون جيشه ويعقد التحالفات، فقرر أن يكون الهجوم على بغداد من أكثر من جهة حتى يحيط بها إحاطة تامة ويمنع وصول المدد إليها، فجلس يناقش الأمر مع كتبغا قائلاً:

- إذاً أنت توافقني على تقسيم قوتنا.

- نعم، فالطرق إلى بغداد لن تتحمل مرور جيشنا بكامل قوته، فعددنا يناهز المئتان وستون ألف مقاتل.

- وإن انقسمنا، فلن يَعرف أعداءنا عددنا الحقيقي، فسوف يظنون أن أحد أجنحة جيشنا هي كل ما نملك.

- وكيف نويت تقيسمنا؟

- أرى أن أقود جيش الوسط جهة الشرق، على أن تكون أنت على رأس جيش موازي يكون بمثابة الجناح الأيسر لي ويحاصر بغداد من جهة الجنوب.

- وماذا عن بيجو؟

- سوف يحاصر بغداد من جهة الشمال الغربي، وعليه أن يحث الخُطا حتى يصل معنا إلى أبواب بغداد في نفسِ الوقت.

- ومتى نتحرك؟ فقد مل الرجال الانتظار والبقاء هنا يكلفنا أموال طائلة.

- فلنتحلى بالصبر يا كتبغا، فتلزمنا الكثر من الترتيبات قبل الإقدام على هذه الخطوة الهامة، فلا نريد أن نغتر بحال أعدائنا، ويجب علينا أن نهئ لأنفسنا كل سُبُل النصر حتى لا نندم يوم لا ينفع الندم.

- وما الترتيبات التي تريد إنفاذها ؟؟.

- قد أرسلت إلى بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل والعزيز صاحب دمشق وغيرهم من أمراء المسلمين ليتحالفوا معنا لفتح بغداد.

رد كتبغا متعجباً:

- لكن ما قيمة أولئك؟، فهم في غاية الضعف ولن يُمثلوا اضافة حقيقية لجيشنا.

- معك حق هم ضعفاء، ووجودهم لن يمثل أي إضافة مادية لجيشنا، لكن يمثل إضافة معنوية هامة، فعندما يعلم الخليفة ورهطه أن مسلمين مثلهم يقاتلونهم معنا فسوف يفت ذلك في عضدهم ويوهن من كيدهم.

- تدبير محكم، وحتى يعلم هذا الأفاق أنه ليس ملك على جميع المسلمين كما يدعي دوماً.

- أريد أيضاً من تريثنا أن أستفيد من العلقمي أكثر ما يكون، فقد طلبت منه أن يوحي إلى المستعصم بضرورة تقليص أعداد جيشه بقدر الإمكان، وهو الأمر الذي تمَّ بالفعل، فتعداد جيش الخلافة الآن لا يتعدى العشرة آلاف مقاتل، أما ما انتظره منه الآن فهو أن يرهب أعداءنا منا... فيدفع إلى الشعراء والناس في الأسواق ليتحدثوا عن بأسنا وقوتنا، وقدرتنا على أن نأكل كل وأي شئ، وعن قوة أسلحتنا... وثبات خيولنا وأن نساءنا يقاتلون مثل رجالنا، فلا يجرؤ أحد على المقاومة.

- نعم الرأي يا هولاكو، وأنا في ظهرك، أدرب الجند وأحفزهم حتى تحين الساعة ويتحقق الحلم.

لم تمر أيام حتى جاء الرد من أمراء المسلمين وقد قبل أغلبهم الانضمام إلى جيش التتار في حربها على بغداد، شعر هولاكو وقتها بالغبطة، فهاهم أبناء الدين الواحد يقاتلون بعضهم البعض خوفاً منه ومهابة لمكانته.

لا شك أن انضمامهم إليه سوف يوهن قلوب أعداؤه، ولسوف يشعرون بالعزلة... فحتى إخوانهم سوف يوجهون نسالهم إلى صدورهم بغير استحياء، ولسوف يشعرون أن العالم جميعه ضدهم، فلا أحد يقف أمام المارد التتاري.

عند وصول تلك الردود المُبشرة بالخير إلى هولاكو... قرر التحرك من همدان إلى بغداد على التشكيل الحربي الذي ذكره من قبل لكتبغا فشره

يسأله...

- هل نحن مستعدون للتحرك؟

- نحن مستعدون منذ أمد بعيد وفي انتظار أوامرك.

- قد ورد إلينا الرد من أمراء المسلمين بالموافقة على الانضمام إلينا في غزو العراق، وأرى أن نتحرك بمجرد أن تصل لنا سرايا المسلمون.

- ممتاز، وحينئذٍ يكون قد اقترب جيش بيجو فتتزامن جميع تحركاتنا.

****

مرت أسابيع أخرى حتى اقترب بيجو بجيشه، وقد أرسل إليه هولاكو أن يتحرك مباشرة ليرابط على الحدود الغربية لبغداد ومنها إلى شمالها، ووصلت السرايا الخاصة بالعزيز صاحب دمشق، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لتشارك التتار في حملتها العسكرية.

تحرك قرابة مائتان وستون الف مقاتل تتاري صحبة بعض السرايا المسلمة قليلة العدد صوب أسوار بغداد، وكان يسبق الجنود قوات صغيرة استكشافية للتيقن من عدم وجود أي أكمنة أعدها الخليفة للجيوش المتقدمة، وللعجب لم تجد القوات الاستكشافية أي استعدادات لملاقاة القوات التتارية، بل ولم يجدوا حتى أفراد مُراقبة لتحذر بغداد من الغزو المُرتقب.

وصلت الجيوش الثلاثة كما قسمهم هولاكو إلى أماكنها ورابطت فيها، فاستقر بيجو غرب بغداد وكتبغا على جنوبها، وهولاكو على شرقها، وضُرب الحصار على بغداد، ومنع عنها المدد، وتمت محاصرة جميع القوافل التجارية وتم نهب جميع ما مر منها بغير استثناء، وبلغت الخسائر الاقتصادية التي تكبدتها بغداد حدود غير مسبوقة.

****

انتقام الخصيان

القاهرة 654هـ

كان قطز على دراية بالصراع القائم بين شجر الدر وسيده سلطان مصر عز الدين أيبك، فقد بات الآن من أخلص فرسانه ومستودع أسراره، خاصة من بعد ما استجاب له في العديد من عمليات الاغتيال التي ابتدأها بالمشاركة في قتل توران شاه ونهاها بقتل أقطاي.

كان ذلك التحول الحاد في شخصية قطز السبب في ابتعاد فوّاز عنه، فمنذ مشاركته في قتل توران شاه استطاع قطز الاقتراب من عز الدين أيبك لكنه ابتعد عن فوّاز بنفس القدر، فلم يستطع الفتى تقبل ذلك الشخص الانتهازي المُستحل للدماء في سبيل تحقيق مجده الشخصي، أما أيبك... فكان يرى في طاعة الفتى المُطلقة مدعاة للثقة فيه والاعتماد عليه، فقربه منه وجعله بمثابة الحارس الشخصي والأمين على جميع أسراره، وكان أيبك يبث لقطز همومه فيشتكي له من تسلط شجر الدر، وكان قطز هو من جرأ أيبك أن يخرج من شرنقة شجر الدر ويثور عليها ويراجع زوجته بل وأن يتزوج من أميرة من الأميرات حتى تعدم شجر الدر أي شبهة لها في عرش مصر.

عرف قطز أن فوّاز من أولئك الذين يتمسكون بالمبادئ والمُثُل على نحو ساذج، فلم يعد يعتمد عليه ولم يعد يصارحه بما يعمل في نفسه من هواجس، أما فوّاز فصار يصدق أن قطز سيكون له شأن، فهو انتهازي ذكي يعرف من أين تؤكل الكتف، لكنه ما بات يكن له كثير من الاحترام والتقدير، وكان قطز يشعر الآن بقدر متزايد من القوة... فالذي جعل من عز الدين أيبك سلطاناً لمصر قادر على أن يجعله سلطاناً عليها، فلم تكن قدرات عز الدين أيبك فذة في نظر قطز، وكان يرى في نفسه أنه أقدر منه وأحق منه بتلك المكانة، لذلك قرر قطز إعمال الوقيعة بين شجر الدر وأيبك، خاصة بعدما ساعدته الظروف على ذلك، فأيبك لا يكاد يطيق تدخل شجر الدر السافر في شئون الحكم، وهي باتت قلقة منه أن يقوم بتهميشها، أما الآن وبعد أن أوعظ إلى سلطانه بالزواج من غير شجر الدر، فقد بات على يقين أنها الآن تتمنى موت زوجها، وقرر من الجهة الأخرى أن يساعدها على إنجاز ما تريد، فيخلوا له وجه المُلك، استطاع قطز ترتيب موعد مع شجر الدر، وعندما دخل عليها بلاطها سألته..

- طلبت مقابلتي يا قطز، ماذا تريد؟

نظر قطز حوله في إشارة منه أنه لا يستطيع التحدث أمام الحُجاب والحرس، التقطت إيماءته وأشارت إليهم بالابتعاد قليلاً، فوسَّعَ الجميع من المساحة التي تفصلهم عن سلطانتهم وضيفها، فعادت تنظر إليه مُنتظرة منه الحديث.

اقترب قطز بضع خطوات من السلطانة، فنفر الحرس جهته خائفين أن يقوم بإيذاء سلطانتهم لكنهم استكانوا بإشارة من يدها، فخفَّضَ قطز من صوته:

- أعلم أنكِ تريدين الخلاص من عز الدين أيبك، وأريد أن أكون ردئاً لك في ذلك.

ضحكت شجر الدر ضحكة عصبية عالية وقالت بصوت سمعه الجميع:

- ولماذا أصدقك وأنت فارسه الأمين المختار.

- لن تخسري شيئاً فقد رد أيبك زوجته إليه وهو يعتزم الآن أن يتزوج من ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ، وقد مرّت الأسابيع الطوال بغير أن يحاول مراضاتك أو حتى المكوث في حضرتك، فأنتِ الآن في وضع لا تُحسدين عليه.

خفَّضَت شجر الدر من صوتها بعض الشئ:

وما تقترح أنت؟ همس قطز إليها بصوتٍ لا يسمعه إلاها:

- لا سبيل إلا الخلاص من عز الدين أيبك، فلترسلي رسلك إليه لمراضاته حتى يأتي إليك ظاناً أنك قد انكسرتي لإرادته وتنفردين به في قصرك هذا ولتقضي عليه.

همست شجر الدر متفكرة:

- وهل سيسقط أيبك في ذلك الفخ؟

- قد اعتاد أيبك التحدث معي وأخذ مشورتي فيما هو مقدم عليه من أمور، ولسوف أشجعه وأحسن له من أمر مراجعتك حتى يأتيكِ طائعاً.

- وما مصلحتك من جراء ذلك؟.

- أيبك لن يستطيع المكوث على عرش مصر طويلاً، وأريد أن يكون لي جميل مع من أتوقع أن يأول إليهم الأمر.

سكتت شجر الدر لوهلة ثم قالت:

- ستعلم ردي لعرضك إن تحدث إليك أيبك بالفعل في شأن دعوتي له في القصر، وعندئذٍ سوف أقف على مدى صدقك في جميع ما تقول.

- غداً تتأكدي من إخلاصي لك يا مولاتي، وكما يُقال... إن غداً لناظره قريب.

****

تصلب جسد أيبك وهو مغمض العينين وهو في ذروة شهوته بين ذراعي شجر الدر، أخذت يداه تتشبثا بالفراش بقوة وقد برزت شرايين يده، بينما أخذت شجر الدر تتأمل في الفراغ الكائن خلف ظهر زوجها، تحاول أن تصرف عن نفسها الشعور بالاشمئزاز والغضب... فهل خالها ذاك المأفون أنها ستكون واحدة من جُملة حواظيه!! لا بأس... فقريباً سيذوق وبال أمره وسيحيق به ما حاكت له.

كان قلب شجر الدر ينبض بقوة من شدة الغضب، وتوهم أيبك أن ذلك من فرط نشوتها، وعندما انتهى انقلب من عليها وبات يحملق في سقف الغرفة راضياً وهو زائغ العينين وقد التصقت خصلات شعره بجبينه وتعرق صدره وجميع وجهه، حاول أيبك أن يضم شجر الدر إليه بعد أن انتهى عساه أن يداعب محاسنها... لكنها لم تعد تحتمل المزيد، فانقلبت على جنبها كي لا يرى وجهها الغاضب:

- هيا كفاك كسلاً، دعنا نستحم ونتنزه في حديقة القصر لبعض الوقت، فقد أعد الغلمان لنا جلسة نتناجى فيها أنا وأنت.

كان أيبك يظن أنه ملك الدنيا وما فيها في تلك اللحظات، فها هي شجر الدر سلطانة مصر والتي كانت تتكبر عليه وتعايره طوال الوقت أن لها الفضل عليه فيما هو فيه من سلطة وإمارة ...ترضخ له، بل وتوافق أن تكون زوجة ثانية، وما العجب في ذلك وقد أصبح سلطان مصر وقد نجح في أكثر من اختبار صعب ... فقد واجه الأيوبيين، وأخمد الفتنة الواقعة في الشرقية[77]، فليس بكثير عليه أن يسيطر على عقل امرأة، تذكر حينئذٍ صفيه قطز... فهو الذي شجعه أن يوافق شجر الدر في دعوتها إليه في قصرها رغم أنه كان متوجس من تلك الزيارة، لكن قطز شجعه على القيام بتلك الخطوة، ليكون لهذا الفتى الفضل فيما يشعر به الآن من متعة وتدليل، قال أيبك لشجر الدر:

- لا بأس سوف أسبقك إلى الحمام.

قام أيبك من الفراش وارتدى سرواله الداخلي وخرج من الغرفة، عندها قامت شجر الدر من الفراش بغتة وأخذت تبثق في منديلها أثر لعاب أيبك من

فمها وأخذت تنظف نفسها مما علق بها منه في سرعة وغضب، بعدها تطيبت وأخذت ترتدي ملابسها الفاخرة التي اعتادت ارتدائها في تلك الفترة الزهيدة التي توّجت فيها سلطانة على مصر ثم أسرعت خلف أيبك إلى الحمام.

عند باب الحمام كان ينتظر شجر الدر خمسة من الغلمان والخصيان اتفقت معهم على تفاصيل قتل أيبك، وباشارة من رأسها انطلق الغلمان الخمس داخل الحمام ليفاجئ بهم أيبك يقتحمون عليه خلوته...

أيبك زاعقاً:

- من سمح لكم بالدخول فما طلبت شيئاً.

انساب أقوى الخصيان جسماً خلف أيبك وقام بشده من المغطس من تحت ابطيه ليصطدم بالأرض بعنف، في حين ما لاحقه الثلاثة الآخرين فقيدوه إلى الأرض وقد أمسك كل رَجُل بقدم من أقدام أيبك مباعدين بينهما ليبرز قضيبه أمام الجميع، كان أيبك يشعر بالإهانة الشديدة وأخذ يرتج على الأرض يحاول التخلص ممن يقيدوه وفي غمرة محاولاته للتخلص رأى شجر الدر تبرز من خلف الخصيان وقد جلست على المقعد الوثير الموجود بالحمام الذي تسائل أيبك في لحظات سابقة عن سبب وجوده، وكان بجانب المقعد منضدة صغيرة عليها بعض المشروبات والأطعمة الخفيفة.

شعر أيبك وقتها بالغدر وأدرك الفخ الذي نصبته له شجر الدر فصارت تشنجاته أكثر شدة في محاولة منه للتخلص من الخصيان... لكن هيهات، جلست شجر الدر بغير أن تنبس ببنت شفة وقد نظرت لوجه أيبك لوهلة ثم ركزت نظرها على قضيبه، أكان يظن ذاك المغرور أنه سيتجول بآلته تلك في فروج النساء من بعد أن يدسه داخلها، أياً كان فقد حان وقت العقاب.

وبإشارة منها اندفع الخصي الخامس الذي لم يشارك في تقييد أيبك من البداية وفي عينيه نظرة تشفي واضحة، فقد كان يشعر بالحقد على أولئك السلاطين الذين خصوه في زمن غابر، وكان طوال الوقت يريد التشفي وقد جاءته الفرصة الآن على طبق من ذهب، فاتفق مع زملائه وبذل لهم العطايا ليكون هو من يقوم بإخصاء السلطان أيبك.

اقترب الخصي من أيبك ونظر إلى وجهه وهو يبتسم ابتسامة متشفيه، ثم نظر إلى قضيبه وانكفأ عليه، وبدا له ذكر السلطان منتفخاً ومستفزاً فمد يده وعصر خصيتيه، فصرخ أيبك من شدة الألم وتشنجت أطرافه في يد مقيديه ولوى رقبته إلى الخلف، قامت شجر الدر من كرسيها من فرط الإثارة ورغبة منها أن لا يفوتها فائتة من العرض... فركزت ناظريها على قضيب زوجها الموشك على الانفصال من جسده، رشفت رشفة أخرى من كأس شرابها بغير أن تشعر بطِعمه لترى الدم يتدفق من بين قدمي زوجها فيُغرق الأرض

من تحته مُختلطاً بالماء، عندها شعرت شجر الدر بعدم الرغبة في مشاهدة المزيد ... وقررت أن تنهي العرض سريعاً فأشارت إلى الخصي الممسك بزوجها من إبطه فقام بلي رقبة أيبك ببطء وبلاده ليكسرها وتنتهي آلامه[78].

كان قطز على دراية بما يدور في القصر وكان في جملة حرس أيبك الذين ينتظرونه أسفل القصر، وعندما طال الوقت... أيقن أن لابد أن تكون شجر الدر قد أنهت خطتها وقتلت أيبك، عندئذٍ شرع يصرخ في أتباعه:

- قد تأخر سلطاننا، لابد أن السوء قد مسه من قبل زوجته الخائنة، هي مكيدة قد حاكتها تلك الأفعى لتتخلص من أميرنا السلطان.

رد فوّاز بصوت خفيض وقد شعر أن لقطز يد في جميع ما يحدث:

- هما زوج وزوجه لعلهم يتسامرون معاً لا نستطيع الجزم بشئ.

- قد يكون ما تقول ولكن يغلب الظن لدي أنها المكيدة، فما علينا الآن إلا الاطمئنان على مولانا السلطان.

خاف جمع المماليك أن يوافقوا فوّاز فيما يقول فيتهمهم قطز ومن والاه بالخيانة والتقاعس عن خدمة السلطان، فقرروا الانضمام إلى جبهة قطز، وبدأ مماليك عز الدين أيبك "المماليك العزية" في اقتحام القصر فوجدوا سلطانهم وقد مات وشوه بتلك الطريقة البشعة فقبضوا على شجر الدر وبعد تحقيق قصير مع من في القصر وقفوا على شخص الخصيان الذين مالئوا شجر الدر في ارتكاب جريمتها فأمر بهم قطز ليصلبوا على أبواب المدينة، أما شجر الدر فقد قرر قطز أن يتم تسليمها إلى "أم عليّ" زوجة أيبك السابقة لتنتقم منها بنفسها، كان قطز ملئ بالثقة يدير المكيدة التي حاكها بمنتهى الثقة والمهارة وقد شعر أن أمر تسيده على تلك البلاد قد اقترب.

دخلت شجر الدر على أم علي التي كانت جالسة على عرشها، فنظرت أم علي إليها بتشفي وأمرت جواريها أن يجردن شجر الدر من ملابسها، ففعلوا، ثم أمرت الجواري أن يمسكن شجر الدر بقوة وأشارت إلى آخرين لينهالوا على جسدها بالقباقيب الخشبية الثقيلة، ولم تنسى أن تأمرهم بتولية اهتمام خاص لمكمن شجر الدر وثدييها، ففتحن الجواري ما بين قدمي شجر الدر وأخذن في ضربها بالقباقيب حتى تشقق الجلد من تحت موضع الضرب وباتت شجر الدر تصرخ من شدة الألم، واستمر الجواري في الضرب حتى زهقت روح شجر الدر، فقامت أم علي برميها من القصر ولم يجرؤ أحد على دفنها فبقيت جثة هامدة عارية مدة أيام حتى تم دفنها في النهاية.

****

موقعة الأنبار

بغداد 655هـ

- هل بلغت المهزلة إلى هذا الحد!، فهل أعرف بمقدم التتار فقط وهم على بعد بضعة كيلومترات من أسوارنا.

صاح المستعصم بعبارته بغضبٍ حقيقي ملقياً اللوم على من حوله... في الحين الذي طأطأ جميع الحضور روؤسهم، لكنهم كانوا يلقون اللوم على المُستعصم نفسه وإن جبنوا عن مواجهته بتلك الحقيقة، فلم لم يأمر هو بتحسس الزحف التتاري ولم يهتم بمتابعته؟!! فقط اكتفى بخطابه الركيك الذي أرسله لهولاكو يتوعده فيه بعقاب السماء إن هو اجترأ على مقام الخليفة، ويبدو أن هولاكو لم يعبأ بعقاب السماء وأتى لمقامه هذا ليحصد روحه وأرواح رعيته.

تسرب يقين قوي لدى المستعصم أن من حوله يخونه، فوجه حديثه إلى وزيره وقد احمر وجهه من أثر الانفعال والغضب:

- وأنت أيها العلقمي ألم تزل تقنعني بأن غزو التتار لبغداد أمر غير وارد، حتى صدقتك لحين وصولهم إلى أسوارنا.

لم يرد العلقمي على الخليفة ووقف مطأطأ الرأس، فقال سليمان شاه وهو ينظر إلى العلقمي في لوم:

- فلتسامحني أيها الخليفة، فقد دأبت على بابك أطلب منك زيادة عدد المقاتلين في الجيش بدلاً من تسريحهم، لكن العلقمي كان دوماً يُقنع جلالتكم بالعكس.

نظر الدويدار إلى العلقمي والخليفة نظرة يشوبها شئ من التشفي، فقد أرغى وأزبد لبيان أهمية زيادة قوام الجيش بغير أن يستمع إليه أحد، الآن دعهم يندمون...

رد المستعصم باستهزاء:

- وما الحل الآن يا أهل الحل والعقد، فقد ضُرب الحصار على مدينتنا وأصبحت التجارة الآن في خبر كان، وكأن الفيضانات التي تضرب البلاد والتي شردت الآلاف والفتن الواقعة بين السنة والشيعة والنصارى غير كافية، ما العمل الآآآآآن؟

بدا الخليفة يندب حظه العثر عنه يريد حلاً لتلك الكوارث التي حاقت بعاصمة الخلافة، حاول العلقمي التخفيف من غضبة الخليفة قائلاً:

- فلنبتعد عن الانفعال يا مولاي، فلن يجدي في شئ، وتلك الأزمات التي أصابت البلاد قد أصبنا بمثلها في السابق وخرجنا منها، أما التتار فهم لن يستطيعوا اقتحام تحصينات بغداد وثغورها، فسوف تكون عصية عليهم كما كانت عصية على من قبلهم.

صاح الدويدار الصغير بانفعال:

- كفاك تهوين للأمور، أنت من وصل بنا إلى تلك الهاوية، والأن تريد لنا السقوط.

لم يعترض المستعصم على صيحة الدويدار الصغير، وكأنه يوافقه على ما قال، الأمر الذي ألجم العلقمي، وشجعَ الدويدار الصغير على الاسترسال:

- لابد من مقاومة الغزاة يا مولاي، هم قوم لا عهد لهم ولا ذمة، فلتسمح لي أن أخرج صحبة سليمان شاه لأواجه تلك الجيوش المُتجمعة على أسوار بغداد من قبل أن يجترأوا على اقتحامها.

لم يجرؤ العلقمي على الاعتراض هذه المرة، فنظر إليه المستعصم ليجده مستغرق في صمت مُطرق، فنظر إلى الدويدار ليتثبت من صدق عزمه:

- لك هذا أيها الدويدار، وليكن النصر حليفكما أنت وسليمان شاه.

وافق المستعصم على تلك المحاولة الأخيرة لمُجابهة التتار، خاصة وأنه لن يقود قواته بنفسه، فسوف يدفع غيره ثمن تلك المحاولة وهو آمن في كنف أسوار بغداد، وعلى كل حال فلن يُسلمه جميع الجند، ولسوف يحتفظ لنفسه داخل الأسوار بعدد كافي من الرجال ليقوموا بحمايته.

انحنى الدويدار وخلفه سليمان شاه في احترام وانصرفا ليتجهزا للخروج على رأس الجيش.

****

في فجر اليوم التالي استطاع الدويدار الصغير وسليمان شاه أن يجمعوا جيشهما ساعدهما في ذلك قلة عدده وعتاده، وفُتحت أبواب بغداد الشمالية ليخرج جيش الدويدار الصغير وسليمان شاه منها، ليقابلوا جيش بيجو الرابض هُناك، ودارت معارك طاحنة ما بين الجيشين، ولاح النصر لجند الخليفة لكن فجأة ظهرت قوات أخرى غير جيش بيبجو لتشّرد بجيش الخليفة من الخلف، فقد كان يعتقد الدويدار الصغير أن جيش بيجو هو الوحيد الرابض على أسوار

بغداد غير عالم بأن الجيش التتاري قد قُسم إلى ثلاثة أقسام ... ليحاصر كل قسم جهة.

استطاع سليمان شاه والدويدار الصغير أن ينجوا من مذبحة التتار بمُعجزة حقيقية، فقد أفنى التتار كل جيشهم إلا النذر اليسير، ودخل القائدان بغداد مرة أخرى من بعد الهزيمة النكراء ليختبئوا خلف أسوارها.

رجع الدويدار إلى الخليفة يجر أذيل الخيبة من بعد ما وعده بالتصدي للجيش التتاري وإبادته عن بكرة أبيه، حزن الخليفة لما أصاب جيشه لبعض الوقت، لكن العلقمي عاد وطمأنه إلى مناعة أسوار بغداد وأنها مسألة وقت قبل أن ييأس التتار ويتركوا بغداد لحالها ويحاولوا الهجوم على غيرها من المدن الضعيفة.

وللعجب فقد صدّق الخليفة العلقمي، واقتنع بمِنعة أسوار بغداد وقرر الانتظار داخلها، وجعل نفسه تُصدق أن الجيش التتاري لن يقوى على اقتحام مدينته، وشرع يتسلى بما يبهجه ويسعده ويروح عن نفسه هموم الحكم وينسيه هم الحصار المضروب على مدينته، فبعد أن مر بعض الوقت قضاه الخليفة في الحزن والتأمل أرسل في طلب جاريته عرفة التي طالما أطربته بطلاوة صوتها وجمال عزفها، ولما فرغ منها نام قليلاً ثم تجول في حديقة قصره يستمتع بأزهارها واعتدال جوها، وعندما كان يمل من ذلك كله كان يذهب لمُلاعبة الحمام، وكان يكره وهو على هذه الحالة أن يأتيه أحدهم بسيرة التتار وجيشهم الرابض على حدود مدينته، وكان يتعامل مع الأمر كأنه لا يراه البتة.

لكن هولاكو على الطرف الآخر من أسوار المدينة ملّ الانتظار، وكان لا يرى داعياً لأن ينتظر أكثر خاصة وأنه طلب من الخليفة أكثر من مرة أن يستسلم ويهد الحصون ويردم الخنادق وهو يماطل ولا يريد التنفيذ، والجو يزداد برداً يوماً عن ظهر يوم، وجيشه لن يتحمل البرد القارص إن نزل عليهم خلال الأسابيع القادمة لذا اتخذ هولاكو القرار، وشرع يرمي بغداد بالمجانيق والمقاذيف النارية، وسار يمطرها بوابل من السهام بواسطة رماة مهرة تم إرسالهم خصيصاً من قبل أخاه قبلاي خان من الصين.

وأثناء غارة من تلك الغارات التي كان يشنها الجيش التتاري حدث وأن نفذ أحد سهامهم داخل جناح المُستعصم، وكان وقتها يتلهى عن الحصار بملاعبة جاريته عرفة، وكانت في حينها ترقص بين يديه فأصابها سهم تتاري عرف طريقه خلال نافذة الخليفة ليرشق في ظهرها، ليفوجئ الخليفة بُدفعة من الدم تنطلق من فم جاريته وقد أخذت تتشنج وتنتفض حتى هوت جثة هامدة أمامه على الأرضية الرخامية.

فزع المستعصم أشد ما يكون، فقد كان يحب عرفة من شغاف قلبه، فقد كانت له السلوى بين كل تلك المآسي التي يعيشها، وأخذ يصرخ وينادي على الحراس حتى دخل عليه الحرس المعينين على غرفته، وتناقل الجميع الخبر في القصر، وأن سهماً تتارياً اخترق جناح الخليفة ليستقر في ظهر جاريته المفضلة ويحصد روحها.

لما سمع العلقمي بالخبر هرع إلى جناح الخليفة ليكون جانبه في مصيبته، فهو يعرف مدى تعلق الخليفة بتلك الجارية، ولما وصل إلى الجناح أخذ الخليفة يصرخ في وجهه:

- طالما أكدت لي مناعة أسوار بغداد، ولم تستطع تلك الأسوار المنيعة حماية من هُم في جناح الخليفة، اقترب أيها المجرم لتشاهد ضحيتك وتبصر ما صنعت يداك.

سكت العلقمي ولم يُجادل الخليفة، فقد كان يعرف مدى غضبته وحزنه على وفاة عرفه، في حين ما أخذ الخليفة يسب ويلعن جميع من حوله، وقد أيقن أن العلقمي خائن لا ريب، ورغم كل ما حوله أخذ الخليفة يتوعد التتار وأنه سوف ينتقم منهم، وسوف ينزع رؤوسهم حتى آخر رجل فيهم، وأن هولاكو سوف ينال جزاءه وأنه سوف يفعل به الأفعايل.

تركه العلقمي يهذي بما يريد حتى هدأ تماماً، ثم قال:

- مولاي الخليفة، هو سهم طائش، شاءت إرادة الله أن يصيب تلك الجارية المسكينة، لكن الأمر لا يعني أن أسوارنا غير منيعة، هي مصادفة مُحزنة ليس أكثر، ولسوف نضاعف الحماية على قصر التاج، ولسوف نزيد من الستائر التي يتم تثبيتها على نوافذ القصر لئلا يحدث مثل ذلك ثانية.

أخذ الخليفة ينظر إلى العلقمي بمقتٍ واضح، ثم ترك الجناح بغير كلمة واحدة وبغير حتى أن يودع جاريته بنظرة، وقرر الاعتصام في جناح آخر... وكان قليل الكلام مع من حوله قد أصابه الحزن والكدر، واستمر الحال كذلك بضعة أيام حتى حدثت الفاجعة، فقد انهارت الأسوار الشرقية لبغداد تحت وطأ المقاذيف التي أخذ يطلقها هولاكو من المجانيق ليدرك الخليفة أن حتى أسوار بغداد صارت غير منيعة، وأنه لا شئ الآن يمنعه من هجمة التتار عليه وعلى بلاده ورعيته.

وقتها شعر الخليفة بانفراط حبات العقد من بين يديه، وأنه الآن يسير في طريق لا يملك الحيد عنه، وأن ما سوف يحدث سوف يحدث بغض النظر عن أي تدخل أو قرار يصدر منه، لذا قرر أن يرسل من يتفاوض مع هولاكو في شأن الصلح واستسلام بغداد، وبالطبع خاف الدويدار الصغير وسليمان شاه أن

يكونوا ضمن الوفد المرسل للتفاوض، والحقيقة فقد كانت معنوياتهم في الحضيض الأسفل، وما قبل القيام بتلك المهمة إلا مؤيد الدين العلقمي والبطريرك النصراني ماكيكا.

وصل مؤيد الدين العلقمي والبطريرك إلى هولاكو في غضون ساعات، فقد باتت المسافة الفاصلة بينهما الآن في غاية القصر، ورأى هولاكو العلقمي لأول مرة وآثر أن يلتقي معه في عزلة من البطريرك ماكيكا... فأخذ يرحب به مُفتحصاً إياه:

- كيف حالك أيها العلقمي، سعيد أني أراك للمرة الأولى، فقد أسديت لنا رسائلك الكثير من العون.

- السعادة والفخر لي أنا يا مولاي أن التقيت بملك قوي كريم مثلك.

- أحكي لي، ما حال المستعصم الآن وفيمَّ يفكر؟

- هو مُقطع الأوصال، لا يدري ما يفعل وقد سكت عنه مستشاريه الآخرين الدويدار الصغير وسليمان شاه، وحتى ابنه أحمد أبا العباس لم يحاول الظهور كحاله من قبل.

- وما عدد الجنود القائمين على الثغور الآن؟

- أقل مما يظن مولاي هولاكو، فالثغور مع كثرتها لا تجد من يحميها من الجند، فقد قضيتم على جُل الجيش في حربكم الأخيرة على أرض الأنبار.

- إذن فخليفتك لا يملك شيئاً يواجهنا به الآن؟

- هو كذلك يا مولاي.

- أفكر أن أتركه من بعد هدم الثغور قائم على أمر البلاد بعد أن أقلم براثنه... وأضمن ولاءه لقراقورم ومنكو خان العظيم.

ظهرت إمارات التوتر على وجه العلقمي، فقد تعاهد مع هولاكو للتخلص من حكم المستعصم الظالم، و حتى ينتقم لتلك الجرائم التي ارتكبها هو وابنه وقائد جيشه في حق أهله وأبناء طائفته في الكرخ والكاظمية، فرد على هولاكو بعصبية وتوتر:

- هو أمر لا يُضمن عواقبه يا مولاي الأمير، فحالما تستدير عن بغداد فسوف يحاول المستعصم استمالة الرجال والثورة على حكمكم بل ومقاتلتكم، وحتى إن هو رضخ لشروطكم التي أمليتموها عليه، فلسوف يستفزه العلماء وعامة المسلمين للثورة ضدكم والثأر للإسلام.

سكت هولاكو وأخذ يفكر في حديث العلقمي :

- لا عليك من هذا الآن، فلتخبر خليفتك، أني أقبل الصلح ولسوف أزوج أكبر أبناؤه أحمد أبا العباس لبنت من بناتي كدلالة على قوة التحالف بيننا، وأنه سيكون هُناك معاهدة سلام بيننا وأنه سيبقى على كرسي الخلافة فيحكم تحت الرقابة التتارية، ولسوف أتعهد بإعطاء الأمان لجميع رعيته من أهل بغداد.

زاد قلق العلقمي لكنه لم يستطع مجادلة هولاكو أكثر واضطر للاستئذان والانصراف، صاح هولاكو في العلقمي بعد أن استدار:

- لتخبر البطريرك أنه يمكنه الدخول الآن.

فاستدار العلقمي ليواجه هولاكو ويشير له بإمارات السمع والطاعة حتى خرج من الخيمة.

دخل البطريرك على هولاكو في خيمته، فتفحصه الأخير بناظريه حتى مثل بين يديه ثم سأله:

- كيف حالك يا ماكيكا؟

- بخير حال يا مولاي الأمير.

- كيف حال شعبك في بغداد أيها البطريرك؟

- صراحة يا مولاي الأمير... هم يدعون أن الإسلام دين عدل لا يفرق بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، لكن الأمر غير ذلك، فكثير منا يقع عليه المظالم بغير أن نستطيع ردها، ونعامل معاملة غير عادلة في ظل الخلافة العباسية، وصراحة نريد الانتقال منها إلى مظلة أعدل وأرحب.

- لسوف تجدون في كنفنا العزة، ولن يمسكم منا السوء، هذا عهد مني... وكيف حال الناس في بغداد؟

- هم في فوضى منقسمون،لا يجتمع إثنان منهم على كلمة ... فالشيعة ضد السنة والإثنان ضدنا، وهناك بوار في السلع وفساد في التجارة ودمار بسبب الفيضان العظيم الحادث العام المنصرم... والذي لم تحرك دار الخلافة ساكناً للتخفيف من وقعه على الناس، فلازال الناس يعانون من أثاره إلى الآن، والجيش قد تم تسريح أغلبه، وبقى الجنود بغير عمل يتسولون على أقوات الناس، كل ذلك والخليفة مستغرق في لهوه منهمك في حياته الخاصة.

أخذ هولاكو يستجوب البطريرك ليستوثق من صدق ما أخبره به العلقمي حتى اطمأن إلى صحة جميع ما وصله فآذن له بالانصراف، وطمأنه أن أوضاع

المسيحيين ستكون أفضل إن كتب لهم النصر وفتحت بغداد على أيديهم، وأن عليه أن ينقل للخليفة الرسالة التي حَمَّلَ بها العلقمي، وأمره أن يسأله عنها ويفهمها منه، أشار له البطريرط بالفهم ووعده بالتنفيذ وانحنى وانسحب من خيمة هولاكو هو الآخر.

عاد العلقمي والبطريرك إلى الخليفة يخبرونه بسماحة هولاكو ومكنة الصلح مع التتار وذلك بالشروط التي أملاها عليهم هولاكو، وبالطبع لم يكن المُستعصم يملك رفاهية الرفض أو الجدل رغم شعوره الباطني أن العلقمي وماكيكا يخدعونه، فبعث مع مبعوث له إلى هولاكو أنه يوافق على جميع الشروط التي تم اشتراطها.

عندما وصل المبعوث الخاص بالخليفة إلى هولاكو ثارت ثائرته فصاح فيه بصوتٍ هادر...

- ما يظن نفسه خليفتك، حتى يرسلك أيها الحقير لإعلان موافقته على شروطنا التي أنعمنا بها عليه، ألا يعلم هذا الحقير أني استطيع اقتحام قصره عليه وقتله وحرقه وحرق عائلته ورعيته وبلده.

أخذ المبعوث يرتعد وقد أيقن أن نهايته اليوم على يد هذا الأمير الغاضب، فأكمل هولاكو:

- أخبر خليفتك أن هذه فرصته الأخيرة فليأتي بجميع أعيان بغداد صحبة العلماء وكبار رجال الدولة ووزرائها، وليصحب معه سليمان شاه والدويدار الصغير وأبناؤه جميعهم، فليأت الجميع إلي هنا يقدمون فروض الولاء والطاعة حتى أقبل العفو عنهم، واعلمه أنه خذلني في السابق أكثر من مرة عندما رفض التعاون معنا للقضاء على طائفة الحشاشين، وعندما أرسل إلي تلك الهدايا الحقيرة، وعندما تجرأ وحارب جيشي على أسوار بغداد، والآن يُرسلك أنت أيها الحقير إلى أمير جيوش منكو خان قاهر العالم، فلتعلمه أن تلك هي فرصته الأخيرة، وان لم يحسن استغلالها وأخطأ في حقي ثانية... فلسوف يجدني فوق رأسه أقتل أبناؤه وأضاجع نسائه وأحرق مدينته وهو ينظر.

أخذ المبعوث في الانحناء على نحو هستيري وهو يرجع إلى الخلف في محاولة للهروب عن وجه هولاكو من قبل أن يقضي بموته، فقال له هولاكو قبل أن يغادر مدخل الخيمة:

- ستجد ورقة بأسماء الوجهاء والعلماء والقادة الواجب انضمامهم إلى الوفد الذي سيأتينا حتى نقبل الصلح، وإن تغيب أحدهم فلا عذر له ولا لبغداد وأهلها.

حصل هولاكو على قائمة بأسماء أهم العلماء والتجار والقادة في بغداد من العلقمي في زيارته الأخيرة التي كان فيها صحبة البطريرك، وقد كان هولاكو واثقاً أن المستعصم سوف يستجيب لأوامره، ولن يجسر على مخالفته، فهو لا يملك خيار آخر.

****

النهاية

بغداد 656 هـ

بعد مقتل عز الدين أيبك وشجر الدر خلى كرسي الملك، وتنازع كبار المماليك حوله، لكنهم رضوا بأن تتم مبايعة عليّ ابن عز الدين أيبك حتى يكون سلطاناً على مصر[79]، وما أراد الجميع ذلك إلا لتأجيل الصراع فيما بينهم عن طريق تعيين شخص محايد إلى حين ما يستطيع أحدهم التغلب على الآخرين والاستيلاء على الحكم.

حاول المماليك البحرية الاعتراض على مُبايعة علي بن عز الدين أيبك، لكن قطز صمم على مباعيته ولم يرضى بغيره، فسوف يكون أطوع بين يديه، ولسوف يكون هو للسلطان الصغير وزيراً ومستشاراً.

وبالفعل تم لقطز ما يريد وتمت مُبايعة عليّ بن أيبك سلطاناً على مصر ولقب نفسه بالمنصور، وكان بالطبع يدين بولاءه التام لقطز، فترك له مقاليد الحكم وتفرغ هو لأمور اللهو وملاعبة الحمام ورحلات الصيد، وكانت أمه لا تتدخل في شئون البلاد إلا قليل، وكلما أرادت أن توجه ابنها لإصدار قرار معين... كان قطز يتصدر لها، ليثبت في كل مرة أن كلمته هي العليا في مصر.

لكن المماليك ظلوا غير راضين عن المنصور علي سُلطاناً لمصر، فظلوا يقلبون الأمور من خلفه حتى يسقطوه وقطز من بعده، وكان الأتابك[80] سنجر الحلبي من أكثر المماليك الرافضين لبيعة علي... طمعاً أن يستأثر بالسلطان لنفسه، واستعان سنجر الحلبي مع بعض كبار المماليك البحرية بالأمراء الأيوبيين في الشام.

وبالطبع حاول الأيوبيين استغلال تلك الفرصة التي تهيأت من الانقسامات الداخلية بين المماليك لغزو مصر وإعادتها أيوبية كما كانت، فحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك[81] غزو مصر مرتين لكن المماليك المعزية وعلى رأسهم قطز تصدوا له وكان الفشل من نصيبه في المرتين.

وبالطبع زاد رصيد قطز وتوطدت أقدامه في إدارة شئون مصر، وانتهز هذه الفرصة للقبض على سنجر الحلبي الذي كان ينافسه في أمور الملك ، وحبسه في الجب بقلعة الجبل، وهرب العديد من المماليك البحرية إلى الشام وحسم قطز الأمور لصالحه بغير الكثير من العناء، ولم تبقى له عقبة غير أن

يزيح المنصور عليّ وأمه عن سُدة الحكم ويستأثر بها لنفسه ويتفرغ للقاء التتار.

****

جلس قطز بجانب فوّاز وهو يحاول إقناعه بأن يمكث في القاهرة، فقد عزم فوّاز على السفر والعودة إلى بغداد مرة أخرى... بعد ما اكتفى من المؤامرات والدسائس المحاكة في مصر.

- قطز: بعد كل تلك السنوات والمعاناة التي عانيتها تريد الرجوع إلى بغداد!، فلم جئت في المقام الأول؟

- جئت لإجاهد في سبيل الله أردت أن انضم إلى أحد جيوش المسلمين حتى أستطيع مواجهة أعداء الله بالسيف، لكن كل ما وجدته هنا مسلمين يواجهون بعضهم البعض في قتال دامي من أجل السلطة والمال، بل وقد كان المسلم يستعين بالصليبي والتتاري ليواجه أخاه حتى يستطيع الاستئثار بالسلطة، وأنا لا أريد أن أكون جزء من تلك الصراعات النجسة الآثمة.

تغير وجه قطز غضباً مما يقوله فوّاز، لكنه آثر التعقل وهو يحاول إثناء فوّاز عن السفر، فقد كان يعلم أن فوّاز رجل مخلص سليم الفطرة غير خائن فأراد استمالته ليكون له حارساً ومستشاراً ووجاءاً، فهو يخشى على نفسه من المؤمرات... فبات لا يثق بأحد بعد ما فعله هو نفسه في إخوانه من المماليك ومن بعدهم سيده عز الدين أيبك، الوحيد الذي شعر أنه يمكن أن يثق به هو فوّاز بن سالم البغدادي... فلم يعهده يوماً خائناً وقد كان مخلصاً لمبادئة متمسكاً بها مهما زادت عليه المغريات التي تدعوه للتخلي عنها.

- قطز: أعلم أني ارتكبت العديد من الأفعال التي لم ترضى عنها، لكني أعدك أني لن أعود لارتكاب مثلها في المستقبل، فكل هدفي أن اتحكم في ملك هذه البلاد حتى يتثنى لي مواجهة التتار.

- هم لبلادي اليوم أقرب، فهم على اعتاب بغداد الآن، ومن واجبي أن أرجع أدافع عن وطني واخوتي.

- بغداد ساقطة لا محالة، فالمستعصم رجل ضعيف وبطانته بطانة سوء، والبلد غارقة في الكوارث والفتن والصراعات.

ضحك فوّاز باستهزاء:

- وأنتم هنا متفقون مستقرون مستعدون لمواجهة العدو.

- لسوف نكون كذلك، فلن اسمح بغير ذلك، أفهمني يا فوّاز ... قد عشت من أجل هذا الهدف وسوف أموت دونه، وأنت تعلم أن الكثير من المنجمين قد تنبئوا لي بملك مصر ومقاتلة التتار، وها أنا على مشارف تحقيق الحلم، فهل تتركني في هذا المقام!

- حتى وإن تحققت نبؤة منجميك وحققت حلمك، فمالي أشعر أنك تريد مقاتلة التتار حمية تريد الانتقام لبني قومك من الخوارزمية؟ ولن أشعر بالإخلاص إن قاتلت بجانبك في تلك المعركة.

- لكنك أقسمت يوم كنا نقاتل الصليبيين أن يكون سيفك بجانبي يوم أقاتل التتار.

- وقتها كنت أحسبك مخلص النية لله تعالى، أما الآن فلست أثق في ذلك، فضلاً عن أن التتار اليوم على أعتاب وطني... ولم يصلوا إليكم بعد.

قطز في غضب:

- قد أكثرت جدالنا يا فوّاز، ولولا معرفتي بصدقك وسلامة نيتك لقتلتك في التو والحين جزاءا وفاقاً لما تقول.

- ضحك فوّاز: وهو عين ما أتحدث معه، فصاحب السلطان يكون مثل الراكب على السبع، يهابه الناس وهو لِما يركبه أهيب.

قطز بلومٍ ضاحك:

- أتريد أن تركبني يا فوّاز؟!

- أنت تفهم مُرادي يا قطز، عامة سوف أعد العدة للسفر على أن اتحرك بعد الغد على أقصى تقدير.

ترك قطز فوّاز يقوم بعد أن يأس منه، وذهب هو الآخر ليلتقي بالشيخ العز بن عبد السلام، لينسق معه في شأن إعدادات الفترة القادمة، فسوف يحتاج لتأثير الشيخ في جموع الرعية ليحضهم على الجهاد في سبيل الله والاجتماع من أجل مواجهة الجيش التتاري، فبغداد قد تسقط في أي وقت من الآن فصاعداً، وهي إن سقطت زال الحاجز الأخير بين التتار وبينهم وأصبحت المواجهة حتمية.

مع أن فوّاز رفض المكوث مع قطز ومساعدته في استكمال هدفه والجلوس على عرش مصر ومحاربة التتار، فقد احترم قطز رغبته في النهاية وأرسل معه سرية صغيرة لترافقه في سفرتهِ إلى بغداد.

وكان قطز يهدف من تلك السرية أيضاً تلمس أخبار التتار ومعرفة الطرق التي يتبِعونها في حروبهم ومبلغِ عدتهم وعتادهم، وبالفعل تحرك فوّاز في

غضون أيام قليلة ليكون بجانب أسرته خلال هذه الظروف العصيبة التي يمر بها وطنه، تحرك فوّاز صحبة خمسة من الرجال، وكان كل منهم يركب حصاناً وكان الرجال مُحملين بالطعام والشراب الكافي لبلوغ بغداد وما بعد بغداد.

تحركت السرية الصغيرة إلى وجهتها، وأخذ فوّاز يُقَّيم موقفه طوال السنين الماضية، هل كان مُحقاً عندما ترك بغداد قبل سنوات رغبة منه في الجهاد من بعد ما ملَّ حياة الخمول والدعة؟، هل استطاع فعلاً أن يجاهد كما أراد؟ فما لاقاه هنا في مصر أخوة يتقاتلون مع بعضهم البعض فعزف أن يقاتل مع طرف ضد الآخر، فهل كان المستعصم على حق عندما انعزل بدولته عن باقي الأمم الإسلامية؟، هل كان يعرف مقدار الطمع والجشع الذي أصابهم؟، هل كان أخوه بُرهان على حق عندما أراد الجهاد بالكلمة ونشر العلم وإصلاح مجتمعه؟.

قد اشتاق لأخيه بُرهان كثيراً، كيف ترى أولاده وبناته الآن؟ لابد أنهم شباب يافعون وشابات جميلات، فقد مرّ قرابة العشرين عاماً منذ غادر بغداد، وكيف حال أبيه وأمه، عندما جالت عائلته بمخيلته شعر بالندم والخوف... الندم لأنه تركهم لرؤية لم يستطع إنفاذها وحلم لم يستطع تحقيقه، والخوف عليهم الآن من هجمة التتار الغادرة على بلاده ووطنه.

أمر فوّاز ركبه المرسل معه من قبل قطز بالتحرك على نحو أسرع إلى بغداد، فصاروا لا يرتاحون في الطريق إلا لنذرٍ يسير، حتى وصلوا إلى ما قبل أسوار بغداد، ولاح الجيش التتاري الجاثم فوق وطنه الحبيب وكأنه السبع فوق صدر فريسته يتهيأ لافتراسها، تشاءم فوّاز وقتها، فمع أنه كان يعلم بأمر الحصار المضروب على بغداد، لكن السمع شئ ورؤية العين شئ آخر، العديد من التجار حظروه في الطريق أنه لن يستطيع النفاذ إلى داخل بغداد، لكنه مع ذلك تقدم في طريقه وصمم أن يدخلها، لكن الآن هو يشعر بالشك وعدم الثقة، فحصار التتار حصار مُحكم لم يترك له منفذاً يستطيع استغلاله.

رابط فوّاز في مكانه صحبة الرجال يوماً أو بعض يوم، وأخذ يدور حول أسوار المدينة من وراء الجيش وعلى مسافة بعيدة منهم، حتى تهيأ له منفذ كان يعرفه قديماً في سنوات الصبا يستطيع الدخول منه، وعندها ودعه رجال قطز... فهم لا يريدون الدخول في شبكة الصياد، ولا يريدون أن يكونوا سجناء هذا الحصار المُحكم.... وقد غلب على ظنهم أن لن ينجوا منه أحد.

دخل فوّاز المدينة، وبمجرد دخوله أحس بمدى الفوضى والتخبط في البلاد، فقد توقفت حركة التجارة وشرع الناس يبيعون بيوتهم وحوانتيهم بأسعار بخسةٍ رغبة في الفرار من الهجمة التتارية وقد غلب على قلوبهم اليأس وتقبل الهزيمة، وعرف فوّاز ما كان من هزيمة جيش بغداد في معركة

الأنبار على يد القائد بيجو، وأن الخليفة الآن يفكر في شروط الاستلام الذي لا مناص منه.

هرع فوّاز إلى بيت أباه وفتح باب الحديقة، لكنه أحس بجو مقبض، فقد كانت الأزهار جافة وقد تشققت طبقات الطين شوقاً إلى الماء، وكانت جوانب البيت كلها يظهر فيها أثر الإهمال واللامبالاة .... والحزن، اشتم فوّاز رائحة الخبيز، فتقدم بضعة خطوات ناحية الفرن المستقر خلف المنزل ليجد أمه ساهمة تشرف على الخبيز الذي تعده إحدى الجواري، وعندما أحست ميسون بدبيب الخطوات من وراءها... نظرت بوهن خلفها لتجد ابنها يقف وراءها تماماً وينظر لها في شوق حقيقي، أجفلت منه في البداية لكنها قامت واحتضنته بشدة وأخذت تبكي بين زراعية، ليشعر فوّاز مرة أخرى أن شيئاً رهيباً قد حدث... شيئاً غير هذا الحصار المشئوم المضروب على مدينته.

- ما بك يا أمي... أهي دموع السعادة برجوعي إليكم، أم أن أمر سوء قد حدث؟

لم تجبه ميسون وشدته بيدها المُبللة بالدموع إلى الداخل:

- تعالى إلى الداخل، فسوف يسعد أبوك برؤياك ... لن يصدق أنك قد عدت.

دخلا الإثنان إلى على غرفة أبيه، الذي كان على سريره يقرأ في كتاب، كانت ملامح الشيخوخة بادية على وجهه، فقد صلع رأسه وابيض كثير من شعر لحيته، هوى فوّاز على أبيه والتقم يده يقبلها وعيناه تدمع ليفاجئ بملمس جلد أبيه المتكرمش، تلك اليد القوية الفتية التي طالما حمته وزادت عنه قد أصابها الوهن، شعر فوّاز بندم عميق أنه ترك أباه وأمه طوال تلك السنوات على حالهما من الضعف، وبعد لحظات العناق وتبادل كلمات الشوق واللوم، سأل فوّاز أباه:

- لكن أين بُرهان؟ ألا يساعدكم في شئ؟ ألا يزاوركم هو وزوجته وأولاده؟

تبدَّت ملامح الحزن عميقة في وجه الأب ، ووجه محياه جهة اليمين لوهلة يحاول المراوغة، ثم عاد وواجه ابنه :

- قد قتل أخوك يا فوّاز، قتل في السوق منذ أربع سنوات على يد أحد رجال القلعة؟

- ولِم يحاول رجال القلعة قتل أخي؟

- كان يحاول الإصلاح بين السنة والشيعة... وتهدئة الأوضاع في الكرخ والكاظمية، وهو الأمر الذي اعتبره رجال القلعة دعوة للدعة والاستسلام

يقدمها بُرهان رحمه الله إلى بني قومهم حتى يتقبلوا الذل والمهانة من دار الخلافة.

شعر فوّاز بالحزن يعصر قلبه والغضب يملأ جوانحه رغبة في الانتقام:

- لكن كيف عرفتم أن قاتله من رجال القلعة؟

- قد صاح المجرم الذي قتل آخاك وهو يغرز النصل في رقبته صيحة رجال القلعة "بسم الله، الله أكبر، تقبل تحية ركن الدين شاه"، وكان مالك صحبة أخيك ... لكنه استطاع الفرار وأخبرنا بجميع ما حدث.

شعر فوّاز بغضبٍ عارم:

- وهل تمكن العامة من قاتل أخي؟

- تمكنوا منه وتم تسليمه إلى صاحب الشرطة وتم سجنه سنوات بغير أن يُبَت في أمره، سنوات وأنا انتظر القصاص العادل حتى اقتص الجبار المُنتقم لي ولأمك... فقد كانت زنزانة هذا المجرم الذي قتل أخاك قبو تحت الأرض، وفي عام الفيضان امتلأت زنزانة هذا المجرم الذي قتل أخاك بالماء عن أخرها ومات غرقاً، قد تلكأ ابن الخليفة في محاسبة المجرم، حتى ظننته لن يحاسب.

تذكر فوّاز حسين، صديقه الشيعي الذي قابله منذ سنوات مضت وكان يريد الالتحاق بالقلعة، فلم يشعر بذرة تعاطف مع الحشاشين رغم وجود صديقه بينهم، فقال في شماتة واضحة:

- قد نالَ أولئك المجرمون جزاءهم وفاقاً، فقد تهدمت قلاعهم وسُبيت نساؤهم وقتل رجالهم على يد أولئك البرابرة الأنجاس.

- أولئك البرابرة يُحاصرون بغداد ولا نملك لهم رداً، فقد هزم جيشنا وهُدمت أسوارنا ولم يبق لنا ركن نأوى إليه، فلنواجه مصرينا في صمت وجلد.

حزن فوّاز حزناً شديداً، حزن لموت أخيه بُرهان، وحزن لشعوره أن بغداد وطنه وعاصمة الخلافة في نزعها الأخير، وبعد أن جالس أمه وأباه بعض الوقت أوى إلى غرفته ليجدها على حالها كما تركها، حاول الاسترخاء على فراشه فلم يستطع رغم وعثاء السفر، فقرر ارتداء ملابسه والخروج ليعرف أحوال الناس... فجرته قدمه إلى بيت مالك، عندما رأى مالك فوّاز عرفه بصعوبة لكنه رحب به بحماسة وإن كان يبدو الثاني مشغول البال:

- صدقني يا فوّاز ما قصرت في حفظ حياة أخيك بُرهان، فقد كان بمثابة أخ لي، وإنما هربت لما أيقنت من نفاذ أمر الله في بُرهان رحمه الله.

فوّاز وقد أطرق:

- لا عليك يا مالك، أعرف قدر حبك وإخلاصك لأخي، لكن أين ذهب الحشاش الآخر؟

- هرب ولا يعرف أحد له طريق، ولو كانت البلاد تمر بأحوال عادية لاستطاع صاحب الشرطة القبض عليه، لكن حالنا كما ترى بسبب الحصار المضروب علينا وترقب الجميع لنتائج المفاوضات.

- دعنا نذهب لأحمد، فقد اشتقت إليه كثيراً.

نظر مالك إلى فوّاز في ثبات:

- قد مات أحمد قبيل موت أخيك، فمنذ حادثة اختطاف واغتصاب زوجته لم يعد أحمد الذي نعرفه، فقد باتت فكرة الانتقام تسيطر عليه، وقد أيقن أن أبا العباس هو من فعل ذلك بزوجته نكاية في شيعته، فحاول اغتياله فمات دون ذلك، وتم صلبه وتعليقه عارياً قرب المنطقة التي كنا نجتمع فيها صغاراً، رحمه الله ... رغم أنه تنكر لأخيك في أواخر أيامه إلا أن أخاك حزن عليه حزناً شديداً.

أحس مالك وفوّاز بحركة غير عادية في المدينة، وعندما سئلا عن السبب، أجابهم أحد المارة أن الخليفة وكبار رجال الدولة خارجون الآن لمُلاقاة هولاكو لإعلان استسلام بغداد.

أخذ فوّاز ومالك يرقبان الموكب الكئيب وسط غيرهما من أهل بغداد، وقد غلب الحزن على الجميع وغلفت الأجواء القاتمة المشهد، فها هو الخليفة المُستعصم ووزيره العلقمي يتصدران الوفد وخلفهما أكابر رجال الدولة من الدويدار الصغير وسليمان شاه والتجار والعلماء وأئمة المساجد ذاهبون صاغرون إلى هولاكو ليلعنوا استسلامهم وأنه قد تم تسريح الجيش بالكامل ونزع الأسلحة منه، وأنه قد تم دك الحصون وردم الخنادق.

عندما اقترب الوفد البغدادي من أسوار المعسكر التتاري قام بمقابلته طومان من الجيش التتاري، وقام بمراجعة أسماء وصفات الوفد القائم بالزيارة، وقد كانت لديه تعليمات مُسبقة من هولاكو بالسماح لبعض الأشخاص فقط في الوفد بالتقدم نحو خيمته، وبعد مراجعة وتدقيق دام قرابة الساعتين، سمح القائد بتقدم الاثنى عشر فرداً فقط من الوفد وتم احتجاز الباقي، ولم يكن وسط الإثنا عشر فرد سليمان شاه ولا الدويدار الصغير، فلم يسمح لهم بمقابلة هولاكو.

دخل المُستعصم صحبته العلقمي والبطريرك مكيكا وبعض التجار المختارِين بعناية، وكان استقبال هولاكو للوفد فاتراً، فقد كان هولاكو جالساً

مباعداً بين قدمية وهو ينظر إلى الخليفة ووفده باحتقار، ولم يشعر المستعصم بأن الجند التتاري قد قدم الاحترام اللازم لشخصه كخليفة للمسلمين جاء يعقد معاهدة صلح، لم يبدأ هولاكو بالحديث فحاول المُستعصم كسر الصمت المخيف القاتل.

- أهلاً بقائد المغول والتتار، إنه لشرف عظيم أن التقي بك وجهاً لوجه.

لم يرد هولاكو بكلمة واحدة الأمر الذي جَمَّدَ الدماء في عروق المستعصم، وجعل حبات العرق تبرز فجأة من جميع مسام جسده حرجاً وخوفاً، وبعدما أحدث صمت هولاكو أثره المطلوب أومأ للخليفة بأن يجلس، فجلس المُستعصم والآخرون وقوف، وفجأة سمع الجميع أصوات صرخات استغاثة من الخارج وصوت قرع السيوف، فعرف المستعصم أن القتل الآن يُعمَّل في كبار رجال دولته، وأنه الآن كائن تحت رحمة هذا الأمير بعد أن جرده من جيشه وحصنه ورجال دولته.

فقد الخليفة السيطرة على نفسه، ولم يستطع حتى الاعتراض على التقتيل الكائن خارج الخيمة، وكان صراخ الرجال وأنينهم يثير الرهبة في القلوب، أخذ هولاكو يرقب قسمات الخوف البادية على وجوه الرجال الماثلين أمامه في استمتاع وهدوء، ولما هدأت أصوات الصراخ وقرع السيوف في الخارج، أشار هولاكو بعينيه إلى أحد حراسه فحضر وقيد الخليفة ومعه بعض التجار، وترك مكيكا والعلقمي يسيرون في صحبة الحرس، نظر الخليفة إلى وزيرة العلقمي نظرة جانبية تحمل معنى اللوم والرجاء واليأس والغضب، فقد أدرك الآن بما لا يقبل الشك أن وزيره قد خانه وخان بغداد، لكن فات أوان اللوم الآن، عل وزيره يشفق عليه وعلى أبناؤه فيحفظ لهم حيواتهم بعد سقوط الخلافة.

تقدم هولاكو وخلفه المستعصم ورجاله ليجدوا أصحابهم مُقطعي الأوصال على قارعة الطرق، ونظر المستعصم في الأفق فوجد رأسين مُعلقين على رمحين فوق تل عليّ، وعندما اقترب عرف أنهما رأسي الدويدار الصغير وسليمان شاه، وعندما اقترب أكثر... تبدت له ملامح الرعب والخوف التي بقيت مرتسمة على رؤوسهم المبتورة المعلقة فوق أسنة الرماح.

دخل هولاكو المدينة وجنده من قبله يأمنون تحركاته حتى استقر في قصر التاج، فجلس على العرش ووجه حديثه إلى المستعصم أخيراً...

- طالما سمعت عن كنوز الشرق، فأين تخفي أموالك أيها المستعصم.

لم يجد المستعصم في نفسه الشجاعة على المماطلة، فأقر بالمكان الذي كان يخفي فيه كنوزه بغير مواربة، عسى أن يكون ذلك شفيعاً له... عسى أن يتركه هولاكو سالماً هو واسرته، قام هولاكو صحبة حرسه والمستعصم

لتفقد المكان الذي يحتفظ فيه بكنوز بغداد، وفوجئ هولاكو من كمية الذهب والأحجار الكريمة والأموال والجواهر التي وجدها داخل هذا القبو الذي يحتفظ فيه الخليفة بأمواله، فقال الأمير الفاتح:

- اتعجب ... إن كان لك كل هذه الأموال، لمَّ لم تحاول أن تبني بها جيشاً يحفظك ويحفظ ورعيتك في يومٍ كهذا، أخبرني... هل نفعك ما كنزت اليوم؟

لم يستطع المستعصم الرد، فقال هولاكو موجهاً أوامره لجنده:

- فليسجن المستعصم في هذه الغرفة مع أمواله التي اكتنزها وأحبها.

وقال ناظراً إلى المستعصم:

- ليس من اللياقة أن نترك الخليفة بلا ونيس.

واستدار الجميع من بعد ما تم حبس الخليفة في القبو الذي يحتفظ فيه بأمواله، وأخذ هولاكو في الساعات التالية، يُنقب في المدينة عن أموال التجار ويعرفُ مسالكها، وبالطبع لم يجرؤ أحد التجار على إخفاء أمواله بعدما دل خليفتهم على موضع كنزه، لبث هولاكو في تتبع جميع ما اكتنز التجار في المدينة...حتى أيقن أنه تحصل على جميع ما تم اكتنازه فأمر بقتل جميع التجار، ورجع هولاكو إلى قصر التاج، ودخل عليه الحرس المُعيّن على الخليفة يخبره أن الخليفة يطلب الطعام فهو جائع، فتعجب قائلاً:

- وهل لهذا الرجل عديم الشعور شهية الآن، فلتقل له أن يأكل مما اختزن من أموال، علها تكون ذات نفع له الآن.

دخل قائد الجند وأخبر هولاكو أنه قد تم السيطرة على المدينة بالكامل وتم جمع أموالها وكنوزها، فأعطى هولاكو الأوامر بإحضار المُستعصم وأبنائه إلى ساحة السوق.

****

كان جميع الرعية حضور... فوّاز، مالك، سالم وحتى ميسون، فالمشهد مع قسوته مثير للفضول، فمستقبل بغداد سوف يتحدد خلال الساعات التالية، فها هو خليفتهم مقيد هو وأبناؤه وبناته وأزواجه أمام الأمير المُنتصر، فهل سيعفو عنهم أم سيقتلهم؟ وما يكون مصيرهم مع الأمير الجديد؟.

أمر هولاكو بأبناء الخليفة أبي العباس أحمد، وأبي الفضل عبد الرحمن وأبي المناقب مبارك، وبإشارة من يد هولاكو هوى السيف على رقبة الأميرين لتقع الرؤوس الكريمة على الأرض وتتفجر الدماء الزرقاء من منبتهما ضخاتٍ

ضخات وسط شهقات الخوف والعجب من الحضور، حاول المستعصم أن يغلق عينيه فلا يبصر رؤوس أبنائه التي استقرت على الأرض، لكنه لم يعرف كيف يسد أذنه عن صرخات زوجته عصمة الدين والدنيا... فقد كانت تصرخ خوفاً أن يصيب ابنها مبارك مثلما أصاب أخويه، عاد الخليفة وفتح عينيه ليجد تلك الرؤوس التي طالما حنا عليها... مبتورة مهانة في التراب، لكنه لم يبكِ، فقد كان يشعر أن جميع ما يمر به كابوس رهيب سوف يفيق منه بعد حين، حتى وإن كان الفواق يعني موته هو الآخر ليلحق بأبنائه.

لكن يبدو أن الكابوس سوف يطول بالخليفة بعض الشئ، فقد تم أسر ولده أبي المناقب مبارك، وبناته الثلاثة أمامه وتم التحفظ عليهم صُحبة الجند التتاري ليبدأ من بعد ذلك الحفل...

استباح جنود هولاكو عاصمة الخلافة بإذنه فأعملوا فيها الحرق والقتل، وقسم الجنود أنفسهم جماعات يسطون على الأحياء ويدخلون البيوت لينهبوا ما بها، فيسبوا من شاءوا من النساء ويقتلوا من يزهدون فيه منهن بغير وازع ولا رادع، اللهم إلا أمر أميرهم إياهم أن لا يمسوا المسيحيين والشيعة من المسلمين بسوء.

في هذا الوقت هرع مالك وفواز كلٌ إلى بيته، لا يدري أحدهما ما يفعل إن قامت أحد الفرق التتارية بالإغارة على منازلهم، وصل مالك بيته ليجد أباه وأمه مقتولين، أبوه كان مُلقى صريعاً في مدخل البيت وقد أصيب بضربة سيف على رقبته ووجد أمه ملقاة على وجهها... وموضع الطعن بادياً في ظهرها وحوله بقعة متسعة من الدماء غزت ثوبها الأبيض، أخذ مالك يبكي أباه وأمه ويقبلهما، وأخذ يحاول سحب أبيه من جوار الباب ليضعه بجانب أمه، وأخذ يقبل قدميهما وهو يبكي ما يدري ما يفعل.

أما فوّاز فرجع هو وأبوه وأمه إلى المنزل، وكان والداه يشعران بالذهول مما يجرى حولهما، أخذ فوّاز يُترس المنزل منتظراً قدوم جند التتار، ولم يمر كثير من الوقت حتى شعر بهم يقتربون، ولم تجدي تلك التجهيزات التي أعدها نفعاً أمام هجمة الفرق التتارية على منزله، فوجدهم وجهاً لوجه معه وكان قد أغلق على أبويه غرفة في الداخل.

جرد فوّاز حسامه واستعد لمقاتلة جند التتار، لكن الكثرة تغلب الشجاعة، فسرعان ما جندلوه ووقع صريعاً على الأرض وأخذوا يفتشون المنزل، حتى عثروا على سالم وميسون، أما سالم فقد ضربه واحد من الجند بالسيف على رأسه فشجه... فبرزت عينه على نحو بشع من موضع الشجة، ولم يمهله الجندي التتاري الآخر... فغرز سيفه في سويداء قلبه فخر سالم على الأرض صريعاً وهو يستمع إلى صرخات زوجته الهستيرية، اقترب أحد الجند من

ميسون وأخذ يحاول أن يقلبها بين يديه وهي تقاوم وكأن بها مس من الجنون، حاول أن يكشف الجندي عن عورتها ليتخذ قراره الأخير بشأنها فما استطاع أن يمزق من فوقها إلا النذر اليسير، وقال أحد الجند للجندي الذي يحاول أن يعتدي عليها بلغة لم تفهمها ميسون...

- دعها فهي عجوز وسوف نجد من هُن أصبى وأجمل منها، فلا تجهد نفسك معها.

اتخذ الجندي قراره الأخير فغرز سيفه في عورتها من شدة غيظه منها وهي تصرخ، فأخذ الجندي ينظر إليها في عينيها ويقلد صرخاتها استهزاءاً ثم قتلها أخيراً.

كان المستعصم يشم رائحة الحرائق ويسمع صرخات النساء اللاتي يتم اغتصابهن، وكان يسمع صوت السيوف وهي تحصد رؤوس الرجال، لكنه لم يكن يبالي، كان يشعر أن هذه ساعاته الأخيرة في هذه الدنيا، بل وحتى عندما سمع صراخ زوجته ليلى أم أبناؤه الثلاثة تصرخ وتستنجد لم يأبه لها، كان اللعاب يسيل من فمه، فبدا وهو مقيدٍ كمعتوه قد فقد عقله.

في غضون ذلك كان مالك لازال يبكي تحت قدمي والديه، لكنه أفاق عندما استمع إلى دبيب أقدام جند التتار تدنو من منزله ثانية، فقام سريعاً وهرب من النافذة وأخذ يجري بين المنازل وهو يترقب، فوجد أحد القنايا التي الناقلة للماء فنام فيها مختبئاً، ولبث مالك في موضعه هذا عدة ساعات حتى نام، ولما استيقظ وجد الأوضاع قد استقرت قليلاً فتحرك من مخبأه يبحث في المنازل عن أي طعام يسد به رمقه، فدخل منزل من المنازل وقد وجد بابه مفتوحاً ليجد جميع من فيه صرعى وأخذ ينقب عن طعام فوجد بعضه فأخذ يلوك في فمه بعضاً مما وجد، لما سمع مالك أصوات في الخارج لم يفكر إن كانت أقدام بني قومه أم أقدام جند التتار، فقط فكر في الهرب والعودة إلى مخبأه.

ومرت أيام على هذا المنوال، ومالك مختبئاً، يَخرج من مخبأه في مراتٍ نادرة للطعام يسرقه من منازل النافقين، وكان في بعض الأحيان يستمع إلى أحاديث من فوقه أو حوله وهو لايزال مختبئاً، تارة تكون أحاديث لا يفهمها من جندِ التتار، وتارة أحاديث من جيرانه من المسيحيين والشيعة، وسمع ذات مرة أن الخليفة المُستعصم قد مات، وأنه قد تم قتله عن طريق وضعه في جوال وهو مقيد، ثم تم ضربه بواسطة سنابك الخيل والماشية حتى مات، ولما سأل الرجل صاحبه عن السبب في اختيار تلك الميتة المهينة للخليفة، أفاده الآخر... أن أحد المنجمين قد تنبأ لهولاكو بفأل سئ، إن هو أسال دماء الخليفة على الأرض فاختار له هذه الميتة في جوال محكم فلا تسيل دماؤه ويُصاب باللعنة.

سأل الرجل صاحبة:

وما مصير مبارك أبي المناقب وبنات الخليفة عائشة وفاطمة وخديجة؟ رد الآخر متحسراً:

- هم أسارى في يد المغول والتتار، ما حدث يذكرني بتلك القصة التي كنا نحكيها لأطفالنا ليتعظوا ويعرفوا قيمة الاجتماع والوحدة أمام الخطر، تلك التي تحكي عن الأسد الهزيل الذي كاد للثيران الثلاث ليُفرق بينهم ويأكلهم الواحد تلو الآخر، فما كان ليقدر عليهم مجتمعين!، كنا نحكيها لهم ليتعظوا ... ولم نتعظ نحن.

نظر إليه الأول وكأنه ينظر إلى مجنون يتفوه الطلاسم، ثم قال بصوتٍ مُتحشرج حزين وهو ينظر إلى السماء في ترقب حقيقي:

- إنها نهاية العالم، سقطت عاصمة الخلافة، وقتل الخليفة واغتصبت نساؤه وقتلت الرعية واستباح البرابرة دماء المسلمين.

قال الرجل ما قال ثم انصرف كالمجذوب يكرر عبارته وهو يبرطم[82] وقد أصابه مس الجنون.

استمر مالك على ما هو عليه مدة أربعين يوماً حتى وصله خبر استئمان هولاكو لأهل بغداد، فخرج على استحياء ليجد القتلى في جميع أنحاء المدينة، وكانت رائحة الموتى تسد الأنفاس، وأخذت جموع الرعية ... أو ما تبقى منهم، في التجول في شوارع بغداد في ذهول تام، وأخذ مالك ينظر إلى الشمس بحزن غير راغب في النظر إلى وجوه من حوله.

رجع مالك إلى منزله ليجد جثة والداه قد تعفنت وانبعثت منها روائح كريهه، فأخذ يتقيأ فلا يسقط من فمه شيئاً.... حتى اعتاد الرائحة والمنظر، وأخذ يحاول حمل أبويه فيحمل أمه تارة ثم يتركها على الأرض تارة أخرى ليوصل أباه إلى جوارها، سقط مالك عدة مرات أثناء محاولاته من شدة الوهن حتى وصل إلى الموضع الذي اختاره لدفنهما... وأتم الأمر بغير غسل ولا كفن، ثم مكث بجانب قبرهما جامداً مُتيبساً لا يَرُد حديثاً، وما أفلح شئ قط في لفت انتباهه ... حتى عندما سمع عن رحيل هولاكو وإمارة العلقمي على بغداد.

تمت بحمد الله

****

[1]عمرو بن الجاحظ شاعر وعالم في الأحياء (159هـ - 255هـ)

[2]جغرافي شهير (283 هـ - 346هـ)

[3]سحاب

[4]تشائم

[5]حديقته

[6]كانت وفاة الخليفة رحمه الله يوم الجمعة ضحى الثالث عشر من رجب سنة 623هـ.

[7]هصر الغصن: أي ثناه أو جذبه إيه، ويقصد بالغصون قدود النساء.

[8]كانت الياسا عبارة عن مجموعة من التعاليم مُستوحاة من الديانة المسيحية والإسلامية والبوذية، وهي موضوعة من قبل جنكيز خان بهدف توحيد قبائل المغول والتتار وإيجاد سبب عقائدي لهم ليقاتلوا من أجله.

[9]يبخل

[10]كان التتار يطلقون على إلههم لفظة "التنيجيري"

[11]كانت هذه الحقيقة معلومة لدى العامة من التتار، لكن لم يكن أحد قادر على تداولها.

[12]قاد جنكيز خان الغزو الأول للصين عام 612 هـ.

[13]معنى أسم جوتشي Jochi هو الضيف في اللغة المغولية.

[14]مات علاء الدين خوارزم شاه عام 616 هـ هارباً في جزيرة نائية قريبة من ساحل مازندار لما أيقن الهزيمة وقد دفن بهذه الجزيرة، وترك الحكم لابنه جلال الدين خوارزم ليجابه المغول والتتار من بعده.

[15]كان سيسنز جواد جنكيز خان المفضل وقد زعم كهان جنكيز وأنصاره أنه جواد مقدس يقف بقداسته وراء انتصارات الخاقان الأعظم في جميع معاركه وحروبه.

[16]كان عمر هولاكو وقتئذٍ عشرة أعوام.

[17]مات عام 624هـ، وقد قال ماركو بولو أن جنكيز خان قد مات من جراء إصابته بسهم في ركبته.

[18]استطاع جنكيز خان غزو مساحات شاسعة من الأراضي في مدة حياته بلغ مجموعها 4,860,000 ميل، وهو الإنجاز الذي لم يستطع أحد من الغزاة قبله ولا بعده تحقيقه، ففي المرتبة التي تليه يأتي الإسكندر الأكبر بإجمالي مساحة غزو 2,180,000 ميل وصولاً إلى نابليون بونابرت الذي غزا 720,000 ميل.

[19]قد نذر فردريك تحرير بيت المقدس من المسلمين إن استتب له الأمر.

[20]لم يتحرك الإمبراطور فريدريك بعدد كبير من الجند لمساندة الملك الكامل فقد اصطحب معه 600 فارس فقط وأسطول هزيل، ووصل إلى الشام وكأنه مقبل على نزهة لا على حرب وقتال.

[21]فكان من ضمن ما أرسله إلى الكامل "أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمر به خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائباً انكسرت حربتي بينهم، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فسيكون صدقة منه"

[22]تم عقد المعاهدة في 22 من ربيع الأول عام 626 هـ وكان مدة المعاهدة عشر سنوات.

[23] 2163 متر.

[24]اعتاد رجال القلعة إطلاق هذا اللقب على سيد القلعة.

[25]هو تعبير يطلقه الإسماعيلية على أنفسهم عندما ينادون على بعضهم البعض.

[26]البراثن: الأظافر

[27]كردستان: وتتكون من كلمتين كرد وستان أي بلاد الكرد وهو مصطلح سياسي يستعمله القوميون الأكراد في الجديد للإشارة إلى منطقة جغرافية كبيرة ممتدة في عدة دول.

[28]وللعجب فقد تعاون معه الخليفة مع شدة العداء بين دولتيهما... ليزيد الفرقة بينه وبين أخاه، فوافق أحمد الناصر "الخليفة العباسي" على مراسلة خال الغياث وكان يسمى "إيغان طائسي" فيقلبه على غياث ويزين له قتاله وحربه، ووعده بإرسال جند من لدنه ليسهل من مهمة إيغان، وبالفعل فقد وافق إيغان

على ذلك وقاتل الغياث وانتصر ليصُبَ جميع ذلك في مصلحة جلال الدين ويستمر هو في قتاله ضد أخيه حتى ينتصر عليه في النهاية.

[29]أوقطاي تعني باللغة المنغولية "الصاعد إلى القمة".

[30]بدأ الكامل في إقصاء نجم الدين منذ عام 633هـ.

[31]كان مملوكاً للملك نور الدين أرسلان شاه، وصار أميراً على الموصل.

[32]الأمة: المرأة المملوكة، وعكسها حرة.

[33]سنجار هي مدينة عراقية تقع غرب مدينة نينوى شمال العراق، ويقال أن أصل التسمية جاءت من سفينة نوح لمّا مرت بجبل بها نطحت به فقال هذا سن جبل جار فسميت (سن – جار)، ويسكن سنجار المسيحيون واليزيديون.

[34]مات الكامل عام 635هـ عن ستين عاماً.

[35]ويشار إليه في كتب التاريخ بالملك العادل الصغير لتمييزه عن جده الملك الكامل الكبير أو الأول.

[36]تم حبسه عام 637هـ عندما تأكد الملك العادل الثاني (سيف الدين) شقيق نجم الدين أنه يراسل الأخير سراً.

[37]كانت أم الملك الصالح نجم الدين أيوب جارية سوداء.

[38]انتضى نصله: أي استل سيفه.

[39]أي ظهرت أشعة الشمس وبرز ضيائها.

[40]الموت

[41]من عادة المغول إن تحدى أحدهما الآخر في الشراب أن يقوم بشده من أذنه ليعلن أنه يتحداه.

[42]مات تولوي والد هولاكو وهو ابن الأربعين عاماً.

[43]يرجع أصل كلمة "نياحة" إلى الكلمة العبرية "منوحة" وتعني الراحة، وقد فضلت الكنيسة إطلاق كلمة تنيح عن كلمة "مات" لتؤكد مفهومها عن الموت الجسدي الذي يعتبر الموت انتقال من عالم إلى عالم أكثر راحة.

[44]الأبن الأكبر لجنكيز خان من بعد جوتشي، وهو الأخ الأكبر لأجوطاي وتولوي.

[45]قيل أنه مات بمبضع مسموم يوم الجمعة 10جمادي الآخرة 640هـ وله من العمر إحدى وخمسون سنة.

[46]كان فيه شهامة زائدة، وكان يقول: لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون، وآخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم.

[47]كانت السنة الأولى من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد على مصر هي سنة 638هـ.

[48]ولد الخليل للملك الصالح وشجر الدر عام 638هـ .

[49]وكان من بنود الاتفاق بين الصالح إسماعيل والصليبيين تسليمهم (صفد وشقيف ونصف صيدا وطبرية كما سمح لهم بشراء السلاح من دمشق)

[50]وتسمى أيضاً معركة غزة أو معركة الحربية كونها قامت بجوار قرية الحربية شمال شرق غزة.

[51]كان قائداً من قواد جيش الصالح أيوب الذين أرسلهم للقتال في الحرب ضد الصليبيين والصالح إسماعيل.

[52]مدينة سورية عريقة تقع في منطقة ريف دمشق وتبعد عن دمشق نفسها بثمانية كيلومترات.

[53]حلوى تشبه القطائف مغطاه بدهن اللوز.

[54]استوزره الخليفة المستعصم بالله عام 642هـ.

[55]لما مات المستنصر لم ير الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجى خوافً منه، وأقاما ابنه أبا أحمد للينه وضعف رأيه، ليكون لهما الأمر.

[56]قلعة بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 638هـ، حتى تكون معسكر وثكنة للجنود المماليك، وزودها بالغلال والأسلحة وجملها وزرع فيها الكثير من الأشجار.

[57]أيبك: لفظ تركي مكون من مقطعين، أي ومعناها القمر وبك أمير، فيكون معناها بالعربية أمير القمر.

[58]قام الملك الصالح بخنق أخيه الملك العادل الثاني في محبسه عام 645هـ بعد أكثر من سنوات له في المُلك.

[59]مات الملك الصالح عام 647هـ عن أربعة وأربعين عاماً في ليلة النصف من شعبان.

[60]في تركيا حالياً.

[61]كانت ولايته بعد موت أبيه بأربعة أشهر.

[62]تم اغتيال توران شاه عام 648 هـ وكانت مدة حكمه 71 يوماً.

[63] يتردد ويتحير

[64]تقصد بالتولونيون أبناء تولوي بن جنكيز خان وهم (منكو خان، قبلاي خان، أريق بوكا)

[65]يُقبلها

[66]وعاء قديم يتم فيه تحضير ماء الورد.

[67]التابعة للكنيسة الشرقية

[68] William of Rubruk راهب من مقاطعة روبروك الفرنسية.

[69]مجموعة مبادئ تنقسم إلى فلسفة وعقيدة دينية، مشتقة من العقائد الصينية بالغة القدم، وتعتبر الطاوية في المرتبة الثانية في الصين من بعد الكونفوشيوسية.

[70]تزوجت شجر الدر من عز الدين أيبك عام 648هـ.

[71]يقصدون توران شاه، أخر ملوك بني أيوب.

[72]تم اغتيال فارس الدين أقطاي عام 652هـ بقلعة الجبل.

[73]يطلق الشيعة على أهل السنة لفظة النواصب احتقاراً لأنهم يناصبون أهل البيت العداء.

[74]المهندسون والفنيون.

[75]كان الجويني مستشاراً لهولاكو يرسل له الرسائل إلى أمراء الشرق، وقد كان مسلم الديانه.

[76]غرقت بغداد عام 654هـ وأحاط الماء بجميع جوانبها، وأخذ الناس تتنقل بالمراكب، فكسدت التجارة وفسدت الأموال.

[77]سبب تلك الفتن والقلاقل، هي أن المصريين كانوا يأنفون أن يحكمهم من مسه الرق.

[78]كانت قتلته ليلة الأربعاء 25 ربيع الأول سنة 654هـ.

[79]بويع بالسلطنة يوم الخميس 26 ربيع الأول عام 655هـ ، وكان له من العمر لما ولى السلطنة إحدى وعشرين سنة.

[80]الأتابكي: هو من ألقاب أمير الجيوش ومن في معناه.

[81]الأردن حالياً.

[82]تكلم بما لا يُفهم

المراجع

1- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي – السلوك لمعرفة دول الملوك – تحقيق محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – الطبعة الأولى – 1418هـ ، 1997م.

2- جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بدري الأتابكي – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – وزارة الثقافة والإرشاد القومي الموسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

3- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي – بدائع الزهور في وقائع الدهور.

4- صبح الأعشى.

5- أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي – البداية والنهاية – مكتبة المعارف بيروت – الطبعة السابعة – 1408هـ، 1988م.

6- أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي التونسي الهاري المالكي الشهير بابن خلدون – تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم البربر ومن عاضدهم من ذوي السلطان الأكبر – بيت الأفكار الدولية – بدون رقم طبعة – بدون تاريخ نشر.

7- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – تاريخ الخلفاء – دار بن حزم – الطبعة الأولى – 1424هـ، 2003م.

8- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي – تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري – دار الكتاب العربي – الطبعة الأولى – 1418هـ، 1998م.

1- Urgunge Onon – The secret hisroty of the Mongols "the life and times of chinggis khan" – routledgecurzon London and new yourk – 2005.

2- Manuscript of an unrecorded treatise on euclid's elementa, by NASIR AL-DIN-AL-TUSI, MARAGHA,dated 1267.

3- Sir E.A wallis budge, KT. - The monks of KUBLAI KHAN emperor of china – Assyrian international news agency books online – first published in 1928.

The journey of William of rubruck to the eastern parts of the world -4 .1253-1255

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

يوم مقتل الخليفة

تدور أحداث الرواية في أربعة أماكن منفصلة تربطهم الأحداث الجسام، فها هي بغداد تتعامى عن المذابح التتارية التي يتعرض لها الخوارزميون. ومصر غارقة في صراعات دامية بين الإخوة في سبيل التاج، وعدم قبول الآخر واضطهاد الأقليات أدى إلى ظهور قلعة آلموت كشوكة في حلق الخلافة العباسية، وذلك في الحين الذي هب فيه المارد التتاري ليلتهم الجميع.

تصميم الغلاف كريم آدم